الأرض- الوطن

رئيس مجلس الإدارة

الدكتورة لبانة مشوِّح

وزيرة الثقافة

المشرف العام

د. ثائر زين الدين

المدير العام للهيئة العامّة السوريّة للكِتاب

رئيس التحرير

د. باسل المسالمة

الإشراف الطباعي

أنس الحسن

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

الأرض - الوطن

تأليف: إدغار موران
آن بريجيت كيرن

ترجمة: د. سلمى دبجن

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

Terre- Patrie

اسم المؤلف: Edgar Morin et Anne Brigitte Kern

اسم الناشر : Seuil,1993

اسم المترجم: د. سلمى دبجن

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

«إهداء»

إلى ابنتي حبيبتي و زهرة عمري

إلى الصديق العزيز مازن المغربي الذي صمم وبإصرار على دفعي باتجاه مجال الترجمة وهذا ما أشكره عليه من قلبي.

إلى الصديق العزيز والأستاذ الموقر عبد الرزاق حجازي مدرس اللغة الفرنسية في ثانوية الباسل للمتفوقين في دمشق، الذي لولا تمكنه وحبه للغة الفرنسية وشغفه وإلمامه بالفلسفة لما كان لهذه الترجمة أن ترى النور.

المترجمة

يجب إعادة بناء كل شيء.

مارسيل موس

نحتاج إلى حوارات عالمية.

ارنستو ساباتو

لاشيء ما هو إنساني غريب عني.

تيرانس

مُقَدِّمَة

«الأزمة ليست نقيض التقدم، انما هي صورته عينها»[1]

أفكارنا ورؤانا شبه الإيمانية حول الطبيعة والكون والأرض (منزلنا)، طبيعتنا نحن أنفسنا...كلها تعرضت إلى زلزلة انقلابية أمام السيل الجارف والشمولي للتقدم الجذري الذي أدخل ثورة في العلوم كافة. هذا التقدم «progrès» اقترن بوعي كوني جديد، وعي يتوجب عليه أن يدرك الملامح ذات البعد البربري في عالم حديث يلهث بتطور آخذ في التسريع الذاتي.

هذا الكتاب يبدو كأنه وصية تعرضُ تعاسة القرن العشرين وتفتح ثغرة ضوئية نحو قرن قادم، حيث يؤسس إدغار موران نقطة انطلاق «للخروج من عصر ما قبل التاريخ للفكر الإنساني المعاصر»[2] «عبر تفكير متعدد المراكز يكون قادراً على تبني رؤية كونية ليست مجردة بل رؤية كونية واعية بتعدد الشرط الإنساني، تفكير يتغذى من مختلف ثقافات العالم»[3].

---

(١) إلى أين يسير العالم - إدغار موران.

(٢) تربية المستقبل - إدغار موران.

(٣) المصدر السابق.

يحثنا موران على القيام بخطوة ارتدادية من إبان التفكير في مفهوم الأرض- الوطن مشيراً إلى أي حد أصبحت أزمات الحاضر كونية، سواء كانت زلازل اقتصادية أم اختلالات ديموغرافية أم تهديدات بيئية.

يريدنا أن نتسلح ضد العُصاب الجماعي لمجتمعاتنا لتشكيل ما سماه «الهوية والوعي الأرضيين»، فيطرح خيارين لا ثالث لهما: إما أن ندرك الحقيقة الكونية وحدودها الشمولية داخل الوعي، وإما ...أننا سنسقط ونتهاوى في مستنقع البربرية.

عبد الرزاق حجازي

تمهيد

تاريخ التاريخ

ما قبل التاريخ والتاريخ

انتشرت المجتمعات "القديمة" من الصيادين – الجامعين، فوق الأرض، على مدى عشرات الاف السنين. أصبح بعضها غريباً عن بعضها الآخر بفعل المسافة واللغة والطقوس والمعتقدات والأعراف. كما اختلف بعضها عن بعض، بعضها المنفتح والليبرالي، والآخر المنغلق والمُقّيد، منها من جعلت السلطة مُشتركة وجماعية، في حين اعتمدت أخرى سلطة مركزية. ولكنّها شكلت، على الرغم من اختلافها، الأنموذج الأساسي والأول لمجتمع الإنسان العاقل (sapiens Homo) [1]. شكّل هذا الشتات من المجتمعات القديمة، الذي يجهل بعضُه بعضَه الآخر، على مدى عشرات آلاف السنين: الإنسانية.

تجاهل تطور الحضارات المدينية / الريفية هذا المجتمع، ثم دمّره. إذ أدى توسع هذه المجتمعات الحديثة إلى طرد المجتمعات البدائية باتجاه الغابات والصحارى، حيث اكتشفها رحالة ومنقبو العصر "الكوكبي" قبل

---

(١) راجع إدغار موران، الأنموذج المفقود، باريس، دار النشر سوي، دراسات بوان ١٩٧٩ الصفحة ١٦٥ - ١٨٨.

القضاء عليها وإبادتها. تمت إبادة كل هذه المجتمعات البدائية تماماً اليوم ما عدا بعض الاستثناءات النادرة، دون أن يتمثل مبيدوها القسم الأهم من معارفها التي تشكلت على مدى آلاف السنين. كان التاريخ عديم الرحمة تجاه الحضارات التاريخية المهزومة، عنيفاً بلا هوادة نحو كل ما ينتمي إلى ما قبل التاريخ. لم تُخنق حقبة ما قبل التاريخ لكنها أُبيدت. عملت الإنسانية بنفسهاعلى إبادة نهائية لمؤسسي ثقافة الإنسان العاقل ومجتمعه، وبذلك تطّورت كما جريمة الولد الذي يقتل والديه.

ربما بدأ التاريخ في بلاد ما بين النهرين منذ عشرة آلاف عام، وفي مصر منذ خمسة آلاف عام، في وادي السند وفي وادي الهونغ بو في الصين منذ ألفين وخمسمئة عام. ومن خلال عملية تحول اجتماعي عظيمة تأسست مدن وممالك وإمبراطوريات مكونة من عشرات الألوف ثم مئات الآلاف، ومن ثم الملايين، مع زراعة، وبنوا المدن، ولديهم حكومات، ويعتمدون توزيع العمل، وتعتمد مجتمعاتهم التقسيم الطبقي، ولهم حروبهم وعبيدهم ولاحقاً حضاراتهم ودياناتهم الكبيرة، حلت هذه البنى محل المجتمعات الصغيرة التي لا تملك زراعة ولا مدناً ولا دولاً.

ومن هذا المنطلق يمكن رؤية التاريخ بأنه ظهور الدول و تعددها والصراع فيما بينها حتى الموت، إنه الاحتلال والغزو والاستعباد و المقاومة والثورة والتمرّد، إنه المعارك والدمار والانقلابات والمؤامرات، وهو تدفق القدرة والقوة والسلطة التي لا حدود لها، إنه السيطرة المرعبة لآلهة عظيمة متعطشة للدماء، هو استعباد الجموع والمذابح الجماعية، إنه تشييد القصور والمعابد والأهرامات الفخمة، إنه تطور التقنيات والفنون، وهو ظهور

الكتابة[1] وتطورها ، إنه التجارة البحرية والبرية للبضائع ومن ثم الأفكار، إن التاريخ أيضاً هو بين الفينة والأخرى رسالة من رحمة وتعاطف وفكر يبحث عن سر العالم.

التاريخ، إنه الضجيج والرعب لكنه أيضاً تأسيس الحضارات العظيمة التي تنشأ وترغب أن تكون خالدة، لكنها ستنتهي إلى الموت كلها. وهذا ما حدث لمصر الفرعونية، للآشوريين، البابليين، الإمبراطورية المانوية، الدرافيديين الأتروسكيين، الأوملسكيين، سكان أثينا، للفرس، الروم، المايا، التولتك، الزابوتك، البيزنطيين الانغور، الأزتك، الأنكا، الساسانيين، العثمانيين، سكان هابسبورغ، الرايخ الثالث، الاتحاد السوفييتي. وبينما لم تستطع الحضارة الرومانية الاستمرار سوى بضعة قرون، استمرت منطقتان مستقرتان من الحضارة لآلالف السنين هما تحديداً الحضارة الهندية والحضارة الصينية على الرغم من الغزوات والانقلابات ضد الأسر الحاكمة.

يروي لنا التاريخ التقليدي صخب المعارك ورعبها والانقلابات وإخفاق الطموحات، ولقد وضع هذا التاريخ نفسه على ذرا الأمواج العاتية والدوامات، هناك حيث لم يشهد التاريخ الجديد من الحدث سوى الزبد العابر. ظن هذا التاريخ الجديد الذي بات هرماً الآن أن بإمكانه اكتشاف حقيقة المستقبل عن طريق التحكم بالواقع الاقتصادي - الاجتماعي، ومن ثم توسيع «توجهاته

---

(١) بحدود ٣٠٠٠ قبل الميلاد الكتابة الهيروغليفية في مصر والتصويرية في بلاد الرافدين. بحدود ١٥٠٠ - ١٤٠٠ قبل التاريخ الكتابة المقطعية في الصين، الكتابة الخطية المستقيمة في اليونان و الكتابة الحثية المسمارية في الأناضول وبحدود ١١٠٠ قبل الميلاد يطور الفينيقيون الكتابة الأبجدية.

متعددة الأبعاد والإثنيات». يعود اليوم الحدث والمصادفة اللذان ظهرا في كل العلوم الفيزيائية والحيوية إلى العلوم التاريخية، والتي لم تعد كالزبد بل تحولت إلى شلالات، أنهار سريعة، تغيرات في مسار سيل التاريخ.

قصة التاريخ هي وقائع تاريخية، اقتصادية واجتماعية وعرقية، وأحياناً متعددة التوجهات ويجب أيضاً أن تصبح أنثروبولوجية. إذ أن الأنثروبولوجيا التاريخية يجب أن تأخذ في الحسبان المتضادات: النظام - الفوضى - التنظيم، التي تتعارض، تتوافق، وتختلط عبر الأزمنة التاريخية متأثرة بقوى المتضادات نفسها الكامنة في روح وعقل الإنسان العاقل والمعتوه في آن واحد. وكذلك يجب النظر إلى التنظيمات الاجتماعية المختلفة التي ظهرت على مر التاريخ منذ مصر الفرعونية، أثينا بيريكليس، مرورا بالأنظمة الديمقراطية والشمولية المعاصرة على أنها انبثاق للافتراضية في تطور الإنسان والمجتمعات. وبالمنظار نفسه يجب النظر إلى الحروب، المذابح، الاستعباد، القتل، التعذيب، التزمت الديني وكذلك الإيمان، الفلسفة في أسمى حالاتها هي تحيين للحالات الإفتراضية الأنثروبولوجية. وتعدُّ تفردية بعض البشر أمثال أخناتون، بيريكليس، الإسكندر المقدوني، نابليون، ستالين، شارل ديغول، على أنها التجسيد والتحيين للكينونة (الوجود بالقوة -المترجمة) للإنسان العاقل - المجنون. نحتاج لمراجعة التاريخ بأبعاده المتعددة، بمكوناته من ضجيج ورعب، فوضى وموت. فلقد تخلف تاريخ المؤرخين أنثربولوجيّاً عن تلك المآسي اليونانية وعن كل أولئك النساء اللاتي حملن اسم "إليزابث"، وبشكل متفرد، عن المأساة الشكسبيرية والتي وشت بأن تراجيديات التاريخ كانت تراجيديات الشغف والمغالاة والعمه.

العظمة، الرعب، السمو، القسوة، الأبهة، البؤس. هذه الحقائق المتناقضة والمعقدة (للطبيعة البشرية) تعبر عن نفسها وبأسطورية في التاريخ الإنساني، وتستمر على هذا النحو المغامرة الإنسانية وتنتشر وتتفاقم في هذا العصر "الكوكبي" الذي نعيش فيه. اليوم السؤال الأشد إلحاحاً فيما يتعلق بمصير البشرية هو: هل نستطيع الهروب من هذا التاريخ الإنساني ؟ هل هذا هو الاحتمال الوحيد لمستقبلنا كبشر؟

التواريخ العظيمة

يتمظهر التاريخ انطلاقاً مما ندعوه بالعصور الغابرة، وعلى مدى خمسة آلاف عام، ويتمدد مندفعاً في قارات الكرة الأرضية، لكنه لم يأخذ بعد في القرن الرابع عشر هذا البعد " الكوكبي". على مستوى الأرض قاطبة كانت لا تزال مجرد أحداث تاريخية متنوعة، وأغلبها لا صلة بينها. إنما اختلف الأمر عندما بدأت الحضارات الكبيرة من خلال توسعاتها الحربية والبحرية باستكشاف الأرض. كانت هناك حالة من الاندفاع الكبير نحو الاستيلاء على الأرض، هذا الاندفاع جبار لكنه زائل لا يدوم، مثال الإسكندر، وجنكيز خان، وتيمور لنك. كانت ثمة مغامرات بحرية عظيمة لاستكشاف المجهول في الطرف الآخر من الأرض كما فعل الفايكنج الذين وصلوا القارة الأمريكية دون أن يعوا ذلك، وربما ألقى سكان أمريكا الأصليون المرساة في أوروبا دون أن يعلموا أين هم... وكانت هناك اندفاعات إنسانية من نوعٍ آخرٍ هي انتشار الأديان العالمية التي توجهت بخطابها إلى كل البشر من الهند باتجاه الشرق الأقصى (البوذية)، من آسيا الصغرى باتجاه الغرب (المسيحية) ومن شبه الجزيرة العربية باتجاه الشرق والغرب والجنوب (الإسلام)، لنتبين لاحقاً أن هؤلاء الآلهة الكبار كانوا مجرد آلهة محلية

ويجهلون الكثير عن العالم وعن الأرض وعن الإنسان الذي من المفترض أنه نتاجهم. إبّان العصور الوسطى الغربية وعلى الرغم من حالة الانغلاق وانعدام التواصل السائدة بين الحضارات، تم تبادل وتدجين للمواشي والفواكه والخضراوات من الشرق إلى الغرب، من آسيا إلى أوروبا، وكذلك الحرير والبهارات والأحجار الثمينة. إذ سافر الكرز من بحر قزوين نحو أوروبا واليابان، المشمش من الصين نحو فارس، ومن فارس نحو الغرب، وسافر الدجاج من الهند نحو أوروبا الآسيوية. وانتقلت طرائق حرث الأرض باستعمال الحيوانات، استعمال البارود، البوصلة، الورق والطباعة من الصين إلى أوروبا ما زودها بالمعرفة والأدوات اللازمة لتوسعها واكتشافها لأمريكا خصوصاً. نقلت الحضارات العربية مفهوم الصفر إلى الغرب، واكتشف البحارة الصينيون، الفينيقيون، اليونان، العرب في الأزمنة الغابرة، المساحات الشاسعة من الكرة الأرضية وذلك قبل أن يستوعبوا مفهوم الكوكب، ورسموا بسذاجة خرائط لتلك القطع الصغيرة المكتشفة ظناً منهم أنها تمثل الأرض قاطبة. في المجمل، نستطيع القول أن أوروبا الغربية -على مدى عصورها الوسطى- تلقت من الشرق الأقصى التقنيات والمعارف والطرائق التي ستسمح لها لاحقا باكتشاف القارة الأمريكية والاستيلاء عليها. وكانت هناك عمليات تخمر فكري متعددة في مناطق مختلفة من الأرض أعدت وأعلنت وأنتجت الأفكار والأدوات لما سيصبح لاحقاً العصر الكوكبي. وبينما كانت الإمبراطورية العثمانية تقف على أبواب فيينا بعد استيلائها على الدولة البيزنطية مهددة بذلك قلب أوروبا، ها هي ذي أوروبا الغربية تنطلق عبر البحار معلنة بدء هذا العصر الكوكبي.

-١-

العصر الكوكبي
الثورة الكوكبية

كانت حضارتا المنغ في الصين والمغول في الهند، هما أهم حضارتين على الكرة الأرضية في نهاية القرن الخامس عشر الأوروبي، وكان الإسلام الذي يتابع انتشاره في آسيا وأفريقيا هو الدين الأوسع انتشاراً. توسعت الدولة العثمانية من آسيا باتجاه أوروبا الشرقية، بعد قضائها على الدولة البيزنطية ووصولها فيينا وبذا أصبحت القوة الأعظم في أوروبا. سادت في أمريكا إمبراطوريتا الأنكا والأزتك العظيمتان، وفي تينوشتيتلان (المكسيك) تجاوزت مدينة سوزكو (البيرو) في عدد سكانها وفي غنى الصروح المشيدة، وفي أبهة البناء، عواصم بلدان أوروبا الغربية الصغيرة والناشئة مثل مدريد، لشبونة، باريس و لندن.

إلا أن هذه الأمم الصغيرة والناشئة هي من ستندفع وإبتداءً من ١٤٩٢، إلى غزو كامل الكوكب وذلك عبر المغامرات الاستكشافية، والحروب، والموت، معلنة بذلك بدء العصر الكوكبي.

بعدما وصل كريستوف كولومبس وامريكو فيسبوتشي إلى القارة التي حملت اسمه لاحقاً، بنفس الوقت تقريباً ١٤٩٨ وجد فاسكو دوغاما

الطريق الشرقي للهند بالدوران حول أفريقيا. في عام ١٥٢١ أكدت رحلة ماجلان كروية الأرض. في عامي ١٥٢١ و١٥٣٢ اكتشف كورتيز وبيزاري الحضارات الكولومبية القديمة التي سرعان ما تم تدميرها (الأزتك ١٥٢٢) و(الأنكا ١٥٣٣). وفي الفترة نفسها نجح كوبرنيكوس في بناء أنموذجه حول دوران الكواكب بما فيها حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس. هذه هي بدايات ما نسميه بالأزمنة الحديثة، وهي ما يصلح تسميته بالعصر الكوكبي، الذي بدأ بمعرفة أن الأرض ليست سوى كوكب وترسخ عندما استطاع البشر وصل أجزاء هذا الكوكب المختلفة ببعضها. حدث انقلاب جذري منذ اكتشاف القارة الأمريكية وصولاً إلى ثورة المفاهيم التي سببها كوبرنيكوس، إذ اكتشفنا الكرة الأرضية لكننا فقدنا الكون. لقد انقلبت مفاهيم العالم الأكثر بداهةً وثباتاً، ولم تعد الأرض مركز الكون بل أصبحت مجرد كوكب تابع للشمس ما أفقد البشرية مكانتها المتميزة. لم تعد الأرض مسطحة بل باتت كروية بشكل لا جدل فيه (في عام ١٤٩٢، ظهر أول أنموذج للكرة الأرضية في نورينبيرغ وأُضيف طريق ماجلان إليه في ١٥٢٦) لم تعد الأرض ثابتة بل أصبحت متحركة بحركة دائرية كلعبة اليويو. وتوجب إرسال الفردوس الذي بحث عنه كولومبس في الأرض إلى السماء أو حتى التخلي عنه كلياً (باتت فكرة الفردوس الأرضي مرفوضة، وتحولت إلى فكرة الفردوس السماوي أو تلاشت نهائياً)، واكتشفت أوروبا الغربية حضارات عظيمة تماثلها غنىً وتطوراً رغم أن هذه الحضارات لم تسمع يوماً برسالة المسيح في الأرض وبالإله المذكور في التوراة. لم تعد الصين الاستثناء الحضاري الوحيد خارج أوروبا وتوجب

على أوروبا أن تعترف بتنوع وتعددية المجتمعات البشرية وبكون الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ليست الأساسية. وكما لم تعد الأرض مركزاً للكون، كذلك لم تعد أوروبا مركزاً للعالم.

تحتاج بعض الثورات المديد من الوقت كي تتبناها العقول، وهكذا توجب في عام ١٥٣٢ على غاليليه أن يتقهقر أمام محاكم التفتيش، وأن يُدين أفكار كوبرنيكوس، وستعجز الثورة التي ولدت في العالم الغرب - أوربي تحديداً عن ثورنته. هذا العالم الذي سينسى إقليميته وسيؤسس لهيمنته على هذا الكوكب، سيتناسى كونه عالماً محلياً وسيقنع نفسه بأن العِلم والتقنية سيجعلانه سيداً للعالم.

بدايات العصر الكوكبي

بدأ العصر الكوكبي فعلياً منذ التفاعلات الأولى بين المخلوقات البشرية مع الجراثيم ومن ثم التبادلات بين نباتات وحيوانات العالمين القديم والجديد. انقضّت الفيروسات والعُصيّات (نوع من العضويات الممرضة)، التي نشرت الحصبة والعقبول والرشح في قارة أوراسيا القديمة، على الأمريكيين، في حين كانت البكتيريا اللولبية الشاحبة المسببة لمرض الزهري (السفلس) تنتشر على نحو كبير بالممارسة الجنسية من شخص إلى آخر من أميركا إلى شنغهاي. خلقت هذه المارسات الجنسية، سواء العابرة منها أم العاشقة أو حتى الاغتصاب، في كل مكان في القارة الأمريكية أطيافاً جرثومية هجينة تعرض لها الأفارقة الذين تم اختطافهم وإحضارهم إلى أمريكا بأعداد كبيرة. أُحضِرَ هؤلاء في البداية لتعويض النقص الذي سببه تناقص أعداد الهنود الحمر الهائل نتيجة وفاتهم بالأوبئة الأوروبية،

ولاحقاً لإرضاء الاستغلال الاستعماري الشرس عبر تشغليهم كأيد عاملة مستعبدة في المزارع الشاسعة. زرع الأوروبيون في مزارعهم الذرة، التفاح، البطاطا، الفاصولياء، البندورة، المنيهوت، البطاطا الحلوة، الكاكاو والتبغ. وأحضروا إلى أمريكا الأغنام، الأبقار، الخيول، زراعة الحبوب والكروم والزيتون والرز والقهوة وأنواع البطاطا والنباتات الاستوائية وقصب السكر. وفي إيطاليا ودول البلقان حل نبات الذرة ذو الخواص الغذائية العالية محل الشعير والدُخن في صنع الحساء. وأسهمت زراعة البطاطا في وسط وشمالي أوروبا في حل المجاعات المزمنة. وأصبح دقيق ونبات المنيهوت مصدر الغذاء الرئيسي في أفريقيا، وانتشرت الحيوانات العاشبة الداجنة في أمريكا التي كرست نفسها للزراعة المكثفة لكل من القطن وقصب السكر والقهوة. توسعت التجارة البحرية وحرية الملاحة في كل البحار. وفي القرن السابع عشر، تشكلت كبرى شركات الملاحة الإنكليزية والفرنسية والهولندية التي تحركت باتجاه الهند، ومن الشرق إلى الغرب. وتضاعفت التبادلات بين أوروبا وآسيا وأمريكا وتحولت منتجات الرفاهية المستوردة، مثل القهوة والشوكولا والتبغ والسكر في أوروبا، من مواد ترف يصعب الحصول عليها إلى مواد للاستهلاك اليومي الاعتيادي. عرفت أوروبا تطوراً متسارعاً وتبادلات متزايدة، وشقت الدول الوطنية الطرائق والأقنية المائية، وأرسلت الدول المتجاورة مثل دول البلقان، الخشب والحبوب وأسماك الرنكة إلى دول المتوسط، التي بادلتها بالنبيذ والزيوت. باعت أيرلندا وبريطانيا اللحوم والزبد المملح إلى الأقاليم الداخلية. زادت إسبانيا وألمانيا وإنكلترا من تربية الأغنام وتجارة الصوف. تغير نمط الزراعة وتوجه نحو البقوليات التي أعطت خصوبة للتربة الفقيرة. أخذت المدن

والمفاهيم الرأسمالية والصناعات التقنية منحىً لم تعرفه أي حضارة من قبل، حيث طورت كلا من إسبانيا والبرتغال وفرنسا وهولندا وإنكلترا بدءاً من القرن الثامن عشر، عن طريق حروبها في أوروبا وفي أمريكا وآسيا، قوى اقتصادية عسكرية بحرية ستذهب لاستعمار الأرض. لقد بدأت غربنة الأرض عن طريق هجرة الأوروبيين إلى أمريكا وأستراليا أوعن طريق غرس الحضارة الأوروبية بأسلحتها وتقنياتها ومفاهيمها في كل الأماكن المخترقة وفي القواعد الأمامية، وفي مناطق النفوذ. انبثق العصر الكوكبي وتطور متسارعاً عن طريق العنف والدمار والاستعباد واستنزاف أمريكا وأفريقيا. إنه العصر الحديدي الكوكبي الذي نحن فيه حتى يومنا هذا.

غربنة العالم (عملية تحويل الأرض قاطبة إلى المفهوم الغربي)

طُبع عصر الحديد الكوكبي، في القرن التاسع عشر، بتطور هائل للإمبريالية الأوروبية بزعامة بريطانية ما أمَّن لها السيطرة على العالم حينها. وذلك على الرغم من أن ولادة الولايات المتحدة الأمريكية ودول أمريكا اللاتينية جاءت لاحقاً حسب الأنموذج والمعايير الأوروبية الغربية. وهكذا، وسمت عملية تحويل العالم للمفهوم الغربي عن طريق الاستعمار المرحلة الجديدة للعصر الكوكبي.

وفي العقود الأخيرة من هذا القرن، امتنعت دول فرنسا وألمانيا وإنكلترا وروسيا عن مهاجمة بعضها بعضاً في أراضيها رغم سباق التسلح الجامح الذي تمارسه، وفضلت بدلاً من ذلك أن تندفع نحو العالم وتتقاسمه بعد غرز أنيابها فيه، يساعدها في ذلك تفوقها التقني والعسكري الهائل مقارنة ببقية العالم.

مع بداية القرن العشرين، سيطرت بريطانيا العظمى على الطرائق البحرية العالمية وعلى الدول التالية: الهند، سيلان، سنغافورة، هونغ كونغ، العديد من جزر الهند الغربية، وبولينيزيا، نيجيريا، روديسيا، كينيا، أوغندا، مصر، السودان، مالطة، جبل طارق ما يعني خُمس مساحة الكرة الأرضية، وبذلك حكم التاج البريطاني ٤٢٨ مليون مواطن وهو ربع سكان الأرض. وامتلكت هولندا ماليزيا وجزر جافا وبورنيو. في حين احتلت فرنسا الجزائر، تونس، المغرب، والهند الصينية وجزءاً كبيراً من القارة الأفريقية. امتدت الإمبراطورية الروسية على كامل آسيا حتى المحيط الهادئ مبتلعة بذلك الشعوب التركية والمنغولية.

بنت ألمانيا إمبراطورية امتدت على مساحة ٢,٥ مليون كيلومتر مربع فيها ١٤ مليون مواطن في جنوب غرب أفريقيا في توغو، الكاميرون، تنزانيا، وقي جزر المحيط الهادئ. واكتفت إيطاليا بالصومال وأريتريا وطرابلس. استولت بلجيكا على الكونغو، و استقرت البرتغال في انغولا والموزامبيق، وانتزع الأوروبيون من الصين أجزاء من اراضيها في المرافئ الكبرى، وسيطروا على سواحلها من كانتون حتى تيان تسين، واضطرت للتنازل لهم عن خطوط السكك الحديدية وعن استثمارات تجارية وتسهيلات مصرفية. لم تكتف اليابان بمقاومة سيطرة البيض بل استطاعت، بتبني طرائقهم وتقنياتهم وأسلحتهم، توجيه أول هزيمة وإذلال لهم في معركة ميناء أرتور في كانون الثاني عام ١٩٠٥ مسهمة بذلك في نشر الحضارة الغربية.

أزال حفر قناتي السويس وباناما الحواجز بين البحر المتوسط وبحور آسيا، وبين المحيطين الأطلسي والهادئ. ووصلت خطوط السكك الحديدية،

مثل خط الشرق السريع والخط العابر للقارة الأمريكية ولسيبيريا، أطراف القارات ببعضها.

أدى الازدهار الاقتصادي، تطور الاتصالات، إدخال القارات المسيطر عليها في السوق العالمية إلى نمو سكاني هائل ما سيؤدي إلى نمو ديموغرافي معمم. أسهم الريف بإعمار المدن الصناعية واتجه البائسون والمضطهدون إلى القارة الأمريكية في حين توجه المغامرون من نساء ورجال باتجاه المستعمرات التابعة لأوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عَبَر ما يقارب تسعة ملايين ونصف من الإنكلوساكسونيين، خمسة ملايين من الألمان، خمسة ملايين من الطليان، مليوناً من الاسكندنافيين والإسبان والبلقانيين المحيط الاطلسي وباتجاه الأمريكيتين (الشمالية والجنوبية). وحدث أيضاً تدفق هجرة في آسيا، حيث توجه الصينيون إلى مملكة سيام وجزيرة جافا وشبه جزيرة ماليزيا للتجارة، ومن ثم تابعوا إلى كاليفورنيا وكولومبيا البريطانية في كندا، وكاله الجديدة في الجنوب، وبولينيزيا، في حين استقر الهنود في ناتال وأفريقيا الشرقية.

ورويداً رويداً، بات الاقتصاد عالمياً. اعتمدت التجارة متعددة الجنسيات، بين عامي ١٨٦٣ و١٨٧٣، الذهب كمعيار لعملات الدول الأوروبية الرئيسة، وخلقت بذلك نظاماً موحداً عاصمته لندن. كانت عولمة السوق عبارة عن عولمة التنافس والصدامات لأنها مرتبطة بانتشار الرأسمالية والتقنيات الحديثة وبعولمة الخلافات بين الإمبرياليات المختلفة، وبعولمة مفهوم السياسة، والانتشار العالمي لأنموذج الدولة القومية التي ظهرت في أوروبا، التي ستصبح لاحقاً أداة لتحرر الشعوب من الاستعمار الأوروبي،

وستصبح وسيلة للمحافظة على الهوية المحلية المهددة بالحداثة الغربية مع الاستفادة من الأسلحة والوسائل التي تمنحها هذه الحداثة. العولمة المتعددة (نمو سكاني، اقتصادي، تقني، أيديولوجيا، إلخ) أصبحت متداخلة، فوضوية ومتصارعة.

العولمة الفكرية

تؤثر العولمة في المجال الفكري أيضاً. إذ أبدت الأديان الشمولية انفتاحاً من حيث المبادئ على سكان الأرض أجمعين. وظهر مصطلح "الرجل البدائي الطيب " و" إنسان الطبيعة " كمحاولة للحد، ولو بشكل ضعيف، من العنجهية والاستحقار الذي يبديه الإنسان الغربي "المتحضر" تجاه "البربري". وفي القرن الثامن عشر، أعطت النزعة الإنسانية لعصر التنوير لكل إنسان روحاً وعقلاً ذا منطق، ما جعل البشر سواسية في الحقوق. وعمت في كل الدول أفكار الثورة الفرنسية بعد انتشارها، ومبادئ حقوق الإنسان، وحقوق الشعوب، وأكدت نظرية داروين التطورية في القرن التاسع عشر على انحدار البشر جميعهم من الأصل نفسه (من الثدييات الرئيسة) واعترفت العلوم الحيوية بتماثل الجنس البشري. لكن ضد هذه التيارات العامة جاءت تيارات معاكسة. إذ على الرغم من الاعتراف بوحدة الجنس البشري، مال البعض لوضع تصنيفات عرقية تراتبية من الأعلى إلى الأسفل، وعلى الرغم من الاعتراف بحقوق الشعوب، اعتبرت بعض الشعوب نفسها أرقى وأعطت لنفسها مهمة توجيه أو السيطرة على كل البشر. وعلى الرغم من الاعتراف بأن لكل البشر الحاجات والاحتياجات نفسها، أصرَّ بعض منظري التفرد الثقافي على وجود خلافات

جوهرية بين البشر. وأنكرت النرجسية الغربية، على الرغم من أن البشر جميعهم ينتمون إلى فصيلة *Homo sapiens* صفة الإنسان العاقل والمفكر على بعض الأقوام الذين صنفتهم بالمتخلفين وبالمنطق نفسه نفى علماء الأنثروبولوجيا الغربيون عن بعض الشعوب، الذين حافظوا على طرائقهم الاجتماعية القديمة، صفة الإنسان البدائي الطيب، وأطلقوا عليهم صفة البدائيين غير الناضجين. إلا أن كل هذا لم يمنع ظهور المذهب الإنساني في منتصف القرن التاسع عشر، الذي نادى بفكرة الإنسان ذي الذاكرة الجمعية التي تبحث دوماً عن توحيد اجزائها المتبعثرة. وجعل المفكر الفرنسي أوغست كانط من الإنسانية حاجة كلية لكل إنسان. موسيقا بيتهوفن، فكر ماركس ورسائل فكتور هوغو، وتولستوي توجهت إلى الإنسانية جمعاء. بدت الحداثة كأنها القانون الأعظم الذي يحكم التاريخ والتطور الإنساني، وكان نهوض العلوم والمنطق بمنزلة كفيل لهذا التطور، إذ كان للجميع التوجه عينه في مبادئهم. وهكذا، بدأ الوعد الكبير نحو تطور مشترك للبشرية، الذي تبناه وشحذه الفكر الاشتراكي، يأخذ شكلاً ملموساً.

تبنت الاشتراكية مفهوم العالمية في مبادئها، وبذلك أعطت لنفسها مهمة توحيد الجنس البشري. انشأت أول بنية عالمية منيت بالفشل، ومن ثم بنية عالمية ثانية أكثر ثباتاً، جمعت كل الأحزاب الاشتراكية مع بعضها لتعمل معاً تحضيراً للثورة العالمية ولمنع أي حرب ممكنة.

وبذا يكون العصر الكوكبي أيضاً، مع بداية القرن العشرين، هو التوحد السلمي والأخوي للإنسانية جمعاء.

العولمة عن طريق الحروب

أخذت مسيرة العولمة، التي باتت متصارعة وفوضوية أكثر فأكثر، دوراً مختلفاً، فكانت حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ أول قاسم مشترك كبير وحّد البشرية: لكن وحّدها بالموت!

في ساراييفو، قتلت طلقات من الرصاص الصربية الوريث لعرش هابسبيرغ، وحدثت عملية الاغتيال هذه في منطقة حيث تداخلت القومية المحلية مع الإمبرياليات العالمية. وأدى التفكك البطيء للإمبراطورية العثمانية إلى ظهور حركات وطنية مندفعة، وأثار في الوقت عينه أطماع النمساويين والهنغار والألمان والفرنسيين والإنكليز. الطلق الناري الذي أطلق في ساراييفو، في منطقة البوسنة والهرسك، حيث يعيش خليط من الصرب والكرواتيين والمسلمين تحت سيطرة عرش هابسبيرغ، كان سببا لإرسال الإنذار النمساوي إلى صربيا، الذي أدى إلى تحرك روسي، ومن ثم إلى تحرك ألماني تلاه تحرك فرنسي، واستبقت ألمانيا الأمور باحتلالها لبلجيكا، ما جر بقية الدول كلها إلى الحرب. وهكذا، نرى أن عملية اغتيال محلية في مكان ما من البلقان، أدت إلى سلسلة من ردود الفعل المتفجرة، التي سرعان ما انتشرت في كل أوروبا جارة معها المستعمرات في آسيا وأفريقيا ثم اليابان والولايات المتحدة والمكسيك. وبينما كانت الحرب تستعر في كل المحيطات، كان الكنديون والأمريكان والأستراليون و السنغاليون والجزائريون والمغاربة والأناميون (فيتنام) يقاتلون على الجبهة الأوروبية تحت رايات الحلفاء.

هكذا، كرست هذه الحرب العالمية عودة التجاذب بين الإمبرياليات الأوروبية المتناحرة. لقد انطلقت هذه الحرب نتيجة التفاعلات بين النزعات

الإمبريالية الكبيرة والنزعات الوطنية الصغيرة، وغذّاها تفاقم النزعات القومية، فتواتر عمليات التعاضد والتناحر بين الدول أدى إلى زج بقية العالم في هذه الحرب. لقد أصبحت حرباً شاملة بعد تعبئة الشعوب كافة، عسكرياً واقتصادياً ونفسياً، واجتاحت الأرياف، دمرت المدن، وقصفت السكان المدنيين. إن المشاركة الكلية من كامل الدول، بالإضافة للتطور الحاصل في سلاح المدفعية والأسلحة الأوتوماتيكية، إدخال الآليات الميكانيكية والطيران والحرب تحت البحر، التي شملت كل بحور الأرض، كل هذا جعل من الحرب العالمية الأولى حرب دمار شامل فقد فيها كوكب الأرض ثمانية ملايين إنسان. لقد تشكل إعصار تاريخي حقيقي ابتلع في دوامته المدمرة كل المصالح الإمبريالية وكل الهذيان القومي، كل القوى التقنية والمفاهيم الأيديولوجية التي أطلقها ونشرها عصر الحديد الكوكبي. وسيكون الأمر غاية في التبسيط لو حاولنا الاكتفاء بتفسير الحرب من المنظور الماركسي مثلاً (صراع الأنظمة الإمبريالية) أو من المنظور الشكسبيريّ (احتدام الصراع بين الصخب والهيجان، وهذيان إرادة القوة) ذلك أن الحرب هي المحصلة التاريخية الوحشية للدمج الجنوني لكلّ رؤيتي ماركس وشكسبير.

وهكذا تهاوت أوروبا - ذروة العالم - إلى الخراب، وفتح انهيارها مرحلة جديدة من العصر الكوكبي. ولم يتوقف هذا الإعصار في عام ١٩١٨، إذ بدأ منذ عام ١٩١٧ من إرهاصات الإعصار الأول إعصار جديد، وهو على ما يبدو انتقام الحركة الأممية التي تم سحقها في عام ١٩١٤، وانتهزت فرصة انهيار القيصرية الروسية لبناء، حسب مطالبات فلاديمير لينين الفخورة، أول بؤرة للثورة العالمية. ولكنها تفشل في ألمانيا، ولم تتشكل في إنكلترا ولا في فرنسا ولا

في أي بقعة من العالم اللهم إلا بشكل عابر في هنغاريا، ورداً على الثورة الأممية في بتروغراد وموسكو بعد هزيمة ألمانيا، ردت القوى العالمية على هذه الثورة بتدخلات أجنبية ومجاعات ودمار وحروب أهلية. لكن الدولية البلشفية النازفة بعد الحرب نجحت في الحفاظ على أراضي الإمبراطورية القيصرية كلها، وأسست على الرغم من المجاعة التي قتلت ثلاثة عشر مليون إنسان نظاماً يسعى نحو حتمية الشيوعية على مساحة تعادل سدس الكرة الأرضية. من هذا النصر ظهر أنموذج سياسي جديد ووحشي في الوقت نفسه نتيجة خضوع الدولة الحديثة لحزب ذي سلطة مركزية سينتشر بشدة في كل مكان، إنه النظام الشمولي.

كرد على الشيوعية اشتدت الحركات الوطنية، كما في إيطاليا التي كانت تعيش خيبات ما بعد الحرب، فظهرت الفاشية وهو نظام شمولي آخر مشابه للشيوعية من حيث مركزية السلطة، لكنه مخالف لها بأفكاره الوطنية. ومن جهته، تعرض اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية، على نحو متدرج وماكر، لاختراق داخلي من قبل الإمبريالية، فالاضطرابات العالمية التي بدأت في ١٩١٤ ستعاود الانفجار في ١٩١٧، فهي لم تنته بل ستنشط واحدة تلو الأخرى.

اهتز الاقتصاد العالمي نتيجة أزمة بداية العشرينيات وأزمة نهاية العشرينيات الكبيرة التي جاءت بعد فترة قصيرة من عودة الازدهار، والتي أظهرت التضامن الاقتصادي الكوكبي عند الكوارث، إذ عمَّم انهيار السوق المالية في نيويورك انتكاساً اقتصادياً على القارات كلها. وبعد مضي سنتين على الأزمة، كان ربع اليد العاملة في البلدان الصناعية دون عمل.

وهكذا ستتراكم آثار الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية والأزمة العالمية وتتركز في ألمانيا، التي ضربتها موجة الصدمة الناجمة عن السوق المالية في عام ١٩٣١ بقسوة شديدة، وزاد الشقاء والقلق من البطالة والبؤس من إحساس الذل الوطني الذي فرضته معاهدة فرساي ، وألهب الخوف من النظام الشيوعي العابر للحدود و الرغبة في الانتقام القومي وكره اليهود، الذين عدَّهم هتلر شياطين مساهمين في مؤامرة دولية مكونة من البلاشفة والمتنفذين الأثرياء (البلوتوقراطيين)، ألهب من استعار الأحقاد والبغض للآخر. ووصل إلى الحكم حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني بشكل قانوني في عام ١٩٣٣، الذي من تسميته يشير إلى حالة الغليان القومي والتطلعات الاشتراكية، وعمل فوراً على إرساء نظام الحزب الواحد الشمولي، وأيقظت نظريته عن تفوق العرق الآري الإمبريالية لدى كل الدول الناطقة بالألمانية، ودفعت بالحزب النازي الألماني إلى السيطرة على أوروبا كلها.

كانت سنوات الثلاثينيات مأساوية، لقد انفجرت عواصف أخرى في الكوكب، إذ احتل الجيش الياباني الصين وبدأت هناك حربٌ حتى ١٩٤٥ استمرت بعدها في شكل حربٍ أهلية حتى ١٩٤٩، وفي كل مكان في قلب الأزمة تصادمت القوى الفاشية مع قوى المد الثوري ما أدى إلى فتنة شعبية وحرب شوارع وصلت في إسبانيا إلى مرحلة الحرب الأهلية. فقط في الولايات المتحدة الأمريكية وإنكلترا كشفت الديمقراطيات عن قابليتها للتعافي، لكن آلة الحرب الألمانية أقلعت من جديد مسببة تجدد سباق التسلح في كل مكان، وهذا ما أخمد بذور الأزمة الاقتصادية، حيث كانت البطالة لا تزال تُمثل ١٠% في معظم البلدان. وكشفت الشيوعية الستالينية عن فظائعها

في محاكمات موسكو كما فعلت النازية الهتلرية من خلال معسكرات الإبادة الجماعية وممارسة سياسة النبذ والوسم لليهود حتى عملية التصفية الجسدية لأرنست روم قائد فوج العاصفة النازي. وتردد كثير من الأشخاص الذين ضلوا الطريق لدى إحساسهم بالخطر بعدما فقدوا إيمانهم بالديمقراطية التي أثبتت عجزها، بالاختيار ما بين الفاشية والستالينية، أيهما أقل شراً! ضمت ألمانيا، التي أعادت عسكريّتها مجدداً، النمسا وفرضت بانتصاراتها رغباتها على السويديين الذين عدَّتهم ملك بنانها، واستعبدت تشيكوسلوفاكيا، وطالبت بدانزيغ وغزت بولونيا. لقد انطلقت الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩.

في عام ١٩٤٠ غزت ألمانيا النازية النرويج، هولندا، بلجيكا، فرنسا ولاحقاً بدعم من إيطاليا الموسيلينية احتلت بقية الدول الأوروبية (١٩٤٠ - ١٩٤١) باستثناء إسبانيا والبرتغال وسويسرا وتركيا والسويد جزئياً، باتت الحرب عالمية بالهجوم الألماني على الاتحاد السوفييتي والهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربر (كانون الأول ١٩٤١)، والحرب في ليبيا ومصر، والحرب البحرية في كل البحار، وانتشار القصف الجوي في كل الدول المتحاربة حتى تدمير الرايخ الثالث في برلين في أيار ١٩٤٥ والإبادة الكاملة لمدينتي هيروشيما وناكازاكي في آب من العام نفسه. من أصل ١٠٠ مليون رجل وامرأة انخرطوا في الحرب العالمية قتل ١٥ مليون محارب، وكان هناك ٣٥ مليون ضحية من المدنيين، وسببت القنبلتان النوويتان الأمريكيتان اللتان أُسقطتا على هيروشيما وناكازاكي وحدهما ٧٢ ألف قتيل و٨٠ ألف جريح، كاتبة بذلك السطور الأخيرة في مسلسل المذابح العالمية.

من حالة الأمل إلى التهديد الدمقلي[1] (Damocléenne)

بعد تدمير النازية، عقد البشر الآمال بعالم جديد ممتلىء بالسلام وبالعدالة، ناسين أو متجاهلين أن الجيش الأحمر لم يأتِ حاملاً الحرية وإنما نوعاً آخراً من العبودية، وأن الاستعمار بدأ مجدداً بتشكيل إمبراطوريته في أفريقيا وآسيا. وبسرعة تم شل هيئة الأمم المتحدة التي انشأها الحلفاء المنتصرون مع تبلور عالم مكون من معسكرين سيتصارعان في كل أنحاء الأرض.

بدأت الحرب الباردة منذ ١٩٤٧ بتحول الأرض إلى ثنائية قطبية يمارس كل قطب منها حرباً عقائدية بلا رحمة وعاش العالم حالة عدم استقرارعلى الرغم من توازن الردع النووي. ولم تمنع هذه القطبية الثنائية بين الشرق والغرب من عام ١٩٤٦ وحتى١٩٨٩ حدوث انهيارات، انبعاثات، وتحولات على الكوكب. إذ تغير وجه الأرض مع انتقال وانحلال الإمبراطوريات الاستعمارية وذلك بأثمانٍ باهظةٍ (حربا فيتنام، حرب الجزائر) ظهرت على ثلث الأرض أمم جديدة تشكلت أحياناً من أجناس غير متجانسة ما خلق مشكلات جديدة (قمع الاقليات، صراعات دينية) وفيما عدا بعض الدول الكبيرة المكونة من اتحادات مثل الهند وماليزيا، فإن عملية بلقنة (بات هذا مصطلح نسبة إلى منطقة البلقان في شرق أوروبا والتقسيم الذي حدث فيها - المترجمة) مصطنعة، فصلت أراضي متكاملة. هذه الأمم عاشت حالة تمزق بين

---

(١) العصر الدمقلي (Damocléenne): انحراف التاريخ العالمي الذي بدأ في ١٩١٤ وانتهى ١٩٩٠ حيث يتوجه التاريخ مرة أخرى نحو المستقبل من خلال المضي نحو ماضيه، أي الأسئلة القومية والعرقية والدينية وهي حالة من الانتياب (الهيجان - الفورة) paroxystique (إدغار موران - مقالات) - المترجمة

الشرق والغرب بما يعني التمزق بين أنموذجين من التطور كانا في الأغلب لا يجلبان الحلول وإنما استبدادات عسكرية أو أنظمة شمولية وفساداً واستغلالاً للثقافات الأصيلة (indigènes)، وفي بان دونغ (نيسان ١٩٥٥) كانت هناك محاولة لرسم مسار ثالث، قادتها الهند ومصر ويوغوسلافيا (حركة عدم الانحياز) لكن هذه المحاولة أيضاً تصدعت وفشلت.

وفي هذه السنوات انسلت الصين وفيتنام وكوبا خارج المدار الغربي، وانضمت إلى المعسكر الاشتراكي، في حين غيرت مصر وسوريا والعراق معسكرها مرات عدة. بعد إنشاء الكيان الإسرائيلي بات الشرق الأوسط منطقة انقسامات ومصدر انتان للعالم أجمع، حولته الحرب الباردة إلى منطقة خرّاج مُتقيح مزمن، مع حدوث انفجارات دورية من حروب حقيقية (حرب سيناء ١٩٥٦، حرب الأيام الستة ١٩٦٧، حرب تشرين (كيبور: يوم الغفران) ١٩٧٣، حرب لبنان ١٩٧٥) وهنا في الشرق الاوسط ظهرت أولا الصراعات بين المسيحية والإسلام واليهودية، بين التقاليد والحداثة، بين الشرق والغرب، بين العلمانية والتدين، في الوقت نفسه الذي تتركز في هذه المنطقة صراعات هائلة للمصالح من السيطرة وتملك البترول. (لم يتطرق الكاتب بشكل واضح إلى دور الإسلاميين في الصراع الحاصل غرب المتوسط، ودور الأرمن والأذرين في الصدع القائم في منطقة جنوب الاتحاد السوفييتي السابق. - المترجمة) وانقسم المعسكر الشيوعي الكبير بعد انهيار الصداقة الأبدية الراسخة التي جمعت بين الاتحاد السوفييتي والصين، وذلك عام ١٩٦٠، وتواجهت الجمهوريتان، الشقيقتان سابقاً، في حرب باردة جديدة وصلت إلى حد أن راودت السوفييت في عهد ليونيد بريجينيف فكرة استعمال السلاح النووي ضد الصين الخاضعة لماو تسي تونغ.

حافظ النظامان المتنافران على حدة صراعاتهما على الرغم من بعض فترات الصفاء العابرة وذلك حتى عام ١٩٨٥، إذ اندلعت حرب أفغانستان، في حين ازدادت حدة الصدامات بين العلمانية والتدين، بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب، بين الحداثة والأصولية، وازداد اتساع الهوة العقائدية لتنهار إحتمالية مستقبل أفضل.

من عام ١٩٥٦ حتى ١٩٧٠ تحولت التطلعات نحو الفكر الثوري المنقذ من الاتحاد السوفييتي إلى الصين، وترسخت في فيتنام وكوبا، لكن بعد انهيار أسطورة الاشتراكية الواقعية، الذي حدث مع ظهور تقرير خروتشوف وقمع الثورة الهنغارية (١٩٥٧) وربيع براغ (١٩٦٨)، كذلك انهارت أسطورة الاشتراكية الصينية بحدود عام ١٩٧٥ (مؤامرة لن بياو، قضية عصابة الأربعة[١]) وكذلك أسطورة المحرر الفيتنامي (استعباد كمبوديا) والأمر عينه بالنسبة إلى كوبا الحرة. وأخيراً أدت العملية الإصلاحية المسماة بروسترويكا إلى انهيار الشمولية الشيوعية وتفكك إمبراطوريتها (١٩٨٧-١٩٩١)، وهكذا انهار الإيمان الكبير بالخلاص الأرضي الذي وضعه القرن التاسع عشر لانهاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، والذي بسببه عاش البشر في القرن العشرين تجارب فظيعة من حربين عالميتين، بهدف التخلص من الحروب نهائياً ومن القمع والبؤس

(١) عصابة الأربعة: مجموعة سياسية يسارية من أربعة مسؤولين في الحزب الشيوعي الصيني (١٩٦٦ - ١٩٦٧) اتهموا بارتكاب سلسلة جرائم الخيانة، منهم الزوجة الأخيرة لماوتسي تونغ (جيانج كينج) التي سيطرت بشكل فعال على أجهزة السلطة إبان المرحلة الأخيرة من الثورة الثقافية بمساعدة فرقة محافظي الجيش الأحمر – (المترجمة)

الإنساني. ويبدو أن الأنموذج الغربي والديمقراطية وقوانين السوق ومبادئ الشركات الحرة قد انتصر. إنما انهيار الأنظمة الشمولية شرقي أوروبا لن يسمح بتمويه مشكلات الاقتصاد والمجتمع والحضارة في الغرب لوقت طويل، ولن يضع أي حد لمشكلات العالم الثالث الذي صار يسمى الآن بعالم الجنوب، ولن يحمل أي بادرة لنظام عالمي سلمي.

أثبت غزو الكويت، ومن ثم حرب الخليج (١٩٩١-١٩٩٢)[١] أن الشرق الأوسط يبقى صدع الخلافات الدولية. وأثبتت الحرب بين الأرمن والأذريين أن هذا الصدع يتعمق شمالاً عابراً الاتحاد السوفييتي السابق، ويشكل بزوغ الإسلاميين في شمالي أفريقيا، لا سيما في الجزائر، دليلاً على امتداد هذا التصدع نحو غرب المتوسط. بالإضافة إلى أنه منذ عام ١٩٩١ بدأت أعاصير تاريخية جديدة تتشكل.

أدى انهيار النظام الشمولي إلى ظهور أزمة ثلاثية في كل بلدان الإمبراطورية السوفييتية السابقة. أزمة سياسية: نتيجة هشاشة وعدم كفاية الديمقراطية في الأنظمة الجديدة التي انتشرت فيها العفونة بسبب البيروقراطية وعصابات المافيا التي حافظت على استمرارية علاقتها مع النظام القديم وقياداته من عناصر الأمن القساة، الذين تحولوا إلى قوميين متشددين في النظام الجديد، وذلك للبقاء في أعلى الموجة. ثانيا، أزمة اقتصادية: ناجمة عن انتقال حالة الإفقار والفوضى والقلق التي استمرت ما بين نظام سابق شنيع لكنه يُؤمن الحدود المعيشية والأمنيّة الدنيا، وبين نظام

---

(١) نحن نترجم النص كما ورد حرفياً ولا نتبنى بالضرورة الرؤية التاريخية أو العقائدية أو الفلسفية الخاصة بالمؤلف. - المترجمة

جديد لم يبد عليه بعد أي مزايا منتظرة. ثالثاً، أزمة قومية: تزداد حدة مع ظهور التعصب العرقي والإقليمي وعودة الضغائن القديمة لآلاف السنين أحيانا والذي أيقظتها مشكلات الأقليات والحدود. هذه الأزمات الثلاث تحفز واحدتها الأخرى، وتسهم مع حالة البؤس والفوضى والسخط الوطني في ظهور أنظمة استبدادية جديدة عسكرية أو شعوبية، وتحويل الخلافات الحدودية إلى صدامات مسلحة، مثلما حدث في مولدافيا، وبين أرمينيا وإذربيجان، وفي جورجيا وفي يوغوسلافيا.

زادت اضطرابات ما بعد الشيوعية وقوَّت من عملية الالتفاف المدهشة نحو الماضي ونحو التقاليد والدين والعرق، وهي ظاهرة نشأت في كل مكان في العالم بسبب أزمة المستقبل وانتفاضات البحث عن الهوية بمواجهة عملية المجانسة العالمية. تبدو عملية الدفاع عن الهوية الثقافية ظاهرة صحية ضد الهيمنة وعملية المجانسة القسرية، وتسهم في التخفيف من المركزية وتعطي نوعاً من الاستقلالية بشرط أن تندرج ضمن إطار جمعي، لأن السباق المندفع لكل عرق للحصول على الاستقلال العرقي الكامل بعد انهيار وتفكك الإمبراطوريات والدول متعددة الأعراق، يهدد مستقبل الكوكب. لقد ظهر بالفعل صراع متعدد الملامح مع نهاية هذا القرن، وربما لما بعده، بين قوى التوحيد وقوى التقسيم، قوى الاندماج وقوى الانحلال. صراعهم عشوائي، ما يجعل المستقبل يبدو غامضاً. ما هو مؤكد أن التاريخ العالمي عاود سيره المتأرجح، تارةً راكضاً باتجاه مستقبل مجهول، وأخرى ملتفتاً نحو ماض قد توارى. بل وأكثر من ذلك، فقد أدخلت القنبلة النووية على هيروشيما عام ١٩٤٥، عصر الحديد الكوكبي في الحقبة الدمقفية. استيقظ في العقود الماضية الخوف من الفناء النووي الزمن

الهاجع. فبينما تعمل الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا على خفض الترسانة النووية القادرة على افناء البشرية لمرات عدة، بات السلاح النووي نفسه أصغر حجماً وأسهل إخفاءً، ومن الممكن أن يقع بسهولة في أيدي الدول المهووسة، وقريباً قد يصبح تحت تصرف الحكام المجانين الاستبدادين والمجموعات الإرهابية. من الآن فصاعداً، صارت احتمالية التدمير الذاتي ترافق مسيرة البشرية. وظهر تهديد دمقفي آخر بعد إنذار الخطر البيئي في عام ١٩٧٠-١٩٧٢. لقد بدأنا ندرك تدريجياً في حقبة الثمانينات أن التطور الصناعي التقني يسبب كثيراً من التدهور والتلوث.

واليوم، يقبع الموت في الغلاف الجوي مترافقاً مع ارتفاع درجات الحرارة نتيجة ظاهرة الاحتباس الحراري، وهكذا دخل نمط جديد من الموت في دائرة الحياة التي تنتمي إليها البشرية.

العولمة الاقتصادية

في الحوار الذي أصبح عالمياً بين قوى الاندماج وقوى عدم الاندماج الثقافي، الحضاري، النفسي، الاجتماعي، السياسي، صار الاقتصاد نفسه متعولماً أكثر فأكثر، وصار هشاً أكثر فأكثر، ولهذا فإن الأزمة الاقتصادية التي حدثت في عام ١٩٧٣ نتيجة النقص الحاد في البترول، استنسخت نفسها في كل مكان دون إيجاد حلول حقيقية لها فعلياً (لم يُشر الكاتب إلى حقيقة ان النقص الحاد بالبترول هو نتيجة للأزمة السياسية الواقعة عام ١٩٧٣. - المترجمة). وبات الاقتصاد العالمي كتلة مترابطة أكثر فأكثر، كل جزء منها يعتمد على بقية الأجزاء، وكذلك تتأثر الكتلة بكل الاضطرابات والمخاطر التي تتعرض لها الأجزاء. حث انهيار أسعار القهوة، في سبيل المثال، المزارعين الكولومبيين على استبداله بزراعة

الكوكائين، التي بدورها ستزود الشبكات العالمية لعمليات تحويل وتهريب المخدرات، ومن ثم تبييض الأموال في بلاد مثل سويسرا. وبالاتجاه المعاكس فإن المطالبة بزيادة رواتب بمقدار ٥% في ألمانيا ستؤثر في أسعار الكاكاو في ساحل العاج عبر عملية تباطؤ عامة للنشاط الاقتصادي:

١- هذه المطالب تحث البنك المركزي على التقليل من السيولة النقدية ورفع نسبة الفائدة خوفاً من التضخم. ٢- يقوم البنك المركزي الفرنسي بالأمر نفسه خوفاً من هروب رؤوس الأموال باتجاه ألمانيا ٣- تُوضع كتل نقدية يابانية في ألمانيا (للاستثمار بسبب النسبة المرتفعة للفائدة)، و ترفع الولايات المتحدة من نسبة الفائدة نتيجة شح السيولة لديها ٤- ينخفض الاستهلاك في كل أنحاء العالم، ومن ثم يتباطأ النشاط الاقتصادي ٥- يتوجب على العالم الثالث دفع قروضه بنسبة أعلى لأن الفوائد هناك مرتبطة بالمؤشر العالمي ٦- ينخفض الطلب على الصادرات في البلدان النامية وبالتالي تهبط أسعار المواد الأولية ومنها أسعار الكاكاو في ساحل العاج.

العولمة الاقتصادية توحد وتشرذم، تكون عادلة ومجحفة. يميل التطور الاقتصادي في العالم الغربي وشرقي آسيا إلى التخفيف من انعدام المساواة في هذه البلدان، لكن هذه النسبة تميل إلى الزيادة على المؤشر العالمي بين الدول المتطورة والدول النامية (حيث ٢٠% من سكان الأرض يستهلكون ٨٠% من موادها).

الهولوغرام (الصورة المجسمة ثلاثية الأبعاد)

كل جزء من هذا العالم أصبح، أكثر فأكثر، جزءاً من هذا الأخير، ليس هذا فحسب، لكن العالم باعتباره كياناً كليّاً أصبح شيئاً فشيئاً يتمثل في كل أجزائه. ذلك لا يصح على مستوى الأمم والشعوب فقط، بل وعلى مستوى

الأفراد أيضاً. وكما أن كل نقطة من نقاط الهولوغرام تحوي كل المعلومات الماثلة المكونة له فإن كل شخص بات يتلقى ويستهلك المعلومات والمواد الآتية من كل أنحاء الكوكب.

فالمواطن الأوروبي يستيقظ صباحاً ليشغّل جهاز المذياع ياباني الصنع خاصته، وعبره يتلقى أحداث العالم: ثوران براكين، هزات أرضية، انقلابات، مؤتمرات عالمية. كل ذلك يصله، بينما هو يشرب الشاي السيلاني أو الهندي أو الصيني، اللهم إلا إن كان يشرب شراب الكاكاو(الموكا) الأثيوبية أو القهوة الأرابيكا القادمة من أمريكا اللاتينية، يستلقي في حمامه مع فقاعات سائل الاستحمام ذي الزيوت العطرية الآتية من تاهيتي، ويستعمل سائل ما بعد الحلاقة المُعَطّر بروائح غريبة قادمة من أماكن بعيدة، يلبس كنزته وسرواله الداخلي وقميصه المصنوعين من القطن المصري أو الهندي، ومن ثم يرتدي سرواله وسترته المصنوعين من الصوف الأسترالي الذي تمّ تصنيعه في مانشستر، أو سترة جلدية قادمة من الصين مع بنطال من الجينز وفق الطريقة الأمريكية. ساعة يده سويسرية أو يابانية، ونظاراته مزينة بحراشف سلاحف الغالأباغوس، ومحفظته مصنوعة من جلد خنازير جزر الكاريبي أومن الزواحف الأفريقية، وعلى مائدته في منتصف فصل الشتاء فواكه صيفية مثل الفريز والكرز من التشيلي والأرجنتين، والفاصولياء الخضراء الطازجة من السنغال، أفوكادووانأناس من أفريقيا، والبطيخ الاصفر من جزر الغوادلوب. لديه وقتما يريد مشروب الروم المارتينيكي، الفودكا الروسية، التاكيلا المكسيكية، البوربون الأمريكي، والويسكي الأيرلندي. في منزله يستطيع الاستماع إلى فرقة سمفونية ألمانية

يقودها قائد أوركسترا كوري أو أن يشاهد على شاشته المقطوعة الأوبرالية "البوهيمية" مع المغنية السوداء بارباره هندريكس في دور ميمي، والإسباني بلاسيدو دو منغو في دور رودولف. غير أن الأفريقي – وهو جزء من هذا الفلك الكوكبي - يحيا في كوخه بعيداً عن كوكبية الترف. إنه يعاني في حياته اليومية من تقلبات أسعار الكاكاو والسكر، والمواد الأولية التي تنتجها بلده. لقد تم طرده من قريته بسبب طرائق الإنتاج العالمية الغربية، وعلى نحو خاص تطور الزراعة الأحادية المكثفة، وبذا تحول من مزارع مكتف ذاتياً إلى أحد سكان ضواحي المدن الفقيرة، الباحث عن عمل مأجور، وصارت النقود وسيلته للحصول على احتياجاته، يتمنى رغد العيش لكنه يستعمل أواني من الألمنيوم أو البلاستيك، يشرب البيرة أو شراب الكوكا كولا، وينام على فراش مصنوع من بقايا البولي ستيرين الصناعي، ويرتدي كنزات تي شيرت مطبوعة على الطريقة الأمريكية، يرقص على موسيقا هجينة غير أصيلة تختلط فيها الأنغام التقليدية مع فرقة موسيقية امريكية، تحمل في حناياها بقايا الموسيقا التي أحضرها أجداده ممن استعبدهم الأمريكي. لقد أصبح هذا الأفريقي سلعة من سلع السوق العالمية، وأصبح مواطناً في دولة شُكلتْ حسب النمط الغربي. وهكذا، يحمل كل منا في السراء والضراء غنياً كان أم فقيراً في داخله الكوكب بأكمله دون أن يعلم. فالعولمة هي في الوقت عينه بديهية، لاواعية، دائمة الحضور في حيواتنا.

بدايات تشكل الوعي الكوكبي

على الرغم من الانكفاءات وانعدام الوعي، ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين بداية تشكل نواة وعي كوكبي، وذلك انطلاقاً من:

١ - **استمرارية التهديد النووي العالمي:** كان ولايزال، الخطر النووي من عناصر تشكل الوعي الكوكبي. استيقظت المخاوف الكبيرة التي ظهرت بين عامي ١٩٤٥-١٩٦٢ والتي خدرتها مزاعم توازن الردع النووي، وهو توازن الرعب. وبينما تحل اضطرابات جديدة محل القديمة، يبقى السلاح النووي الخطر الأكبر على الإنسانية، لاسيما مع التطور الذي ساعد في تصغير حجمه، ومع امتلاكه من قبل دول جديدة.

٢ - **تشكل وعي بيئي كوكبي:** أصبحت علوم البيئة معنية أكثر فأكثر بمجموع مكونات المحيط الحيوي، وذلك بسبب تدهورات البيئة الكبيرة والتلوثات الحادثة في القارات كافة، ومؤخراً منذ الثمانينيات مع ظهور دلائل خطر شامل على الحياة بأكملها في كوكب الأرض، ما ساعد في تشكل إدراك متسارع للحاجة القصوى للإنسانية جمعاء إلى المحافظة على سلامة الكوكب، وهو ما بدا واضحاً في مؤتمر ريو ١٩٩٢.

٣ - **الاعتراف بدول العالم الثالث كجزء من الأرض:** دفعت نهاية الاستعمار في الخمسينيات والستينيات إلى مقدمة منصة أحداث العالم ما يقارب ١,٥ مليار إنسان كان الغرب حتى ذلك الوقت يقصيهم عن التاريخ. وأصبح ثلثا سكان الأرض، والمسمى بالعالم الثالث أخيراً جزءاً من العالم. وسواء كانت هذه الإنسانية تُلهم الخوف أو التعاطف فإن حجمها ومآسيها وأوجه قصورها تدفعنا إلى وضع مصاعبنا الأوروبية الغربية ضمن منظورها الصحيح، وإلى عولمة مفهومنا وتصوراتنا للأشياء الإنسانية. وفي الواقع، بات يُنظر إلى مشكلات العالم الثالث (السكانية والغذائية والانمائيّة) بشكل متزايد على أنها مشكلات العالم نفسه.

يجعلنا العصر الكوكبي ندرك في الوقت عينه وعلى الرغم من كل مظاهر الانغلاق العرقي، وحدة الإنسان، وأهمية الثقافات التي تُغني بتنوعها هذه الوحدة. وأثّر نشر أعمال علماء الآثار مثل ليفي-شتراوس، مالوري، كلاستر، جوليان، والأفلام أو الأفلام الوثائقية مثل "بشر آران" "الظلال البيض" "نانوك" "دورسوا وزالا" على الرؤية الغربية المتمحورة حول ذاتها التي كانت تُعدّ سكان المجتمعات من غير الغربيين أناساً متخلفين، وسكان المجتمعات البدائية مخلوقات بدائية غير ناضجة، وأفسح المجال لاستبدالها رويداً رويداً برؤية أكثر انفتاحاً تدرك مدى حكمة ومعارف هذه المجتمعات، وكذلك مدى الثراء والتنوع منقطع النظير في ثقافات العالم.

٤ - **تطور العولمة المتحضرة:** وهذا التطور يقود إلى الأسوأ والأحسن. إلى الأسوأ عندما يتسبب بتدمير ثقافي لا يمكن اصلاحه عبر مجانسة وتوحيد المفاهيم، العادات، مفاهيم الاستهلاك، الأنماط الغذائية (منطق الوجبات السريعة)، السفر والسياحة، لكن هذه العولمة تقود إلى الأحسن أيضاً لأنها توحّد نوعاً ما المفاهيم والعادات والحياة عبر الحدود القومية والعرقية والدينية، ما يتخطى الكثير من حواجز عدم التفاهم بين الأفراد والشعوب. إنها تطوّر قطاعات واسعة من العلمنة والعقلنة حيث ينعدم دور المحظورات والممنوعات الدينية. يتزايد التواصل بين المراهقين ذوي التطلعات والثقافة العالميةعينها، والرموز الاجتماعية نفسها. ويتجول المهندسين والعلماء ورجال الأعمال في شبكات دولية من العلاقات، الندوات، المؤتمرات، واللقاءات. ولكن يجب القول أن التيارات المعارضة التي تقدّس مفهوم الأمة والعرق تعيد بناء الحواجز، وتستمر في إنكار الآخر. هنا أيضاً تحمل هذه السيرورة في ذاتها تضارباً عميقاً.

٥ - **تطور العولمة الثقافية:** يغطي مفهوم الحضارة بشكل أساسي كل ما هو عالمي: التقنيات، الأشياء الصنعية، معارف وطرائق وأنواع الحياة القائمة على استخدام واستهلاك هذه الأشياء والتقنيات. في حين يغطي مفهوم الثقافة كل ما هو متميز، أصليّ، خاص بعرق معين أو أمة معينة. ومع ذلك، يمكن نقل محتويات هذين المفهومين الواحد ضمن الآخر. لقد أشرت في مكان آخر إلى أن العلم والتكنولوجيا والعقلانية والعلمانية كانت المنتجات التاريخية الفريدة للثقافة الغربية قبل أن تصبح مقومات للحضارة وتتحول إلى العالمية. وبالنتيجة، أدى انتشار هذه الحضارة عبر تعميم طرائق جديدة للحياة والتفكير، إلى نشوء حضارة عالمية هي حضارة العصر الكوكبي.

إن عملية التحول الثقافي هي عملية متناقضة ذات وجهين متعاكسين ١ - المجانسة، التفكك، فقدان التنوع. ٢ - التلاقي، توليفات جديدة، تنوعات جديدة. تكون العولمة الثقافية غير مجانسة عندما يتعلق الأمر بالفن، الموسيقا، الأدب، الفكر. إنها تشكل موجات كبيرة عبر أممية، لكنها تعطي ضمنها الأفضلية للتعبير عن الأصالة القومية. وهذا ما حدث في أوروبا في العصر الكلاسيكي، التنويري، الرومانسي، الواقعي، والسريالي (الفوق-واقعي) أتاحت الترجمة من لغة إلى أخرى للروايات والمقالات والكتب الفلسفية لأي بلد الوصول إلى أعمال الدول الأخرى والتغذية بالثقافة الأوروبية مع تغذيتها بأعمالها الخاصة. شهد القرن العشرون عولمة هذه المسيرة الثقافية. تضاعفت أعمال الترجمة. نُشرت الروايات اليابانية وروايات أمريكا اللاتينية وأفريقيا باللغات الأوروبية الأساسة، ونُشرت الروايات الأوروبية في آسيا وفي الأمريكتين. من المؤكد لاتزال هذه الثقافة العالمية الجديدة التي تضم مساهمات أصيلة لثقافات متعددة محصورة ضمن أوساط

محدودة في كل بلد، ولكن تطورها سمة مميزة للنصف الثاني من القرن العشرين. وفي الوقت نفسه، وبشكلٍ موازٍ، تثير الثقافات الشرقية في الغرب كثيراً من الفضول والتساؤلات. عمل الغرب بالفعل على ترجمة الأفيستا[1] والأوبنشاد[2] في القرن الثامن عشر، كونفوشيوس و لاوتزو في القرن التاسع عشر، لكن هذه النصوص الآسيوية ظلت محصورة كموضوع للدراسة العلمية. فقط في القرن العشرين، أصبحت فلسفات وتصوف الإسلام، والنصوص المقدسة للهند، وفكر تاو، والفكر البوذيّ، مصدراً حياً للروح الغربية المنطلقة والمندفعة في عالم النشاط، والإنتاجية، والكفاءة والترفيه. عندئذ ظهر الطلب لليوغا والزن، واللتين تَعِدان بتناغم الجسد وراحة الروح، هذا الطلب الذي تُرجم بطرائق تجارية ورخيصة.

٦- **تشكيل الفولكلور العالمي:** أنتجت وسائل الإعلام، خلال هذا القرن، ونشرت وشكلت الفولكلور العالمي على أساس موضوعات أصلية من ثقافات مختلفة، أحياناً بشكل أصيل، وبشكل توافقي في أحيان أخرى. بدأ كل شيء في العشرينيات من القرن الماضي باستخدام السينما، التي كانت في البداية "تسلية الأقنان"، حسب تعبير الأكاديمي جورج دوهاميل، الذي أراد التعبير

---

(١) الأفيستا: كتاب زرادشت، وتعني **(**الأساس والبناء القوي**)**، تحتوي خمسة أقسام:

يسنا **(**أناشيد وتراتيل**)** – ويسبر – نديدا **(**الأشكال المختلفة للأرواح الشريرة وأصول الحلال والحرام والطاهر والنجس وتحوي القوانين الدينية**)** – يشتها **(**الأناشيد والتسابيح**)** – أفيستاي **(**الصلوات اليومية وتراتيل عظمة الإله**)** – **(**المترجمة**)**

(٢) أوبانيشاد **(**الفيدنيتا: الجلوس بقرب من**)** هي جزء من الديانة الهندوسية ٨٠٠ – ٦٠٠ ق.م. وهي تعاليم تتبع فلسفتين أساسيتين: الأولى: الحقيقة الأساسية **(**براهما**)** قاع الوجود ويقابله **(**أتمان**)** الروح. وهي ترى ان كل روح بمفردها سرمدية – **(**المترجمة**)**

عن ازدرائه لطبقة المفكرين والجامعيين. أصبحت السينما فناً وصناعة في الوقت نفسه، في مفارقة بقيت طويلاً غير مفهومة لكبار المثقفين، ثم تم الاعتراف بها، بعد فترة من التطهير، بأنها الفن السابع. عمل "مصنع الأحلام" الهائل في هوليوود على إنشاء ونشر الفولكلور العالمي الجديد مع أفلام الغرب، والأفلام السوداوية، والإثارة، والكوميديا الموسيقية، والرسوم المتحركة من والت ديزني إلى تكس أفيري. فيما بعد، أنتجت الدول الغربية والشرقية سينماها الخاصة بها. من المسلّم به أنه في عدد كبير من الأفلام غالباً ما تكون هناك صناعة أكثر من وجود إبداع، لكن العجيب أن فن السينما قد ازدهر في كل مكان، وفي جميع القارات، ومن خلال الدبلجة والبث على شاشات التلفزة، فقد أصبح هذا الفن معولماً مع محافظته على أصالة الفنانين والثقافات. يمكننا أن نلاحظ أن الإنتاج المشترك الذي يجمع ممثلين وفنانين ومنتجين من مختلف الجنسيات، كما يحدث كثيرا حاليا، ابتداءاً من "نمر فيكونتي"، وانتهاء ب "ران من كورسوا" يستطيع من خلال هذه العولمة الإنتاجية الوصول إلى مرحلة جمالية أصيلة فُقدتْ في الفولكلوريات المحلية المنهكة.

نشأ فولكلور كوكبي وازداد غنىً بالاندماج والتلاقح الثقافيّ. نشر في العالم موسيقا الجاز التي تشعبت إلى أنماط مختلفة منذ انطلقت من منطقة أورلينز الجديدة، وموسيقا التانغو التي ولدت في ميناء بونيس أيريس الأرجنتيني، في حي مامبو الكوبي، رقصة الفالس القادمة من فيينا النمساوية، موسيقا الروك الأمريكية التي أعطت تنوعات مختلفة في العالم أجمع. لقد ضم هذا الفولكلور نجوم الفن الهندي مثل رافي شانكار، رقص الفلامنكو الاندلسي، الألحان العربية لأم كلثوم، موسيقا جبال الانديز، وحث على إنتاج تناغم موسيقا

السالسا، الراي، والفلامنكو-روك. وبالتأكيد، لا يمكن فصل تطور العولمة الثقافية عن التطور العالمي لشبكة الاتصالات، وانتشار وسائط التوزيع مثل (الشريط الكاسيت، القرص المدمج، شرائط وأقراص الفيديو).

٧- **المشاركة الكوكبية عن بعد:** كانت الحروب التي تجري في آسيا تجهلها أوروبا تماماً، وذلك حتى بداية القرن العشرين، كان احتلال اليابان للصين عام ١٩٣١ هامشياً وبعيداً، وعُلم به فقط عبر بعض الصور التي عُرضت في فترة متأخرة في العروض السينمائية الإخبارية. وبدت حرب تشاكو بين بوليفيا والأرجنتين (١٩٣٢-١٩٣٥) كأنها وقعت في كوكب آخر. بعد عام ١٩٥٠، مع انتشار جهاز التلفاز أصبحت الحرب الكورية، وحرب فيتنام، وحروب الشرق الأوسط معروفة. ومنذ ذلك الحين، يُشاهَدُ العالم يومياً في كلّ منزل، ومع كل وجبة تَعرِض وسائل الاتصال (الميديا) صور الفيضانات، الأعاصير، واندفاعات الحمم البركانية، المجاعات، مشاهد القتل، والثورات التي تحدث ضد القصور، والهجمات، والألعاب، والبطولات العالمية والدولية. لا يوجد حدث أو حادثة أو كارثة لا يتم التقاطها بالكاميرا وإرسالها إلى جميع الآفاق بمئات الملايين من اللقطات. لقد شهد العالم على الهواء مباشرة اغتيال الرئيس كينيدي في دالاس عام ١٩٦٣، ثم اغتيال قاتله المزعوم، ووصول السادات إلى القدس ثم اغتياله في عام ١٩٨١، والهجوم على البابا في ساحة القديس بطرس في روما، واغتيال انديرا غاندي، وابنها راجيف الذي خلفها، بوريس يلتسين يصعد فوق عربة مدرعة لتحدي الانقلابيين في موسكو، ونزول طائرة ميخائيل غورباتشوف المختطف، واغتيال محمد بوضياف في المركز الثقافي في عنابة. منذ عام ١٩٩١، غطت محطة تلفزيون السي إن إن الأمريكية كل الأحداث

من أنحاء العالم. لقد وضعتنا في بغداد في أثناء القصف الأمريكي، في تل أبيب أثناء اعتراض صواريخ السكود بطاريات الباترييوت، لقد وضعتنا في موكب بيل كلينتون عند تنصيبه رئيساً. يا لها من عولمة غريبة، نحن المشاهدين نستهلك مآسي وأهوال ومذابح هذا العالم، لكننا أيضاً نشارك في حيوات الآخرين، وننفعل بمشاهد مآسيهم. ما أن يلتمع فلاش الكاميرا، يتدفق الانفعال الإنساني ويرتدي ثيابه مسرعاً إلى مكاتب المساعدات الدولية والبعثات الإنسانية. باعتراف الجميع، كانت هناك بالفعل، في بداية هذا القرن، عمليات بيع لأهداف غير ربحية وعمليات تجميع نقود خيرية لتغذية " الصينيين الصغار". إلا أن مصائب العالم لا تصل إلى عيون أو آذان الغرب. ثم إن الحرب العقائدية التي استمرت لفترة طويلة، جعلت الناس صم وعميان عن التعذيب الذي ارتكب تحت مسمى خدمة قضية عادلة. لقد حدث الاختراق في جدار عدم الحساسية في ١٩٦٩-١٩٧٠ حين تدخل أطباء بلا حدود أيديولوجيًّاً في بيافرا[١].

اليوم، نحن نهتم، نحن نتعاطف مع بؤس الآخرين لأننا نراهم (لكن فقط عندما نراهم) ولذا يجري إرسال مساعدات طبية وغذائية إلى أماكن المعاناة البعيدة. وهكذا نشأ ما يسمى بالمشاركة الكوكبية عن بعد، فالكوارث التي تضرب الجهة الأخرى من الأرض تثير لدينا فورة عابرة من التعاطف والإحساس بالإنتماء إلى مصير واحد، هو مصير الأرض قاطبة.

---

(١) بيافرا: جمهورية انفصالية دامت من ٣٠ أيار ١٩٦٧ حتى ١٥ كانون الثاني ١٩٧٠. انفصلت عن نيجيريا بعرقية (الإيبو) إبان الحرب الأهلية النيجيرية. اعترف بها كل من هاييتي، الغابون، ساحل العاج، تنزانيا، وزامبيا. وقد دعمت إسرائيل هذا الانفصال بإمداده بالأسلحة المستولى عليها من العرب إثر هزيمة ١٩٦٧ . - المترجمة

شعورنا بأننا سكان كوكب واحد هو كالفورات تعلو ثم تزول. وهكذا، كانت "القرية العالمية" لماك لوهان، متحدة ومنقسمة كأنها قرية، يسودها سوء الفهم والعداء كما هي القرية.

٨- **الأرض كما نراها من الأرض:** لقد اكْتُشِفَت الأرض مؤخراً، اكتشفها سكانها. بعد أول قمر اصطناعي سبوتنيك في عام ١٩٥٧، وبعد أول رحلة فضائية حول الأرض لماجلان الفضاء، يوري غاغارين، استطاع جزء كبير من البشرية أمام شاشاتهم التلفازية تأمّل الأرض كما تبدو من القمر. استوطنت هذه الرؤية الكوكبية بعد انتشارها وتوسعها عبر الجرائد والملصقات وقمصان التي- شيرت في أعماق كل إنسان. على الرغم من بعض المسلّمات الذاتية، المحلية، العرقية، وعلى الرغم من عدم القدرة على تحديد المشكلات (وهذا ليس فقط من قبل الريفيين المعزولين ولكن أيضاً من قبل التكنوقراطيين التجريديين[١]) وعلى الرغم من حالات الإدراك المجزأ الناقص، والرؤية أحادية الجانب، والتركيز الاعتباطي، فإن الإحساس بوجود كينونة كوكبية ننتمي إليها، وبوجود مشكلات ذات بعد عالمي فعلي، بدأ يأخذ شكلاً حاملاً في ذاته تطوراً نحو الوعي الكوكبي. وهكذا فان "العقل العالمي" (global mind) يتطور بشكل متقطع ولكنه متعدد.

---

(١) وكذلك لم يتم الاعتراف بمجازر المعسكرات النازية إلا بعد وصول قوات الحلفاء إليها، ولعقود تم تجاهل ملايين القتلى من الكولاك، وظلت فظائع الثورة الثقافية الصينية صامتة، واليوم وغداً كان وسيكون هناك أماكن معاناة وفظائع لا يتمّ الإفصاح عنها أو تم تجاهلها بسبب عدم وجود كاميرا في ذلك المكان.

ظهور الإنسانية

يُضاف الآن نسيج تواصلي وحضاري وثقافي واقتصادي وتكنولوجي وفكري وأيديولوجي إلى الركيزة البيولوجية الأنثروبولوجية القديمة التي تشكل وحدة الجنس البشري. الجنس البشري يبدو لنا - من الآن فصاعداً – كإنسانية. ظهرت الآن وحدة مفهوم الإنسانية والكوكب، ليس فقط حسيًّاً وحيويًّاً، ولكن أيضاً تاريخياً: إنه العصر الكوكبي.

يبدو أن عمليات الهجرة والتهجين، التي تنتج مجتمعات جديدة متعددة الأعراق والثقافات، تُبشر بالوطن المشترك لجميع البشر. ومع ذلك، في هذا الاختلاط الهائل للسكان، هناك عملية تداخل وتسلسل هرمي أكثر من عملية التكامل الحقيقي، وفي لقاء الثقافات، لا يزال سوء التفاهم سائداً على التفاهم، خلال عملية الطرد المركزي هذه تظل القوى الطاردة قوية جداً. تنمو العالمية، لكن العولمة تكاد لا تستفيق. تبدو حالة التواصل بين البشر حاليا مثل قطعة قماش مرقعة بعضها ببعض، فالبلقنة تشتد مع اشتداد العولمة (انظر الفصل ٣). هناك تشكل أجنة الفكر والعمل الكوكبيين، لكنه يتطور ببطء شديد وشبه مشلول تحت تأثير محدودية الفكر المحلي والمناطقيّ. لم تصل وحدة التكافل الكوكبي مرحلة وحدة المجتمع (وحدة الأمم)، وعلى الرغم من أن هناك مصيراً مشتركاً، فلا يوجد حتى الان وعي مشترك.

بل، وعلى العكس، فكما حدث في النصف الأول من القرن العشرين، تجلى الترابط الكوكبي باندلاع حربين عالميتين، يستمر الأمر بالطريقة عينها في نهاية هذه الألفية، فالترابط بين سكان الكوكب يتبدّى من خلال تشنجات قاتلة.

-٢-

خريطة الهوية الأرضية

انقلبت الأفكار التي كانت أكثر يقيناً حول طبيعة الكون، وطبيعة الأرض، وطبيعة الحياة، وطبيعة الإنسان عينها، رأساً على عقب في السنوات ١٩٥٠-١٩٧٠، على أساس التقدم المصاحب في الفيزياء الفلكية وعلوم الأرض والبيولوجيا وعلم الآثار. تسمح هذه التطورات الثورية بظهور وعي كوكبي جديد.

من كون إلى آخر

لآلاف السنين، كان للعالم مركز ملكي هو الأرض، وحولها تدور الشمس والكواكب بكل طاعة. لقد لاحظ علماء الفلك في العصور القديمة هذا العالم، وأكده نظام بطليموس الذي ستنتهي صلاحيته مع بدايات العصر الحديث. ثم لم تعد الأرض في مركز الكون، مع كوبرنيكوس وكيبلر وجاليليو، وأصبحت كوكباً كرويَّاً يدور حول الشمس، حاله حال الكواكب الأخرى. إلا أن الشمس بقيت في قلب كل الأشياء. استمر الكون في إطاعة نظام لا تشوبه شائبة حتى نهاية القرن ١٨، و عُدَّ دلالة على كمال خالقه الإلهي. كان نيوتن قد وضع القوانين التي ضمنت لتراقص "باليه" حركة الأجسام ذلك التناغم الميكانيكي السماوي. في بداية القرن

التاسع عشر، يقصي لابلاس الإله الخالق من مفهوم الكون المكتفي ذاتياً ويحوله إلى مفهوم لا يتعدى مجرد آلة مثالية للأبد. وحتى بداية القرن العشرين، بقي الكون ثابتاً بشكل لا تشوبه شائبة. حتى عندما انتزع آينشتاين جميع المراكز المميزة منه، احتفظ بطابعه الإلهي (ذاتي الخلق) المكتفي ذاتياً والسرمدي. فقط في عام ١٩٢٣، اكتشف الفلك وجود مجرات أخرى قد يصل عددها قريباً إلى ملايين، وبالتالي جرى تهميش مجرتنا. في عام ١٩٢٩، قدم هبل أول دليل على تمدد الكون عند دراسة الانحراف نحو الأشعة تحت الحمراء في حزمة الضوء المنبعثة من المجرات البعيدة. تبتعد المجرات عن بعضها بعضاً في انجراف كونيّ يصل إلى سرعات مرعبة، وتقصف الجليد هذا سيتسبَّب بانهيار الترتيب الأبدي للكون. سيخضع هذا الكون الذي يتوسع ويتمدد لكارثة أكبر بكثير في النصف الثاني من القرن العشرين، ففي عام ١٩٦٥ التقط بنزيا و ويلسون إشعاعاً موحد الخصائص قادماً من جميع آفاق الكون. لا يمكن تفسير "ضجيج الخلفية الكونية" هذا منطقياً إلا بأنه أشبه ببقايا أحفورية لانحراف شعاعي أولي، وولدت فرضية تشكل الكون الذي يتمدد متشتتا نتيجة لكارثة أولى. وتم افتراض أن الكون قد نشأ كإشعاع عند درجة حرارة مبدئية أولية عند درجة حرارة ١٠[١١] درجة مئوية، وانه في أول جزء من المليون من الثانية من نشوئه ظهرت الفوتونات والكواركات الإلكترونات، النيوترونات، ثم في قلب التفاعلات الحرارية الشديدة، حيث بدأ التبريد التدريجي، تشكلت نوى (بروتونات) ثم ذرات هيدروجين من التقاء الجسيمات مع بعضها، وما توجب حينها فهمه كيف أمكن ظهور التباينات الأولى في هذا الكون البدئي المتجانس التي وحدها يمكن أن تفسر تصدع المجرة الأولية وتفككها إلى مجرات ثانوية غير

متساوية هي أمّات المجرات والنجوم. هذه هي المعلومات التي جلبها القمر الاصطناعي Cobe في نيسان ١٩٩٢ عندما اكتشف على حافة الكون، على مسافة ١٥ ملياراً من السنوات الضوئية، وربما بعد ثلاثمئة ألف سنة فقط من الحدث الأصلي اختلافات متناهية الصغر في كثافة المواد.

في فترة ستينيات القرن الماضي، بينما كان المستقبل الكوني المتألق يتشكل، نكتشف في المجرات الكونية غرائب كان لا يمكن تصورها حتى ذلك الحين: النجوم الزائفة (١٩٦٣)، النجوم النابضة (١٩٦٨)، ثم الثقوب السوداء، واعتماداً على حسابات علماء الفيزياء الفلكية فنحن لا نعرف سوى ١٠ % من المادة، ٩٠ % منها لا تزال غير مرئية لأجهزة الكشف لدينا. لذلك نحن نعيش في عالم يتكون فقط من أقلية من النجوم والكواكب ويتضمن حقائق هائلة لا تزال غير مرئية.

وها نحن في نهاية هذه الألفية، في كون قائم في مبدئه على المجهول الذي لا يمكن فهمه ولا يمكن تصوره. نحن هنا في عالم ولد من لدن كارثة، والتنظيم الرائع الذي يقوم عليه جاء من عيب بالغ الصغر وحالة تدمير هائلة (للمادة المضادة). نحن هنا في هذا العالم الناشئ من معادلة الحدث العارِض، والذي تعجز عن فهمه إمكاناتنا للمعرفة الحالية، كون خُلِق ذاتيّاً، انتِج ذاتيّاً، نُظِّمَ ذاتيَاً. نحن هنا في كون نظامه البيئي الضروري لتنظيمه هو ربّما العدم (كل ما هو منظم ذاتياً يتغذى على الطاقة: يتغذى كوننا على الطاقات الهائلة المولودة من التدفّق الحراري الأولي، لكن من أين جاءت هذه الطاقات؟). نحن هنا في كون ينظمه تفكك عناصره. نحن في عالم لا يزال فيه العديد من الأسرار المدهشة، بما في ذلك الإبادة في لحظة التكوين، المادة الناتجة عن المادة

المضادة، أي إن المادة تدمر بشكل شبه الكامل مضادة المادة، إلا إذا كان التفسير لغزاً لا يقل إدهاشا، أن يكون هناك كون من المادة المضادة يرافق كوننا بشكل خفي فقط، أو أنه مجرد فرع من كون متعدد الأشكال. نحن هنا في كون يقف على حدود الممكن الذي، لو أنه لم يتضمن الكثافة المحددة جيداً للمادة الخاصة به، لكان عليه إما أن ينكمش مرة أخرى بعد ولادته مباشرةً، وإما أن يتوسع دون إنتاج مجرات أو نجوم. نحن هنا في عالم فيه تلاقي مجرات، تصادمات وانفجارات نجوم، حيث يكون النجم ليس مجرد كرة تجول في السماء، بل عبارة عن قنبلة هيدروجينية بطيئة ذات محرك ملتهب. نحن هنا في عالم تحركه الفوضى، وتنظمه علاقة يكون فيها النظام وانعدام النظام ليسا فقط أعداء بل متواطئين حتى تنشأ منه هذه التشكيلات المجرية، النجمية، النووية، الذرية. نحن هنا في كون حيث سيتم بلا شك شرح العديد من ألغازه ولكنه لن يعود أبداً إلى بساطته الميكانيكية القديمة، ولن يجد مجدداً مركزه الشمسي، وحيث ستظهر ظواهر أخرى أكثر غرابة من تلك التي اكتشفناها للتو. وها نحن في مجرة هامشية، درب التبانة، التي ظهرت بعد ٨ مليارات سنة من ولادة العالم، والتي، مع جيرانها، تبدو منجذبة إلى كتلة هائلة غير مرئية تسمى "الجاذب الكبير". نحن ندور في مدار مجموعة قليلة الأهمية تابعة لإمبراطورية درب التبانة، هذه المجموعة التي ظهرت بعد ١٣ مليار سنة من ولادة العالم، بعد ٥ مليارات سنة من تشكل درب التبانة. نحن هنا على كوكب صغير ولد قبل ٤ مليارات سنة.

كل هذا معروف اليوم، بالطبع ليس من أمدٍ طويل، وعلى الرغم من نشره على نطاق واسع في الكتب والصحافة والمحادثات التليفزيونية

لهوبكينز وريفيس، فإن الكون الجديد لم يدخل في نفوسنا وقناعاتنا، التي لا تزال تعيش في وسط الكون، على أرض لا تزال ساكنة وتحت شمس أبديَّة. هذا لا يثير الفضول أو الدهشة أو التأمل لدى الفلاسفة المحترفين، بمن فيهم أولئك الذين يتعاملون مع العالم عن طريق العلم. ذلك أن فلسفتنا اليوم سببت العقم للحالة المدهشة التي ولدت منها. إن دراساتنا قد علمّتنا أن نفصل المعرفة في خانات ونعزلها ولا نربطها، ما يجعلنا نتعامل مع إنسانيتنا على أنها حالة فردية، خارج الكون الذي يحيط بنا والمادة الفيزيائية التي نتكوّن منها .

وتالياً، نحن نعلم، دون الرغبة في هذه المعرفة، أننا نتحدّر من هذا العالم، وأن جميع جزيئاتنا قد تشكلت هناك منذ ١٥ مليار عام، وأن ذراتنا الكربونية قد تشكلت في شمس سابقة لشمسنا، وأن جزيئاتنا قد تكون ولِدت على الأرض أو ربما وصلت عبر النيازك. نحن نعلم، دون الرغبة في هذه المعرفة، أننا أبناء هذا الكون الذي نحمل في داخله عملية خلقنا، مستقبلنا، وموتنا.

لذلك، لا نعرف بعد كيفية تحديد مكانتنا فيه، لا نعرف كيف نربط تساؤلاتنا الوجودية حول أنفسنا وحول هذا العالم. لم نضطر بعد للتفكير في مصيرنا المادي والأرضي. لم نحدد بعد عواقب الوضع الهامشي المحيطي لكوكبنا المحكوم بالفناء ووضعنا كبشر على هذا الكوكب. ومع العلم أننا ضمن هذا المفهوم الكوني يجب أن نحدد موقع كوكبنا ومصيرنا وتأملاتنا وأفكارنا وطموحاتنا ومخاوفنا وإرادتنا.

الكوكب الفريد

ما هذا الكوكب، ذرَّة من الغبار الكوني، منها وُلِدَت الحياة، وفيها انتج الغطاء النباتي الأكسجين صانعاً غلافه الجوي، وعلى كامل سطحه انتشرت جميع الكائنات الحية، لقد شكل محيطاً بيئي التنظيم وذاتي التعديل، حيث انطلاقاً من شعبة من عالم الحيوان، بدأ ظهور وانتشار رتبة البشريات.

حبيبات الغبار الكوني هذه، هي عالم. عالم ظل مجهولاً لزمن طويل للبشر الذين عمدوا، في أي حال إلى تغطية الكوكب لعشرات الآلاف من السنين، من خلال تفرقهم عن بعضهم البعض وانتشارهم. حدث الاستكشاف الممنهج لسطح الأرض مع نشوء العصر الكوكبي، ولم يعد هناك مكان على الأرض مخصص للجنة أو للعمالقة الإغريقين الأسطوريين أو لعمالقة القصص أو للآلهة أو أي كائنات أخرى خرافية، وحلت محلها أرض من النباتات والحيوانات والبشر. منذ القرن الثامن عشر، اخترق البحث العلمي التربة الجوفية للأرض وبدأ يدرس الطبيعة الفيزيائية لكوكب الأرض **(الجيولوجيا)** وطبيعة عناصره **(الكيمياء)**، والطبيعة الغامضة لمستحاثاته **(علم المستحاثات)**. باتت وجودية الأرض ليست فقط على سطحها بل وفي أعماقها. لم تعد كوكباً ساكناً بل متطوراً. اكتشفنا أن للأرض تاريخاً[1]، تبلور كل هذا في القرن

---

(١) يصنف الإيطالي جيوفاني أردوينو الصخور وفقاً لأحقاب ثلاث، بدائيّ، ثانوي، ثالثي **(١٧٥٩)**. أطلق بوفون مفهوم التسلسل الزمني الأول لكامل الكرة الأرضية، والذي يبدأ من ولادة كوكبنا، المفترض أن يكون عبارة عن قطعة من الشمس تم انتزاعها من قبل مذنب **(عصر الطبيعة، ١٧٤٩ - ١٧٧٨)**؛ انها تدير عملياتها المادية والحيوانية والنباتية والانثروبولوجية، حيث "الحياة البشرية"... ليست سوى لحظة زمنية.

التاسع عشر[1]. وفي فجر القرن العشرين، طور الألماني ألفريد فيجنر نظرية الانجراف القاري، والتي بعد الكثير من الرفض تم تأكيدها من خلال الاستكشاف المنهجي، بدءاً من خمسينيات القرن العشرين، لقاع المحيط باستخدام تقنيات السبر المغناطيسي والكهربائي والزلزالي والصوتي.

لقد ظهر كون جديد ابتداءً من ستينيات القرن الماضي، في الوقت نفسه الذي نشأت فيه أرض جديدة.

يتيح علم بنية القشرة الأرضية (اللوحات التكتونية) ربط علوم الأرض بعضها ببعض، في تصور شامل، ويصبح الكوكب، الذي يتوقف عن أن يكون مجرد كرة، بناء داعماً أو قاعدة، ليصبح كائناً معقداً له حياته الخاصة، تحولاته، تاريخه: هذا الكائن هو في الوقت نفسه آلة حرارية لا تتوقف عن تنظيم نفسها ذاتياً. تغطيه قشرة الأرض أو اللحاء الوشاح، وهو بنية أشبه بالبيض الطري، يغلف قلباً تسوده الحرارة الشديدة.

عاش هذا اللحاء وما زال يعيش مغامرة رائعة، من تواتر حركات انفصالية، إعادة ربط، عمودية، أفقية، انجرافات، مواجهات، صدمات (زلازل)، حالات أشبه بانقطاع التيار (ثوران بركاني)، كوارث نتيجة القصف النيزكي الهائل، العصور الجليدية وعصور الاحتباس الحراري.

---

(١) تتيح لنا فكرة تجعد القشرة الأرضية بالتقعر، التي اقترحها الطبيعانيّ الأمريكي جيمس دانا، فهم تشكيل التضاريس نتيجة التواء طبقات الأرض (١٨٧٣). يشرح الجيولوجيّ النمساوي إدوار سوس تغير مستوى البحار تراجعاً وتجاوزاً الاختلافات في مستوى المحيط (١٨٧٥)، يطرح الجيولوجي الأمريكي داتون فور أويد، في عام ١٨٨٩، نظرية التضاغطية (التوازنية) وهي توازن لقشرة الأرض العائمة ضمن وسط مائي الناتج عن اختلاف كثافة أجزائها.

من أين تأتي الأرض؟

في العقود الأخيرة من هذا القرن، صرنا نتساءل عن نشأتها الأولى، ليس كما ذكرت النظريات القديمة: انفصالها عن الشمس، لكن حسب الرؤية الجديدة بأنها تَجمُّع من المخلفات السماوية[1]. لقد تكونت، مثل الكواكب الأخرى، عن طريق التقاء الغبار الكوني وتكتله، ربما بعد انفجار نجم هائل (سوبر نوفا)، ما شكل "الكويكبات"، التي بدورها تصادفت وتكتلت في حركة لتشكيل النظام الشمسي، وهكذا فإن الأرض الناشئة كانت قمراً تابعاً للشمس حديثة الولادة؛ وبني هذا الرصيص البركانيّ من مكونات غير متجانسة للسبب عينه، من نواة ووشاح، وفي الوشاح تصلبت الماغما اللزجة لتشكل القشرة الأرضية.

الأرض هي مخلوق فوضوي يتكوّن تنظيمه على أساس الصراع والتعاضد لمعادلة النظام والفوضى.

تعرض هذا الكوكب في نشأته الأولى للقصف النيزكي، والانفجارات البركانية التي أطلقت غازات ستعطي لاحقاً المياه والمحيط الجوي الأول، في حين أن الحديد تدفق نحو مركزه حيث استمرّ سائلاً، ثم في خضم هذه الثورات والزلازل، وبشكل مستمر تفجرت العواصف الرعدية عند درجات حرارة تصل إلى ٢٥٠ درجة. تسبب سيلان مياه الأمطار الغزيرة بعمليات الحتّ والتعرية الأولى، مسهلاً تكوين الحجر الكلسي (احتجاز الكالسيوم لغاز ثاني أكسيد الكربون المتواجد في الغلاف الجوي) ومؤدياً إلى انخفاض درجات الحرارة.

---

(١) انظر أليغر، مقدمة في التاريخ الطبيعي، باريس، فيارد، ١٩٩٢.

منذ نشأتها إلى ما لا يقل عن ٢,٧ مليار سنة، ستبقى الأرض نشطة للغاية من الناحية الجيولوجية، حيث تدمر وتحول آثار التشكلات الأولى التي ظهرت وكانت تاريخها الأول. هذه الفترة القديمة هي، في الأرجح فترة تطور القارات الأولى التي خضعت لتآكل شديد على الفور.

بعد ذلك، وحتى زهاء ٥٦٠ مليون سنة، دخلت الأرض في ما يشبه العصور الوسطى الطويلة، حيث استبدلت القشرة الأرضية القديمة بالتدريج لحاء جديد مصنوع من رواسب صلبة تعرضت للضغط فشكلت طيات هي التضاريس التي بدورها تعرضت للتآكل، معززة بـ حقن من الجرانيت، مجموعة خليط غير متناسق تجزأ إلى قارات ينجرف بعضها عن بعض. تتيح نظرية تكتونية الصفائح اليوم تصور الظاهرة المعقدة المتمثلة في تشكل سطح الأرض، والتي تمنحها مظهرها الحالي، خلال ملياري سنة تطورت في أثنائها الحياة وانتشرت. هكذا، اتخذت مجموعة من المخلفات الكونية شكلها وتنظيمها لتصبح كوكب الأرض، وفي مغامرة صعبة استمرت لأربعة مليارات عام، شكلت ونظمت بنية معقدة، مع نواة، عباءة، و لحاء.

وها هوذا كوكب يبدو راكناً، مع قاراته وجزره وجباله ووديانه ومناظره الطبيعية، مياهه، أنهاره بحاره، محيطاته، غلافه الجوي، وطبقاته الجوية العليا، وفقط من وقت إلى آخر زلازله، اندفاعاته البركانية، أعاصيره، أمواجه العاتية. لكن مع بقائه دوما كوكباً يعتمد في وجوده على الشمس، إن هذا العالم - الأرض محدود، ومعزول، ومستقل، ويستمد استقلاليته من خضوعه لنفسه. لقد أصبح كوكباً متفرداً ووحيداً بين

الكواكب الأخرى للنظام الشمسي ونجوم المجرة. وفي هذه العزلة الفريدة، أنجب شيئاً وحيداً ومتميزاً في النظام الشمسي بأكمله، وفي المجرة بلا شك، ربما حتى في الكون: إنها الحياة.

أرض الحياة

على كوكب صغير تابع لشمس صغيرة غير ذات شان من درب التبانة، هذه المجرة الضائعة بين كتلة تنسلُّ على غير هدى بين ملايين أخرى، ظهر قبل ٣,٨ مليارات من السنوات ربما، من خضم عذابات الولادة من الانفجارات والعواصف الرعدية، أول مظاهر لما يمكن أن تصبح الحياة.

كانت ولادة الحياة في عالم مادي غير مفهومة، نظراً للقناعة أن المادة الحية ذات طبيعة أخرى ولها خصائص أخرى غير المادة الفيزيو - كيمياوية، وأنها لن تخضع لقانون الديناميكا الحرارية الثاني، الذي يحكم كل الأشياء المادية بنهاية واحدة (الأنتروبيا[1])، أي التشتت أو التفكك. إنما بدا منذ عام ١٩٥٠، في أعقاب اكتشاف واتسون وكريك للشفرة الوراثية المكتوبة في الحمض النووي للخلايا الحية، أن الحياة مكونة من المكونات الفيزيائية والكيميائية نفسها كبقية عناصر الطبيعة الأرضية، وأنها تختلف عن الطبيعة فقط بدرجة التعقيد الأصلي لبنيتها. أظهرت الديناميكا الحرارية البريجوجينية[2] بعد بضع سنوات، في بداية السبعينيات، أن بعض حالات عدم الاستقرار لا تسهل الفوضى والاضطرابات فحسب، بل ساعدت في ظهور أشكال

---

(١) درجة التعادل الحراريّ أو الطاقة غير المتاحة - (المترجمة)

(٢) مبدأ العالم إيليا بروغاغين الكائنات الحية عبارة عن نظام مفتوح أو بنية مُبدَّدة تتبادل الطاقة والمادة والمعلومة مع محيطها بشكل دائم ومستمر – (المترجمة)

حيوية منظمة قادرة على إعادة إنتاج نفسها ذاتياً وهذا جعلنا نتقبل فكرة أن الحياة ظهرت من خضم اضطرابات وفوضى عناصر الأرض. وبالتالي، يمكننا الآن أن نعترف في نهاية قرننا، بأن المنظومة الحية هي ثمرة التعقيد التنظيمي الغير خطي، وتنبع كذلك من الالتقاءات العشوائية بين الجزيئات الكبيرة[١]، وربما في بعض الأحيان تفاعلات على سطح الصخور[٢]، وفي مرحلة نهائية ضمن وسط سائل محكوم بحركة دورانية. لا يزال أصل الحياة لغزاً يتم تطوير السيناريوهات له باستمرار[٣]. لكن الحياة لا يمكن أن تولد إلا من مزيج من الصدفة والضرورة، وهو مزيج غير قابل للقياس. هناك "سلسلة متصلة" من التعقيد الفيزيائي الكيميائي؛ لكن هذا السلسلة تتضمن تحولات متعددة، منها الفصل بين الوسطين الداخلي والخارجي، وعملية تبادل الطاقة وعملية تمايز تبادلات الطاقة، وأخيراً قفزة التعقيد المفرط الجذري من منظومة كيميائية بحتة إلى الذات الحيوية المدركة لنفسها والممنوحة بعداً إدراكياً (الحسابي - المعلوماتي - التواصلي[٤])، قادراً على التنظيم الذاتي، والإصلاح الذاتي، والتكاثر الذاتي، وقادر على الاستفادة من التنظيم والطاقة والمعلومات في بيئتها. وبالتالي تصبح المشكلة: كيف يمكن

---

(١) وصل بعضها عن طريق النيازك.

(٢) طور أنطوان دانشان الفرضية، التي تناسبه بشكل جيد، عن أصل الحياة الصخري (فجر الصخور باريس، دار نشر سوي)

(٣) راجع م.إيجين "التنظيم الذاتي للأمر وتطور بيولوجية الجزيئات الكبيرة "، الجزء ٥٨، ص ٤٦٥. الذي يجب ان يضاف إليه سيناريوأصل الحياة خارج كوكب الأرض، الذي اقترحه كريك.

(٤) للاطلاع على هذه المفاهيم، انظر إدغار موران "المنهج"، الجزء ٢، حياة الحياة، باريس، دار نشر سوي، منطلقات المقالات ١٩٨٥، ص١٧٧-١٩٢

أن تظهر مثل هذه المنظومة على الأرض؟ هل مظهر الحياة حدثٌ فريدٌ من نوعه، يدين بذلك للتراكم المستبعد للمصادفة، أو على العكس هو ثمرة عملية تطورية، إن لم تكن ضرورية، هي على الأقل واردة بدرجة كبيرة؟

من حيث الاحتمالات:

- التكوين التلقائي للجزيئات الكبيرة المناسبة للحياة في ظل ظروف معينة، التي يمكن استنساخها في المختبر؛

- اكتشاف أسلاف الأحماض الأمينية المشكلة للحياة في بعض النيازك.

- مظاهرة من الديناميكا الحرارية غير الردود (بريغوين) التي في ظل ظروف معينة من عدم الاستقرار، تعمل على إنتاج عفوي لمنظومات، وبالتالي احتمالية تشكل جزيئة كبيرة تزداد تعقيداً بتوافر ظروف ديناميكية حرارية مناسبة (الدوامات).

- وربما، في ظل هذه الظروف، ومن تلاقٍ للجزيئات، وعلى مدى فترة طويلة، أجريت عملية انتقائية لصالح RNA / البروتينات الجزيئية التكميلية، التي أصبحت قادرة على التناسخ الذاتي والقيام بالتحولات الغذائية (عملية الأيض).

- الاحتمال الكبير للغاية، في عالم يضم مليارات البلايين من النجوم، أن يكون هناك ملايين الكواكب المحاكية للأرض، وبالتالي احتمال وجود كائنات حية في مناطق أخرى من الكون.

من حيث استبعاد الفرضية، فإن الحجج هي كما يلي:

- يبدو هذا الأمر مستبعداً إلى حد كبير لوجود قفزة في النوعية / الكمية (أبسط البكتيريا هي عبارة عن مجمع من ملايين الجزيئات) والانقطاع الجذري بين أكثر منظومات الجزيئات الكبيرة تعقيداً والذات الحية المدركة لنفسها (التي كما سبق وقلنا، ذات طبيعة حسابية - معلوماتية - تواصلية)؛

- المنظومة الحية بحد ذاتها غير ممكنة فيزيائياً، بمعنى أنه وفقاً للمبدأ الثاني للديناميكا الحرارية، فإن تشتت المكونات الجزيئية للكائن الحي خاضع للاحتمالية المادية، وهوما يحصل فعلياً عند الموت؛

- هناك الكثير من الأدلة تشير إلى أن الحياة قد ولدت مرة واحدة فقط، بمعنى إن لجميع الكائنات الحية سلف واحد، ما يعزز الفرضية القائلة إن أصل ظهور الحياة هي نتيجة مصادفة بالغة الندرة؛

- ليس هناك أي مؤشر، ولا أثر للحياة في النظام الشمسي، ولا توجد أي رسالة قادمة من الكون؛

- علاوة على ذلك، فإن الحجة التي مفادها أن الكواكب الأخرى كانت ستستفيد من ظروف ماثلة لظروفنا، لم تعد مقبولة إذا كانت الحياة على هذه الأرض أصلا هي ثمرة محض مصادفة.

لا يمكننا استبعاد فرضية ثالثة؛ ربما توجد كائنات معقدة للغاية في الكون، تتمتع بخصائص الاستقلالية والذكاء بل حتى التفكير، لكن تركيبها لا يعتمد على البروتين النووي، لا يمكن الوصول إليها ضمن تصورنا وفهمنا (لا يمكن الوصول اليها حالياً؟ إلى الأبد؟).

في أي حال، لانزال في حالة منتهى عدم اليقين بشان الطبيعة الحتمية أو العرضية (المصادفة)، الضرورية أو المعجزة لظهور الحياة، وهذا الغموض يؤثر بوضوح في معنى حياتنا البشرية.

في كل الأحوال، تبرز الحياة كانبثاق وخلق للأرض.

وفي كل الأحوال، وحتى إذا كانت البدايات الجرثومية للحياة (أسلاف الجراثيم)، كما يفترض كريك، من أصل خارج - أرضي، تبقى الأرض مهد الحياة.

وفي كل الأحوال، هناك تفرد للحياة الأرضية سواء في النظام الشمسي أوفي درب التبانة.

وفي كل الأحوال، فمن الواضح أن هنالك أول كائن حي تكاثر وتضاعف وتحول وأخذ أشكالاً لا حصر لها، وقد ملأ الأرض.

انتشرت البكتيريا القديمة (أسلاف البكتيريا)، ثم البكتيريا في الماء، في الغلاف الجوي، في الأرض، وشكلت لمدة ملياري سنة المحيط الحيوي الوحيد الذي تتواصل جميع عناصره عن قرب (خاصة عن طريق حقن الحمض النووي من بكتيريا إلى أخرى). في خضم هذا التعاضد الصخري المعدني، ظهرت عمليات التكافل التعاضدي الذي نشأت منه خلايا النواة (مملكة البدائيات)، ثم الجراثيم الحقيقية (جراثيم العتائق) ثم حقيقيات النوى (كائنات متعددة الخلايا تضم فيها نباتات وحيوانات وفطريات)، التي انضمت وانتظمت لتشكيل كائنات متعددة الخلايا والنباتات والحيوانات. من الممكن أن الطحالب أحادية الخلية استخدمت الطاقة الشمسية (التمثيل الضوئي). وبهذا، فإن تطور الحياة النباتية نشر الأكسجين

في الجو، الذي بدوره سمح بالحياة الهوائية وتطور عالم الحيوان، الذي سوف يبحث عن مصادر أخرى للطاقة، نتيجة حرمانه من عملية التمثيل الضوئي، من خلال التهام مخلوقات حية أخرى.

انتشرت الحياة في البحار، وفي البر على التربة التي تشكلت وغطت نفسها بالأشجار والنباتات، وفي الجو مع الحشرات والطيور.

بدأ التنويع الكبير منذ ٤٥٠ مليون عام، ما سمح بتواصل متعدد الأوجه بين الحيوانات والنباتات، حيث ستغذي الكائنات الحية بعضها بعضاً وتشكل، من خلال تفاعلاتها الخصومية والتنافسية والتكاملية بآن واحد، المنظومات البيئية أو النظام البيئي[1].

يخضع تاريخ الحياة لتحولات وكوارث القشرة الأرضية. لا ينفصل مستقبله عن صيرورة البحار والقارات، ظهور التضاريس، وتآكلها. في بعض الأحيان، تؤدي بعض التغيرات الطفيفة جداً الجغرافية منها والمناخية والبيئية والوراثية، إلى سلسة من التأثيرات الارتدادية. تتطور النظم الإيكولوجية من خلال الفوضى وإعادة التنظيم. تتابع العصور، من خلال جدلية من الإبتكارات والحوادث والكوارث. بعد الانتشار المذهل للأزهار، نشأ تعاون غير عادي بين الحشرات والزهور. ربما كانت كارثة كوكبية التي سمحت بالتطور الهائل للثدييات، التي من الممكن أنها استفادت من الانقراض الكلي للديناصورات، الذي حدث في نهاية الحقبة الثانية بعد اصطدام نيزك متفجر كوني بالأرض، وحفره فجوة واسعة،

---

(١) انظر إ.موران **(**خاصة فيما يتعلق بحلقات التغذية والتطور البيئي والتطورات البيئية**)**، باريس، كتاب المنهج، الجزء الثاني، حياة الحياة، مرجع سابق. سبق ذكره. ص٣٠، ٣٤-٣٦.

وإثارة سحابة كبيرة إلى درجة أدت إلى إضعاف موسع للغطاء النباتي ما أدى إلى نفوق الحيوانات العاشبة العملاقة.

أظهرت الحياة تنوعاً شديداً من التشعب الثنائي إلى الفروع المتعددة على مدى ٥٠٠ مليون عام: النباتات واللافقاريات والفقاريات. من بين هذه الفقاريات: عديمات الفك والأسماك والزواحف والثدييات؛ من بين هذه الثدييات: الرئيسات التي انتشرت منذ ٧٠ مليون سنة في العالمين القديم والجديد، اللذين كانا ولا يزالان متصلين، ومنذ ٣٥ مليون عام، الرئيسات العليا في أفريقيا والجزيرة العربية؛ سوف يظهر بين هذه الرئيسات، قبل ١٧ مليون سنة، أسلاف الإنسان.

وهكذا، ظهرت وتطورت على الأرض "شجرة الحياة"؛ من الواضح أن ليس لهذه الشجرة جذع منتظم يحمل فروعاً متناظرة. إنه مزيج من الأزهار الخيمية، من عناقيد الثمار، والسنابل من جميع الألوان والروائح، وهي التقاء بحيرات متفرعة حيث تجتمع الجذور والفروع وتفترق.

شجرة الحياة هي في الوقت نفسه محيط للحياة. هذه الأخيرة أوجدت، ومن خلال التفاعل مع الظروف الجغرافية المناخية، مجالات متعددة تشكل باجتماعها المحيط الحيوي. ومن الفرع النهائي والمنحرف لشجرة الحياة، يظهر الإنسان داخل المحيط الحيوي. يربط المحيط الحيوي بين النظم البيئية والأنظمة البيئية، ويغطي بالفعل الكوكب بأسره. إنما بالنظر إلى المسافات الكونية يبدو المحيط الحيوي والغلاف الجوي طبقة هشة جداً. ومثلما كانت الأرض الفيزيائية هي المشيمة، فالمحيط الحيوي هو مشيمة البشرية. هكذا تتحد الحياة، المولودة من رحم الأرض مع الأرض. تتحد الحياة مع الحياة.

تحتاج كل أنماط الحياة الحيوانية إلى البكتيريا، النباتات، الحيوانات الأخرى. اكتشاف التضامن البيئي هو اكتشاف عظيم وحديث. لا يمكن لأي كائن حي، حتى الإنسان، أن يحرر نفسه من هذا المحيط الحيوي.

الهوية الإنسانية

شكّل أصل وطبيعة ظهور الإنسان مشكلة للبشرية بمجرد الشك في صحة الرواية القائمة على الأساطير. لقد جعلت الحداثة من الإنسان كائناً نصف خارقٍ، حل تدريجياً مكان الله الذي بات خاوياً، حيث أعطاه بيكون، ديكارت، بوفون، ماركس مهمة السيادة على الطبيعة والسيطرة على الكون. إنما، بعد روسو، ستربط الرومانسية الكائن البشري بحبل سري إلى الطبيعة الأم. وبهذا، وعبْرَ الكتَّاب والشعراء، تتحقق أمومة الأرض. وعلى العكس، حَوّل التقنيون والعلماء الأرض من مفهوم حسي مجرد إلى عناصر مادية مكونة من أشياء يمكن التعامل معها دون رحمة.

تميل عقلانية التنوير إلى رؤية الكائن البشري متماثلاً، مع الصفات والعواطف الأساسة نفسها، في مختلف الحضارات، ولكن ستصر الرومانسية، بعد هيردر، على الخصائص الفردية التي تَسِمُ الثقافات بها كل فرد. وهكذا سيتم النظر إلى البشرية، ليس بآن واحد، ولكن بشكل متناوب، إما كمجموعة بشرية متشابهة و إما كمجموعة متنوعة.

تعرفت العلوم الطبيعية، في القرن التاسع عشر، على نحو متزايد إلى الإنسان ككائن بيولوجي، بينما تعرفت عليه العلوم الإنسانية بشكل متزايد ككائن ذي بنية نفسية وككائن ثقافي. إلا أن هذا الانقسام بين العلوم والتعارض بين المدارس الفكرية جعل من المستحيل بناء رؤية متكاملة تشمل

هذه الصفات الثلاث (كائن بيولوجي ذو بنية نفسية وخلفية ثقافية)، وتمسكت بجمود كل زاوية من زوايا الرؤية هذه بالصفة التي تراها، ما حجب عنها رؤية الآخرين. علماً أن الاعتراف البيولوجي بوحدة الإنسان لن يقلل بأي حال من الأحوال من أهمية التسلسل الهرمي لـلأنواع في سباق المراتب العليا والدنيا. وإن كانت الإنسانية الغربية قد منحت، تحت تأثير الفكر التنويري، جميع البشر حقوقاً متساوية، فإن الجموع الوسطية الغربية تُنْكِر صفة الرجل البالغ والعاقل تماماً على من تصفهم بصفة "البدائي" و"المتخلف".

وأيضاً إبان القرن التاسع عشر لم يعد يُنسب خلق الإنسان إلى إله خالق، بل إلى التطور البيولوجي. أصبح من المقبول به انحدار الإنسان من القرد. لكن تم التأكيد أيضاً على أنه من خلال انفصاله عن شجرة الأسلاف، يكون انفصاله عنها أبديًّاً، محافظا بذلك على قرابة تشريحية وفسيولوجية فقط بينه وبين فصيلة الرئيسات. وكما ظهرت منيرفا اليونانية فجأة من روح الإله الإغريقي غير المرئي جوبيتر، ظهر الإنسان العاقل فجأة، بحدود عام ١٩٦٠، بذكائه وأدواته ولغته وثقافته.

في ستينيات القرن الماضي، جرى التشكيك في تفرد الإنسان، فملاحظات جانيت فان لويك جودال[١]، ثم "الحوارات" التي أجراها غاردنر وبريماك مع الشمبانزي[٢] تقربنا عقلياً من هؤلاء، الذين لم يعودوا أسلافاً لنا بل أصبحوا أبناء عمومتنا. بينما كانت هذه الانجازات تقرب

(١) فان لويك كودال، قرود الشمبانزي وأنا، باريس، ستوك، ١٩٧١.

(٢) راجع ا. موران، م. بياتيللي-بالماريني وحدة الإنسان، باريس، دار نشر سوي "مجموعة منطلقات المقالات"، ١٩٧٨، الجزء ١، ص. ١٥-٥٧.

فصيلة الرئيسات من الإنسان، فان اكتشافات لويس وماري ليكي في كهف أولدوفاي، عام ١٩٥٩، واكتشافات ابنهما ريتشارد في بحيرة رودولف، عام ١٩٧٢، إيف كوبينز في وادي أوموفي، عام ١٩٧٤، أظهرت كائناً من رتبة البشريات منتصب (يسير على ساقين) يعود إلى بضعة ملايين من السنين وحجم المخ عنده يقارب ٦٠٠ سم مكعب، وقادر بالفعل على صنع أدوات وأسلحة وملاجئ. لا يظهر الإنسان العاقل *Homo sapiens* مدججاً بالسلاح من الرأس إلى أخمص القدمين قبل خمسين ألف عام، ولكنه ظهر أثناء عملية أنسنة (التحول إلى إنسان) طويلة من ملايين السنين. كانت الكائنات من رتبة البشريات، التي انقرضت، جميعها بشراً بالفعل. نحن آخرهم، ونتميز بدماغنا الكبير البالغ ١٥٠٠ سم مكعب.

تماماً كما تخرج الحياة من الأرض، من خلال التحام محلي فردي، يخرج الإنسان من الحياة، من تفرع حيوان فريد، وهي فصيلة الرئيسات، وهم سكان الأشجار في الغابة الاستوائية الأفريقية، التي عاش فيها الإنسان وهو يتطور. تطلَّب الأمر ظروفاً جديدة وفريدة في نوعها في تاريخ الأرض من حيث تغير المناخ، ما أدى إلى تراجع الغابات الاستوائية وتطور السافانا السهلية في جنوب أفريقيا، وهو ما ساهم في دفع أسلافنا البشريين إلى تطوير وضعية الوقوف ثنائي الأطراف (منتصباً) والجري، الصيد، والاستخدام المنهجي للأدوات. وهكذا، تبدأ المغامرة الطويلة جداً في الأنسنة، والتي تستمر مع استئناس الإنسان المنتصب النار، وتتسارع في الخمسمئة ألف سنة الماضية؛ إذ ينتج هذا الإنسان القديم أدوات أكثر ملاءمة، ويطور تقنيات الصيد، وبناء المأوى، وصنع الملابس، إنه يعقد العلاقات الشخصية، ويثري أواصر الصداقة

العاطفية والحب بين الرجال / النساء، والأباء / الأطفال، وفي هذه العملية المتعددة الأبعاد، يتحول الإنسان القديم (سلف الإنسان) تشريحياً، وعقلياً، ونفسياً، وعاطفياً، اجتماعياً: ظهور اللغة، ربما قبل الإنسان العاقل نفسه، منجزاً بذلك الجزء الحاسم من الثقافة[1] للإنسانية.

لا يبتعد سلف الإنسان عن الحيوانية في أثناء هذا التحول، فهو ليس حيواناً من مرحلة ما بعد الرئيسات، لكنه حيوان رئيسٌ متقدمٌ، وقد طور مهارات كانت موجودة قبلاً، ولكنها بشكل مشتت، غير مستمر، عابر في بعض الرئيسات العليا، مثل صنع الأدوات، مارسة الصيد، المشي على الأطراف السفلية. الإنسان ليس حيوانا من سلسلة ما بعد الثدييات، إنه من سلسلة الثدييات العليا، والذي طور الدفء العاطفي بين الأم والطفل، بين الأخوة والأخوات، والمحافظة على هذه العلاقات الإنسانية في مرحلة البلوغ، وتوسيعها لتشمل العلاقات العاطفية والصداقات. لا ينتمي الإنسان إلى رتبة الفقاريات العليا، إنما إلى الفقاريات المتوسطة، لا يمكنه أن يطير، ولا أن يسبح في الأعماق، ويأتي في مركز متأخر من حيث السرعة مقارنة بالنمور أو الخيول أو الغزلان، لكن انتهى به الأمر إلى تجاوز الفقاريات في أدائها من خلال إنشاء تقنيات تسمح له بالسرعة على الأرض، والتنقل في البحر وتحت سطح البحر، والطيران في الجو. الإنسان هو كائن

---

(١) تحتاج مجمل القوانين والمعارف والتقنيات والعلوم والقيم والأساطير – بما أنها غير فطرية – والتي تؤكد التعقيد الشديد للفرد والمجتمع الانساني، تحتاج إلى أن تُنْقَل وتُلَقَّن لكل فرد خلال تلقِّيه التعليم وذلك كي يتمكن من الاستمرار والمحافظة على هذا التعقيد الشديد الانتروبولو-اجتماعي.

حي خارق، لأن بلايين الخلايا التي يتكون منها، والتي تتجدد، هي جميعها مماثلة لخلايا الكائن الحي الأول، الذي أنتجه أحفاد زواج الأخت الصغرى من أرمل أختها، عن طريق التعاضد الخلوي، الخلايا حقيقية النواة في عالم النبات والحيوان. وهذه الخلايا التي هي ابنة وأخت الخلايا الأصلية، هي أيضاً أم الخلايا التي تنتجها بالتكاثر عن طريق الانقسام. أخيراً، الإنسان هو كائن حي خارق لأنه ارتقى بالعديد من إمكانات المنظومة الحية.

إن هويته البيولوجية أرضية بامتياز، إذ إن الحياة ظهرت على الأرض من خلائط كيميائية أرضية في المياه الدوامة وتحت السماء العاصفة. تحتوي هذه الهوية الفيزيائية والكيميائية الأرضية، المتأصلة في جميع التنظيمات الحية، في حد ذاتها على هوية متعددة كونية، لأن ذرات الكربون اللازمة للحياة الأرضية تشكلت في اتون هائج للشمس التي سبقت شمسنا، وإن مليارات المليارات من الجسيمات التي تدخل في تركيب أجسادنا قد ولدت قبل ١٥ مليار سنة في البدايات المشعة لكوننا.

بينما أدرجت أساطير الحضارات الأخرى العالم البشري في الطبيعة، كانت فصيلة الإنسان الغربي، حتى منتصف القرن العشرين، جاهلة تماماً وغافلة عن الهوية الأرضية والكونية التي تحملها داخلها. حتى اليوم ترفض الفلسفة والأنتروبولوجيا بشدة أي وعي أو أي اعتراف بهوية الإنسان الحيوانية والحيوية، وتلصق تهمة "الحيوية" غير المنطقية أو "الحيوية" المنحرفة لأي محاولة اعتراف بانتمائنا الأرضي والفيزيائي والبيولوجي.

خلق الإنسان، هذا الكائن الخارق مجالات جديدة للحياة: حياة الروح، حياة الأساطير، حياة الأفكار و حياة الوعي. ومن خلال إنتاج هذه

الأشكال الجديدة من الحياة، التي تعتمد على اللغة والمفاهيم والأفكار وتغذي العقل والوعي، أصبح تدريجياً غريباً عن عالم الأحياء والحيوان. من هنا أتى الوضع المزدوج للإنسان. من ناحية، هو نتاج الطبيعة البيولوجية والفيزيائية والكونية. من ناحية أخرى هو نتاج الثقافة، أي عالم الكلام والأسطورة والفكرة والعقل والوعي.

انطلاقاً من هويَّاته التي تجذِّره في الأرض وتخطّه في الكون، ينتج الإنسان هويَّاته الإنسانية الخالصة: عائلية، عرقية، ثقافية، دينية، اجتماعية ووطنية.

وحدة الاجناس البشرية (الأنثروبولوجية)

يتمتع الإنسان العاقل بهوية أساسية واحدة لجميع سلالاته مهما كان التنوع في جيناتهم وتربهم ومجتمعاتهم وطقوسهم وخرافاتهم وأفكارهم. فهو ينتمي إلى سلالة وراثية موحدة، سواء كان ينحدر أم لا من سلف واحد (الإنسان البدائي الأول)، ما يجعل التكاثر ممكناً بين جميع الرجال والنساء، أياً كان عرقهم. جرى توسيع هذه الوحدة الوراثية، التي يُسلَّط الضوء عليها اليوم، لتشمل الوحدة الشكلية والتشريحية والوظيفية؛ تتجلى وحدة الدماغ لدى الإنسان العاقل في التنظيم المتميز لدماغه مقارنة مع الرئيسات الأخرى؛ وهناك أخيراً وحدة نفسية وعاطفية: علماً أن الضحك والدموع والأبتسامات يتم تعديلها أو تثبيطها أو إظهارها وفقاً للثقافات، ولكن على الرغم من التنوع الشديد لهذه الثقافات ونماذج الشخصية التي تفرض نفسها من هذا المنطلق تظل ظاهرة الضحك والدموع والأبتسامات عالمية وتتأكد الصفة الفطرية لهذه الظاهرة الاجتماعية عند الأشخاص العميان والصم والبكم منذ الولادة، الذين يمارسون الأبتسامة والبكاء

والضحك فطريا دون تقليد أي شخص (فقدان الحواس لا يسمح لنا بافتراض التقليد)[1].

بدأت عملية الانتشار الكبير للإنسان العاقل قبل ألف وثلاثمئة قرن، في أفريقيا وأوراسيا، عبر مضيق بهرنغ الجاف قبل مائة ألف عام، ووصل إلى أستراليا ونيوغينيا قبل أربعين ألف سنة، وأخيراً سكن جزر بولينيزيا قبل بضعة آلاف من السنين من عصرنا هذا.

على الرغم من هذا الشتات، وعلى الرغم من الاختلاف الجسدي من حيث الحجم واللون وشكل العيون والانف، وعلى الرغم من الاختلاف بين الثقافات واللغات التي أصبحت غير مفهومة لبعضها بعضاً، من اختلاف الطقوس والعادات التي باتت غير مفهومة لبعضها بعضاً، وتعدد المعتقدات الفردية لتصبح غير قابلة لتقبل بعضها بعضاً، على الرغم من كل ذلك كانت هناك في كل مكان أسطورة، كانت كذلك العقلنة والاستراتيجية والاختراع ، كان هناك في كل مكان رقص وإيقاع وموسيقا، كان هناك بالتأكيد في كل مكان بصورة غير متماثلة أو ربما مقموعة وفقاً للثقافات: المتعة والحب، والحنان، والصداقة، والغضب، والكراهية، في كل مكان كان هناك دائماً وأبداً تكاثر لا يصدق، بغض النظر عن مظهره ونسبه المختلفة، لمزيج لا ينفصل من العقل والجنون.

---

(١) ل.إيبل. إيبفيلت الحب والكراهية، هولت. رينولد ووينستون، نيويورك، ١٩٧١، وبالمثل: "أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات في الحركات التعبيرية"، في التواصل غير اللفظي، هايند، مطبعة جامعة كامبريدج، كامبريدج، ١٩٧٢؛ و"عوالم السلوك وتكوينها" (١٩٧٤)، في وحدة الانسان، مرجع سابق. سبق ذكره.

تنتج جميع الأنواع الجنسية أفراداً مختلفين، ليس فقط نتيجة العدد غير المحدود تقريباً من التشكيلات الممكنة بين عنصرين من المورثات الجينية، ولكن أيضاً بسبب التنوع الشديد للظروف والتغذية، وأيضاً نتيجة المؤثرات والمخاطر في أثناء تكون الجنين، ومن ثم ما قد يتعرض له الطفل حديث الولادة. فكلما ازداد تعقيد الأنواع، ازداد التنوع الفردي. وفيما يتعلق بالإنسان العاقل، يزداد التنوع، يتضاعف، ويتكثف اعتمادا على المُجْرِيَات والحوادث في مرحلة الطفولة والمراهقة، بما ينسجم مع أو يعاكس التأثيرات الأسرية والثقافية والاجتماعية. منذ إرساء مؤسسة الزواج القديمة وحظر سِفَاح القربى، شجعت الثقافة وزادت من الاختلاط الجيني. ثم جاءت الحروب والغزوات لتزيد من هذا الاختلاط بعمليات الاغتصاب والخطف والاستعباد والدمج القسري للسكان؛ وأخيراً، فإن عملية الترحال والمعاشرة الجنسية والزواج سوف تؤمن للأفراد تنوعاً وراثياً ضمن المجموعة العرقية نفسها.

يطال التنويع الخصائص النفسية والثقافية. إذ تسود وفقاً للثقافات، نماذج مهيمنة من المواقف والسلوكات، من عدوانية وتسامح إلخ. بالإضافة إلى ذلك، يُشاهد في أي حضارة، ولاسيما في حضارتنا، أن كل فرد يحمل في داخله شخصيات مختلفة، وفقاً لحالته المزاجية ووفقاً للشخص الذي يقابله أو يواجهه أو يعاني منه (الطفل أو الوالد أو الزوجة أو العشيقة أو القائد أو المرؤوس أو الأثرياء أو المتسول، وما إلى ذلك)؛ يظهر في الشخص عينه شخصيتان متناقضتان عند الغضب أو الحب. يمتلك كل فرد مجموعة من الشخصيات المتعددة، التي تظل مختفية، ولكن يمكنها الظهور عند الحاجة. إلا أن هذه التعددية، هذا التنوع، هذا التعقيد تحديداً هو الذي يشكل وحدة كيان الإنسان أيضاً.

كل إنسان هو كون، وكل فرد هو مجموعة من الشخصيات الافتراضية، تفرز كل بنية نفسية مزيجاً من الأوهام والأحلام والأفكار. يعيش كل شخص، منذ الولادة حتى الموت، مأساة لا يمكن فهمها، تتخللها صرخات من المعاناة والتمتع والضحك والدموع واليأس والعظمة والبؤس. يحمل كل إنسان معه كنوزاً من الغنى والفقر والأخطاء والعثرات. كلٌّ يحمل معه قدرة الحب والإخلاص، قدرة الكراهية والاستياء الانتقام والمغفرة. ان إدراك ذلك هو إدراك الهوية البشرية. مبدأ الهوية الإنسانية هو الوحدة المتعددة (unitas multiplex)، سواء من الناحية البيولوجية أو الثقافية أو الفردية.

هذا ما يُنْشدُه الشعر لنا في كل مكان، وما يخبرنا به الأدب في كل مكان. يمكن للبشر التواصل، مهما كانت درجة التباعد بينهم في اللغة، وفي الزمن، وفي الثقافة، مع الآخر الغريب عنهم في أدبه وشعره وموسيقاه والسينما الخاصة به، نستطيع كبشر تّعرف هذا النسيج المشترك، المعبَّر عنه بأشكال مختلفة، والتي نحن نتاجها، وذلك عبر الهارب الألباني، راعي سردينيا، الساموراي، الإمبراطور الصيني، عبد روما، بائِسي باريس، مذنب بطرسبورغ، الأبرياء...

ولّدَتْ الاختلافات الناتجة عن تنوع اللغات، الأساطير، الثقافات العرقية رفضاً من كل الأطراف للهويَّة الأنثروبولوجية والبيولوجية المشتركة. يظهر الغريب للقدماء كإله أو شيطان. ففي الأزمنة القديمة كان يتم قتل العدو أو تحويله إلى عبد، ليصبح آلةً حيَّة. خُلقَتْ الأسوار التي تحمي كل ثقافة منغلقة على نفسها إبان فترة الانتشار البشري الكبير، وتركت آثاراً ضارة على عصرنا الكوكبي: فمعظم أجزاء البشرية، التي

تتواصل اليوم ونتيجة لهذا التواصل، أصبحت كارهة وعدائية لبعضها بعضاً، والاختلافات التي جرى تجاهلها حتى الآن اتخذت شكلاً غرائبياً أو جنونياً أو مُنْعَدِم الرَّحمة إنها مصادر لانعدام التفاهم والصراعات. إذ ترى المجتمعات نفسها كأنواع متنافسة ويقتل بعضها بعضاً.

تُبيد الديانات التوحيدية آلهة الشرك، ويحارب كل إله سيادي منافسه بإرسال أتباعه إلى الموت والقتل. بنت الأمم والعقائد حواجز جديدة، وأثارت كراهيات جديدة. توقف المتطرفون الإسلاميون، الرأسماليّون، الشيوعيّون، الفاشيّون عن كونهم بشراً، ومن هنا كانت الحاجة الماسة إلى إظهار وتوضيح تنوع الأنواع والهوية الإنسانية والتماثل الأنتروبولوجي ووحدتها من خلال تنوعها نفسه.

لايزال ممكناً إيجاد وتحقيق وحدة الإنسان، التي فقدها الإنسان العاقل بسبب وفي أثناء رحلة الانتشار الكبيرة عبر القارات والجزر، هذه الوحدة التي تم إنكارها أكثر من الاعتراف بها في العصر الكوكبي. يجب أن نجدها، ليس من خلال تجانس من شانه أن يدمر الثقافات، لكن على العكس من ذلك، من خلال الاعتراف والتقبل الكامل للتنوع الثقافي وتأمين الازدهار الكامل لهذا التنوع، الأمر الذي لن يمنع عمليات التوحيد والتنويع من العمل على مستويات أوسع.

وتالياً فإن تشكيل الأمة يضمُّ الجماعات العرقية المحلية بتنوعها، مع التخفيف من هذا التنوع لكن دون القضاء عليه ما يضمن زيادة المشاركة في بناء وحدة وطنية أكبر ستكون هي أيضاً مصدر تنوعات جديدة بين الثقافات الوطنية. وبالمثل، ينبغي ألا تؤدي المرحلة ما فوق الوطنية قطعاً إلى

ضياع التفرُّدات الوطنية، ولكن يجب أن تنزع عن الدولة مفهوم السيادة المطلقة، وتؤيد التهجين العرقي والثقافي، ولا سيما في العواصم الكبيرة، التي تمثل مصفوفة وحدة جديدة وتنوّعات جديدة.

إن إعادة اكتشاف وتحقيق وحدة الإنسان يعني أولاً جعل مفهوم الهوية المشتركة شيئاً ملموساً للجميع. هذا ما يحدث بشكل ومضات من التعاطف عندما نرى عبر شاشات التلفزة أطفال المجاعة الصوماليين، والنساء والأطفال تحت القذائف في سراييفو. من الواضح أن هذا يمكن ان يحدث نتيجة تطور متلازم لعاطفة الشفقة ووجدانية الروح و(العالمية الحقيقية) واحترام الاختلافات التي ستقودنا إلى التغلب على العمى الناجم عن الأنانية العرقية أوالأيديولوجية الذي يجعلنا نرى الآخر على أنه الغريب، وما يجعلنا نرى، في أي شخص يشكل تهديداً حقيقياً أوكاذباً لنا، أنه مخلوق كريه وخنزير. إنما كما سنقول لاحقاً فإن الإصلاح الفكري الأخلاقي هوالذي سيسمح لكل شخص وللجميع بتعرف الهوية الإنسانية الموجودة لدى الفرد والمجموع.

إن هوية الإنسان، أي وحدة وتعدد تنوعه المعقد، قد جرى إخفاؤها وخيانتها، في قلب العصر الكوكبي نفسه بسبب التطور التخصصي والتقسيمي للعلوم. قُسّمت الخصائص البيولوجية للإنسان في أقسام علم الأحياء والتعليم الطبي؛ كما جرى تجزئة الخصائص النفسية والثقافية والاجتماعية وتوزيعها على مختلف أقسام العلوم الإنسانية، بحيث بات علم الاجتماع عاجزاً عن رؤية الفرد، وعجز علم النفس عن رؤية المجتمع، وشكّل علم التاريخ مجموعته الخاصة به مبتعداً، وانتزع علم الاقتصاد من الإنسان العاقل المعتوه ما تبقَّى من رؤية الإنسان الاقتصادي (Homo

economicus)[1]. علاوة على ذلك، جرت شرذمة مفهوم الإنسان إلى شظايا مفككة، واعتقدت النظم البنيوية المنتصرة أنها قضت نهائياً على هذه الأوهام التافهة. عجزت الفلسفة، المنغلقة على مفاهيمها المجردة المتعالية، عن التواصل مع ما هو بشريّ إلا في حالات التجارب والضغوط الوجودية مثل باسكال و كيرغراد و هايدغير، دون تمكنها نهائياً من ربط التجربة الذاتية[2] بالمعرفة الأنثروبولوجية.

ليس من قبيل المصادفة عدم وجود معرفة أنثروبولوجية متكاملة. لقد منعت الطرائق التربوية التجزيئية والتعليم الجامعي المتحجر إعادة ربط أجزاء المعرفة الأنثروبولوجية، لاسيما أن البيانات التي تسمح بتوضيحها لم يتم تحديثها بعد. ظهرت إبان السنوات ١٩٥٥-١٩٦٠ في آن معاً تقريباً أولى نظريات المنظومات الذاتية[3]، التعقيد[4]، النهج الأولى للجدلية العالمية

---

(١) يقول موران في محاضرته الأولى **(**بربرية أوروبية**):** "إن فكرة الانسان المفكِّر، والانسان الصانع، والانسان الاقتصادي أو المنتج ظلَّت ناقصة، فالانسان المفكَّر ذو الذهن العقلاني يمكن ان يكون في الوقت نفسه قادراً على الهذيان والحمق. والانسان الصانع من جهته الذي يتقن صنع واستعمال الأدوات التقنية، كان قادراً أيضاً منذ بدايات الانسانية على أساطير لا تحصى". هنا يرى موران الانسان الاقتصادي الذي يعرَّف انطلاقاً من مصلحته الخاصة بصفة "انسان الاستهلاك"، أي إنسان اللعب والإنفاق والتبذير . – المترجمة

(٢) الذاتية **(**اللا موضوعية**)** La Subjectivité**:** مذهب فلسفي يُرجع كل حكم وجودياً كان أم تقديرياً، إلى أحوال أو أفعال شعورية أو فردية. **(**المترجمة**)**

(٣) اتش. فون فورستر، ج.و.زوف **(**ي.د.س**)** مبادئ التنظيم الذاتي، برغامون، نيويورك، ١٩٦٢.

(٤) جون فون نيومان، نظرية أوتوماتا ذاتية التكاثر، مطبعة جامعة إلينوي، أوربانا، ١٩٦٦، ج. برونوفسكي، مفاهيم جديدة في تطور التعقيد، الرابطة الأمريكية للتقدم العلمي، بوسطن، ١٩٦٩.

بين النظام والفوضى والمنظومات. لذلك انطلاقاً من أفكار المنظومات الحيوية الذاتية ودخول مفهوم الفوضى في التنظيم الدماغي / العقلي، وكذلك بفضل التقدم في علم الأعصاب، يمكننا أن ننظر بإعجاب إلى الجهاز الرائع ذو مئة المليار خلية عصبية ومليارات المليارات من تقاطع نقاط تشابك السيالة العصبية، هذا الجهاز هو دماغ الإنسان العاقل المعتوه. وأصبح من الممكن أخيراً، ابتداءً من عام ١٩٧٠، وضع أسس الأنثروبولوجيا الأساسية[١].

الأنثروبولوجيا: علم متعدد الأبعاد (يعبر فيه عن علم الحياة، علم الاجتماع، والعلم الاقتصادي، والتاريخي، وعلم النفس) يكشف الوحدة / تعدد التنوع المعقد للإنسان، لا يمكن بناؤه فعلياً على نحو مترابط إلا بربط التخصصات المذكورة ببعضها، وهي لا تزال منفصلة ومقسمة، وهذا التوحيد يتطلب الانتقال من طريقة التفكير الاختزالية المشوهة والمنعزلة والمفهرسة والتجريدية إلى طريقة التفكير المعقدة (انظر الفصل ٧).

(١) إ.موران، الأنموذج المفقود، مرجع سابق، سبق ذكره.

الوعي الأرضي

كانت الثورة التي حدثت في القرن الخامس عشر في الغرب فيما يتعلق بمفاهيم العالم والأرض، والإنسان، أشبه بأزمة "وزارية" صغيرة تحدث ضمن مسير حكومة ما بالمقارنة بالاضطرابات الهائلة الناجمة عن الانجازات العلمية في نهاية القرن العشرين.

وجب علينا التخلي عن كون منظم، مثالي، أبدي مقابل كون مشتتٍ، ولد من الإشعاع، حيث تلعب ثنائية المنطق دور النظام، الفوضى والتنظيم، وذلك بطريقة متكاملة، متنافسة ومتعاكسة في الوقت نفسه. كان علينا أن نتخلى عن فكرة وجود مادة حية معينة، تُنفخ فيها الحياة، لنكتشف تعقيد منظومة حية ناشئة عن عمليات فيزيوكيميائية أرضية. كان علينا أن نتخلى عن فكرة وجود رجل خارق للطبيعة ينتمي إلى مخلوق مفارِق، لنتقبل فكرة خروجه من الطبيعة بعملية تطورية دون أن ينفصل عن هذه الطبيعة.

لأننا تمحصنا في السماء جيداً تمكنا من ضرب جذور لنا في الأرض. ولأننا تمحصنا في الأرض جيداً تمكنا من إنشاء جذور للحياة هناك. ولأننا تمحصنا في الحياة على نحو جيد أمكن أن تصل جذورنا هناك.

الأرض ليست مجرد مجموع حسابي بسيط: كوكب مادي + محيط حيوي + بشر. الأرض هي مجموع فيزيائي / بيولوجي / أنثروبولوجي معقد، حيث تكون الحياة هي ظهور تاريخ الأرض، ويكون الإنسان هو ظهور تاريخ الحياة الأرضية. الحياة هي قوة تنظيمية فيزيائية - حيوية تعمل في الجو الذي خلقته، على الأرض، وتحت الأرض، في البحار، حيث انتشرت وتطورت.

الإنسانية هي كيان كوكبي وجزء لا يتجزأ من المحيط الحيوي.

نحن على بعد ملايين السنين الضوئية من الفكرة القائلة بمركزية الإنسان في الكون، وفي الوقت نفسه، لم يعد بإمكاننا عدُّ أنفسنا كيانات منفصلة، كتيمة لا يتأثر بعضها بالآخر: الإنسان، الطبيعة، الحياة، الكون.

تبرز نهاية القرن الخامس من العصر الكوكبي حقائق مصيرنا المجهولة:

- نحن ضائعون في الكون.
- الحياة منعزلة في النظام الشمسي، وربما في المجرة.
- الأرض والحياة والإنسان والوعي هم ثمار مغامرة فردية، نجم عنهم تغيرات وتحولات مذهلة.
- الإنسان هو جزء من وحدة الحياة، على الرغم من أن الوعي الإنساني وحيد.
- ينبغي أن تُوضع وحدة مصير الإنسانية، الذي يميز حقبة الكواكب، ضمن وحدة المصير الأرضي.

تقودنا هذه المعرفة الجديدة، التي تلقي الضوء على مصيرنا الأرضي، إلى جهل جديد. سيتم القضاء على جزء من جهلنا، لكن جزءاً آخراً، والذي يصل إلى حدود الروح الإنسانية[1]، سيبقى إلى الأبد. وبالمثل، يقودنا اليقين الجديد إلى مزيد من الشكوك. نعلم الآن من أين أتينا، لكننا لا نعرف من أين أتى من أتينا منه، وهذا يعني أننا غير متأكدين من أصل العالم وأصل الحياة. لا ندري لماذا يوجد عالم ويوجد العدم، ولا نعرف إلى أين يذهب هذا العالم.

---

(١) انظر إ.موران، الطريقة، الجزء٣، معرفة المعرفة، باريس، دار نشر سوي، المقالات البوان ١٩٩٢، ص ٢٢٢-٢٢٣.

نحن في عالم ليس عادياً ولا طبيعياً ولا بديهياً.

الأرض هي سلة قمامة صغيرة أصبحت بطريقة احتمالية استثنائية ليس فقط كوكباً معقداً للغاية، ولكن أيضاً حديقة، حديقتنا. إن الحياة التي أنتجتها والتي تتمتع بها والتي نستمتع بها لا تنشأ عن حاجة مسبقة. ربما تكون وحيدة من نوعها في الكون، وهي وحيدة في النظام الشمسي، فهي هشة ونادرة وثمينة لانها نادرة وهشة.

لقد تعلمنا أن كل ما هو موجود لا يمكن أن يولد إلا من حالة الفوضى والاضطرابات، ويجب أن يقاوم قوى دمار هائلة. لقد نظِّم الكون عن طريق التفكك. الشمس تشع عند درجة حرارة الانفجار. يتم تنظيم الحياة في درجة حرارة تدميرها. ربما لم يكن الإنسان قد تطور، لم يكن عليه ان يواجه هذا القدر من التحديات المميتة، منذ تقدم السافانا على الغابات المدارية إلى التجلد في المناطق المعتدلة. لقد تمت مغامرة الأنسنة عبر الفقد والألم. سلف الإنسان هو ابن بورس وبينيا[1]. كل شيء يعيش يجب تجدده

---

(١) حسب أفلاطون: Poros الإله الوسيم، يرمز إلى الجمال والغنى والاكتفاء،Penia المتسولة هي رمز العوز والفاقة والاحتياج الدائم والحرمان الكلي والمطلق، حيث استغلت بينيا حالة سُكر الإله بورس لتقيم معه علاقة كانت ثمرتها الإله إيروسEros وهنا تأتي مأساة إيروس فيما يتعلق بالانتماء المتناقض :إنه كائن بين الآلهة التي لا ينقصها شيء وعنده حرمان كلي مطلق. إنه يكتشف جهله فيتفلسف (يبحث عن الحقيقة) ويعرف احتياجاته فيرغب والرغبة هي وعي بموضوع جميل، إنه إحساس بالنقص "وكل إحساس بالنقص هو ألم" كما قال بوذا. فإذاً فلا هو بإله مكتفٍ وعارفٍ ولا هو بجاهل مُعدم بشكل كامل، أي أنه يعيش حياة كدحٍ أبديٍ وألم لا ينتهي إلا بالنهاية الحتمية وهي الموت المحقق.(الموسوعة الفلسفية) بتصرف - المترجمة.

باستمرار: الشمس، الكائن الحي، المحيط الحيوي، المجتمع، الثقافة، الحب. غالباً ما يكون ذلك محنتنا، وهو أيضاً نعمة وامتياز لنا. كل ما هو ثمين على الأرض هش ونادر. هذا هو الحال أيضاً مع وعينا.

ها نحن إذاً، بشر صغار جداً، على طبقة صغيرة جداً من الحياة تحيط بالكوكب الصغير جداً الضائع في الكون العملاق (الذي ربما يكون هو نفسه صغيراً جداً في كون متعدد منتشر[1]). إنما، في الوقت نفسه، هذا الكوكب هو عالم، والحياة هي عالم يعج بمليارات مليارات من الأفراد، وكل كائن بشري هو عالم من الأحلام والطموحات والرغبات.

أصبحت اليوم شجرة أنسابنا الأرضية، وكذلك هويتنا الأرضية، معروفة في مفهوم نهاية القرن الخامس عشر. والآن بالتحديد، في الوقت الذي تتواصل فيه المجتمعات المنتشرة في جميع أنحاء العالم، في الوقت الذي يجري فيه تقرير مصير الإنسانية جماعياً، يصبح لهما معنى لكي نتعرف على وطننا الأرضي.

(١) حول فكرة تعدد العوالم، انظر إ. موران، المنهج الجزء ١، طبيعة الطبيعة، باريس دار نشر سوي، منطلقات المقالات ١٩٨١.

-٣-

الاحتضار الكوكبي

إبان القرن العشرين، أصبح الاقتصاد والتوزع السكاني والتنمية والبيئة مشكلات تهم جميع الأمم والحضارات، أي الكوكب بمجمله. يتم تسليط الضوء على بعضها اليوم. دعنا نتعرفها بسرعة، قبل الانتقال إلى غيرها، التي قد تكون أقل بداهة، ولذا سنطلق عليها "مشكلاتات ثانوية"، حيث يمثل تشابكها مشكلة المشكلات.

يمكن اعتبار السوق العالمية نظاماً ذاتي التنظيم ينتج لوائحه الخاصة به على الرغم من الاضطرابات الواضحة والحتمية التي يسببها. لذلك يمكننا أن نفترض أن وجود بعض هيئات الرقابة الدولية، يمكنها أن تهدئ من جموحه، وتقلل من انهياراته، وعاجلاً أم آجلاً تخفف من أزماته وتمتصها.

ولكن كل نظام ذاتي التنظيم هو في الواقع نظام حيوي ذاتي، وهذا يعني أنه مستقل / مرتبط فيما يتعلق بنظامه الحيوي. لا يمكن اعتبار الاقتصاد كياناً مُصمتاً. إنه هيئة مستقلة تعتمد على هيئات أخرى (اجتماعية، ثقافية، سياسية) هي أيضاً مستقلة / مرتبطة مع بعضها بعضاً. وبالتالي، يفترض اقتصاد السوق وجود مجموعة متماسكة من المؤسسات ولكننا نفتقر إلى هذه المجموعة المتماسكة على نطاق الكوكب.

يفتقر علم الاقتصاد إلى العلاقة مع ما هو غير اقتصادي. هذا هو العلم الذي أصبحت فيه الرياضيات والمعادلات أكثر دقة وسفسطة (مغالطة-المترجمة). لكن تشتمل هذه المزايا على عيب التجريد ما يؤدي لإخراجه عن السياق (الاجتماعي والثقافي والسياسي)؛ إنه يكتسب دقة معادلاته من خلال نسيان تعقيد وضعه الحقيقي، أي أن الاقتصاد يتناسى أنه مرتبط بما هو متعلق به. وأيضاً تصبح المعرفة الاقتصادية التي تنغلق ضمن مفهوم الاقتصاد غير قادرة على التنبؤ بالاضطرابات والتطورات، وتصبح عمياء عن الاقتصاد نفسه.

يبدو أن الاقتصاد العالمي متأرجح بين الأزمة واللا أزمة، والخلل وإعادة التنظيم. إنه يعتمد ضوابط جزئية للترميم، الأمر الذي يؤدي إلى الانهيار (الفوائض، على سبيل المثال، لدعم القيمة النقدية للمنتجات) وإلى أضرار بشرية وثقافية وأخلاقية واجتماعية على التسلسل (البطالة، زيادة في زراعة النباتات المخدرة). لم يكن النمو الاقتصادي منذ القرن التاسع عشر قوة دافعة فحسب، بل ومنظمة للاقتصاد من خلال زيادة الطلب والعرض بآن واحد. لكنه دمر في الوقت نفسه الحضارات الريفية والثقافات التقليدية على نحو لا يمكن إصلاحه. أدخل تحسينات كبيرة في مستوى المعيشة، وتسبب في الوقت نفسه باضطرابات في نمط الحياة.

نحن نرى على أية حال، ظهور و تموضع لمجموعة أشياء في السوق العالمية:

- الاضطراب في أسعار المواد الخام مع عواقبه الكارثية، هي مترابطة مع بعضها بشكل تسلسلي. - السمة المصطنعة وغير المستقرة للوائح

النقدية (تدخلات البنوك المركزية لتنظيم سعر الصرف، ومنع انهيار الدولار، في سبيل المثال).

- عدم القدرة على إيجاد لوائح اقتصادية للمشكلات النقدية (الديون الخارجية، بما في ذلك الديون الضخمة للدول النامية والتي تبلغ ١٠٠ مليار دولار) والأطر النقدية للمشكلات الاقتصادية (ترك أو ترميم سعر الخبز، الكسكس، وما إلى ذلك)، والتي باتت في الوقت نفسه مشكلات اجتماعية وسياسية.
- حالة التفسخ الأشبه بالغرغرينا نتيجة المافيات التي تُعمم في جميع القارات.
- حالة ضعف مواجهة الاضطرابات غير الاقتصادية بالضرورة (إغلاق الحدود والحصار والحروب).
- المنافسة في السوق العالمية، ما يدفع الاقتصادات المحلية أو الوطنية إلى التخصص، ما يؤدي أكثر فأكثر إلى ظهور تضامنٍ ضروري بين الواحد والكل، الذي في الوقت نفسه، في حال حدوث أزمات أو اضطرابات اجتماعية وسياسية يؤدي إلى تدمير هذه العلاقات التضامنية، سيكون قاتلاً للأفراد وللمجموع.

بالإضافة إلى ذلك، فإن النمو الاقتصادي يتسبب في اختلالات جديدة. طبيعتها الأُسية لا تخلق فقط عملية متعددة الأوجه من تدهور المحيط الحيوي، ولكن أيضاً عملية متعددة الأوجه من تدهور المحيط النفسي، وهذا يعني من حياتنا العقلية والعاطفية والأخلاقية، وهذا كله له عواقب مترابطة تسلسليا وحلقات متداخلة ببعضها.

الآثار الحضارية التي تُسببها سلعنة كل شيء، والتي وصفها كارل ماركس بشكل صحيح، إذ أن بعد الماء، البحر والشمس، وأعضاء جسم الإنسان، والدم، والحيوانات المنوية، والبويضة، والانسجة الجنينية الذين باتوا سلعاً، فإن تلاشي مفهوم الهدية، والعطاء المجاني، والتبرع، والخدمة المقدمة دون مقابل، والاختفاء شبه الكلي لكل ما هو غير نقدي، يؤدي إلى تآكل القيم ما عدا إغراء الربح، الفائدة المالية، التعطش للثروة...

أخيراً، تحركت آلة جهنمية كما تقول رينيه باسيت: "إن المنافسة الدولية المحمومة تفرض البحث بأي ثمن عن فائض الإنتاج الذي، بدلاً من توزيعه على المستهلكين والعمال والمستثمرين، يكرس أساساً لضغط التكاليف بهدف الحصول على فوائض إنتاج جديدة، وهكذا دواليك[1]. في هذه المنافسة يتم توظيف التطور التكنولوجي بسرعة من أجل الإنتاجية والربحية، ما يؤدي إلى خلق وزيادة البطالة، وتعطيل إيقاعات الإنسان".

من المسلم به أن المنافسة تظل هي المُحفِّز الكبير والمنظم للاقتصاد، ويمكن مكافحة خللها، كما هو الحال عند تشكيل الاحتكارات، من خلال قوانين مكافحة الاحتكار؛ ولكن الجديد في الأمر هو أن المنافسة الدولية تغذي الان تسارعاً في التضحية بمصالح المستهلكين وإمكانيات الإصلاح، والتي، إذا لم يكن هناك تباطؤ، تقودنا إلى... انفجار؟ تفسخ؟ تحلل؟ طفرة؟

خلل التعداد السكاني العالمي

كان هناك مليار شخص في عام ١٨٠٠، وهناك ٦ مليارات اليوم. نتوقع ١٠ مليارات لعام ٢٠٥٠.

---

(١) الأصداء، مايو ١٩٩٢.

يؤدي التقدم في النظافة والطب في البلدان الفقيرة إلى خفض معدل وفيات الرضع هناك دون خفض معدلات المواليد. في حين يقلل الرفاه والتحولات الحضارية المرتبطة به من معدل المواليد في الدول الغنية. يهيمن نمو العالم الفقير، المكتظ بالسكان أكثر من العالم الغني، على انخفاض معدل النمو السكاني فيها. إلى متى؟ تعلن التنبؤات الكارثية عن تدني إمكانات الكفاف، وانتشار المجاعات، وتصاعد هجرة البائسين إلى الغرب. إنما هناك عوامل ابطاء، مثل السياسات المناهضة للتوالد (الهند والصين)، والميل إلى خفض عدد الأطفال مع زيادة الرفاه وتطوير المفاهيم.

وتالياً، يجب عدم عزل العملية الديموغرافية، لكن وضعها في سياق التطورات (المستقبل) الاجتماعية والثقافية والسياسية.

لا يزال النمو السكاني يتطور على نحو غير متوقع. حتى الآن، كانت التغييرات الرئيسة، في أوروبا في ارتفاع النمو السكاني وتراجعه غير متوقعة. وهكذا، بدأت زيادة نمو سكاني غير متوقعة عام ١٩٤٠، وتطورت في فترة ما بعد الحرب، ثم بدأ الانخفاض الشديد في برلين في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، وانتشر في جميع أنحاء أوروبا تقريباً. ولذا فليس من المؤكد أن يستمر النمو العالمي الحالي بنفس التسارع الأُسي.

الأزمة البيئية

ظهر الجانب فوق - الأممي والكوكبي للخطر البيئي مع إعلان إرليخ لوفاة المحيط عام ١٩٦٩ وتقرير ميدوز الذي أوصى به نادي روما عام ١٩٧٢.

كانت هناك فترة من ازدياد التدهور البيئي المحلي بعد النبوءات الأبوكاليبتية (نهاية العالم-المترجمة) ١٩٦٩-١٩٧٢، الحقول والغابات والبحيرات والانهار والتجمعات الحضرية ملوثة. ابتداء من الثمانينيات فقط، نشأت:

١) كوارث محلية كبيرة ذات عواقب بعيدة المدى: سيفوزو، بوبال، جزيرة ثري مايل، تشيرنوبيل، جفاف بحر آرال، تلوث بحيرة بايكال، مدن على مشارف الاختناق (المكسيك، أثينا). أدركنا أن التهديد البيئي يتجاهل الحدود الوطنية: فتلوث نهر الراين يشمل سويسرا وفرنسا وألمانيا وهولندا وبحر الشمال. غزت كارثة تشرنوبيل النووية القارة الأوروبية وتجاوزتها.

٢) مشكلات أكثر عمومية: تلوث المياه في البلدان الصناعية، بما في ذلك المياه الجوفية، تسمم التربة من المبيدات الحشرية والأسمدة الزائدة؛ التمدن (نمو المدن) الهائل لمناطق هشة بيئياً (مثل المناطق الساحلية)، المطر الحامضي، تخزين النفايات الضارة. في البلدان غير الصناعية، التصحر وقتل الغابات وتآكل وملوحة التربة، والفيضانات، والتمدن الشرس للمدن الضخمة المسممة بثاني أكسيد الكبريت (الذي يسهم في حدوث الربو)، وأول أكسيد الكربون (المسبب لاضطرابات دماغية وقلبية)، ثاني أكسيد النيتروجين (مثبط للمناعة).

٣) المشكلات العالمية المتعلقة بكوكب الأرض ككل: انبعاثات ثاني أكسيد الكربون تزيد من الاحتباس الحراري، وتسمم الكائنات

الحية الدقيقة التي تفكك النفايات، تلف دورات الحياة الهامة؛ قضم طبقة الأوزون في الستراتوسفير، ثقب الأوزون في أنتاركتيكا، الأوزون الزائد في التروبوسفير (الجزء الأدنى من الغلاف الجوي).

ومنذ ذلك الحين، أصبح الوعي البيئي هو إدراك المشكلات العالمية والخطر العالمي الذي يهدد الكوكب. كما يقول جان ماري بيلت: "الإنسان يدمر، واحداً تلو الآخر، الأنظمة الدفاعية للكائنات الكوكبية".

كانت ردود الفعل على الأخطار البيئية في المقام الأول محلية وتقنية. ثم تعددت الأحزاب والجمعيات البيئية وتم إنشاء وزارات بيئية في سبعين دولة؛ أدى مؤتمر ستوكهولم عام ١٩٧٢ إلى إنشاء وكالات بيئية دولية (UNEP)؛ تم وضع برامج دولية للبحث والعمل (برنامج الأمم المتحدة للبيئة، وبرنامج اليونسكو: الإنسان والمحيط الحيوي). وأخيراً، جمع مؤتمر ريو مئة وخمساً وسبعين دولة عام ١٩٩٢، والهدف من ذلك هو التوفيق بين احتياجات الحماية البيئية واحتياجات التنمية الاقتصادية في العالم الثالث. تتضمن فكرة "التنمية المدعومة" خلق حوار ما بين الحاجة للتنمية، والتي تنطوي على زيادة التلوث، مع فكرة احترام البيئة، التي تتطلب الحد من التلوث: التنمية ⟷ البيئة

لا تزال فكرة التنمية متخلفة بشكل مأساوي (سنرى ذلك لاحقاً)؛ لم يتم إعادة التفكير فيها فعلاً، حتى مع فكرة "التنمية المدعومة".

اعتمد مؤتمر ريو تصريحاً عن الغابات واتفاقية بشان المناخ وحماية التنوع البيولوجي؛ وضع خطة عمل ٢١ (القرن الحادي والعشرين)، تهدف إلى جعل الأمم المتحدة تعمل معاً لحماية المحيط الحيوي.

هذه مجرد بداية، إن التدهور المستمر للمحيط الحيوي والتصحر والإعتداء على الغابات المدارية يتسارع، والتنوع البيولوجي آخذ في التناقص. لا يزال التدهور يسير بشكل أسرع من إعادة التأهيل.

يتناحر نوعان من التنبؤ البيئي على مدى السنوات الثلاثين القادمة:

يرى "المتشائمون" استمراراً لا رجعة فيه للتدهور المعمم في المحيط الحيوي، مع تغير المناخ، وارتفاع درجات الحرارة والتبخر، وارتفاع منسوب مياه البحر (٣٠ إلى ١٤٠ سنتيمتراً)، و تمدد مناطق الجفاف، كل هذا مع كتلة سكانية محتملة من ١٠ مليارات نسمة.

يعتقد "المتفائلون "أن المحيط الحيوي لديه القدرة على التجديد الذاتي والدفاع المناعي الذي سيسمح له بإنقاذ نفسه، وأن الديموغرافيا ستستقر عند ٨.٥ مليارات نسمة.

في أي حال، يتوجب أخذ الحيطة، وفي أية حال نحن بحاجة إلى فكر بيئوي يقوم على مفهوم المنظومة الحيوية الذاتية، ويأخذ في الحسبان الصلة الوثيقة لأي نظام حي، بشري أواجتماعي ببيئته.

أزمة التنمية

كانت فكرة التنمية هي الفكرة الأساس لسنوات ما بعد الحرب. كان هناك ما يسمى بالعالم المتقدم ينقسم إلى معسكرين أحدهما "رأسمالي" والآخر "اشتراكي". كان كلّ منهما يحمل أنموذجه الخاص بالتنمية إلى العالم الثالث. اليوم، بعد الإخفاقات المتعددة في تطوير النموذج "الرأسمالي" الغربي، أدت أزمة الشيوعية في الأجهزة إلى إفلاس الأنموذج "الاشتراكي"

للتنمية. أكثر من ذلك، هناك أزمة تنمية عالمية. تقف مشكلة التنمية وجهاً لوجه مع المشكلات الحضارية / الثقافية / البيئية. إن معنى كلمة "تنمية"، كما عُرفت ، تحمل في ذاتها معنى التخلف وتسببه. يجب من الآن فصاعداً أن يكون هذا الأمرإشكالياً. إنما لتنفيذ هذه الإشكالية نحتاج أولاً إلى النظر في مشكلات النوع الثاني.

المشكلات الثانوية:

العملية المزدوجة، المتناقضة والمتصلة، للتضامن وبلقنة الكوكب:

شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر تأكيداً على نشوء أول دول قومية أوروبية، وشهد القرن التاسع عشر انتشار الدولة القومية في قارتنا وفي أمريكا الجنوبية. عمم القرن العشرون في أوروبا صيغة الدولة القومية (مع انهيار الإمبراطوريات العثمانية والنمساوية الهنغارية ثم السوفيتية) وفي العالم (مع اختفاء الإمبراطوريات الاستعمارية الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية). لدى الأمم المتحدة الآن ما يقرب من مئتي دولة ذات سيادة.

جمعت الدول القومية الأولى (فرنسا، انجلترا، إسبانيا) ودمجت مجموعات عرقية مختلفة في مفهوم أوسع من الحضارة، حيث تم تشكيل الوحدة الوطنية ببطء. لم يكن للدول متعددة الأعراق التي تشكلت في القرن العشرين الوقت التاريخي اللازم للاندماج الوطني، لهذا السبب تتفكك حالما ينهار الإكراه الذي حافظ على وحدتها، كما حدث في يوغوسلافيا. شُكّل العديد من الدول القومية انطلاقاً من المطالبة بسيادة الجماعات العرقية التي تحررت من إمبراطورية معينة، ومن بين هذه المجموعات المختلطة عرقياً والمتشابكة، يوجد ضمنها الكثير من الأقليات. ما جعله مصدراً لا ينتهي للنزاعات والسخط الوطني، المتفجرة في بعض الأحيان، والمسيطر عليها في أحيان أخرى تحت ضغط القوى العظمى.

يظهر بوضوح في هذا القرن، وبشكل متزايد، طموح لا يقاوم لتشكيل أمة تمتلك دولة فوق الأرض التي وُجد عليها العرق المعني سابقاً. غالباً ما

يجري التعبير عن هذا الطموح باتجاه يعاكس الواقع، أوالمصالح الاقتصادية، ما يدل على أن الحاجة إلى الاعتراف بالجنسية لها أسباب مختلفة (الحاجة إلى الحكم الذاتي وتأكيد الذات، والحاجة إلى الأصول، والجذور، والتجمعات).

من اللافت للنظر، أنه، من الان فصاعداً، وبشكل عام، تبلور التأصل العرقي والديني أو إعادة البحث عن الجذور في الدولة القومية. لتصور ذلك، يجب أن يكون مفهوما أن الدولة القومية تحمل في ذاتها أبعاداً أسطورية / عاطفية جياشة. الوطن الأم هو مصطلح ذكوري / أنثوي تتوحد فيه الأمومة والأبوة. يمنح المكون الأمومي الوطني للوطن- الأم، الأرض- الأم بعداً أمومياً، التي يتوجه إليها الحب على نحو طبيعي، ويعطي بعداً أبوياً لسلطة الدولة التي يجب أن ندين لها بالطاعة غير المشروطة. يشكل الانتماء إلى الوطن مجتمع من الاشقاء " أبناء الوطن الأم". يمكن لهذه الأخوة الأسطورية أن تجمع ملايين الأفراد الذين ليس لديهم روابط دم. وهكذا تُنعش الأمة في بعدها الحديث دفء الروابط الأسرية العشائرية أو القبلية، روابط فُقدت بسبب الحضارة الحديثة نفسها التي تميل إلى إفناء (atomiser) الأفراد. تُعيد الدولة لدى مواطنيها البالغين العلاقة الطفولية ضمن الأسرة الراعية، و تمثل في الوقت نفسه القوة والأسلحة والسلطة والدفاع. وتالياً، فإن الأفراد التائهين بسبب أزمات الحاضر وأزمة المستقبل يجدون في الدولة القومية الملاذ الآمن والتجمع الذي يحتاجون إليه.

ومن المفارقات أن العصر الكوكبي نفسه هو من سمح وشجع حالة التفتت المعممة لتشكيل دول قومية: في الواقع، يتم تحفيز الحاجة إلى بناء أمة من خلال حركة البحث في هوية الأجداد، والتي تحدث كرد فعل ضد التيار

الكوكبي الذي يدفع باتجاه المجانسة الحضارية، وتزيد أزمة المستقبل المعممة من هذه الحاجة. تجعل الدولة القومية من الممكن تنظيم الحاضر ومواجهة المستقبل في الوقت نفسه التوجه إلى الماضي للبحث عن الجذور العائلية والأسطورية وعن طريق هذه الدولة ستمنح التكنولوجيا وجهاز الدولة والجيش للمجتمع القوة والعظمة. وهكذا، فإن الدولة القومية هي عبارة عن احتياج قديم تحركه العصور الحديثة، وفي الوقت نفسه احتياجات حديثة تحيي المتطلبات القديمة.

من المؤكد أنه عند انهيار الإمبراطوريات، بما في ذلك الإمبراطورية السوفييتية مؤخراً، كان التفكيك إلى أمم، وحتى لوكانت أما صغيرة، يبدو مُحرراً، وحمل التأصيل (البحث عن الأصول) العرقي أو الوطني إمكانات متجددة. لكن الدول القومية متعددة الأعراق، التي خرجت مؤخراً من الإمبراطوريات المقسمة، لم يتوفر لها الوقت الكافي تاريخياً لدمج مجموعاتها العرقية أوأقلياتهم، وهذا ما جعله مصدراً للصراعات والحروب. إنها تستعبد أو تطرد أو تُبيد كل من تسامح مع المدينة أوالإمبراطورية : أي الأقلية العرقية . الطبيعة المطلقة لسيادتهم، ورفضهم لأي سلطة عليا لصنع القرار، والطبيعة العمياء، والصراعية، وغلبة سمة الشك والارتياب على العلاقات بين هذه الدول، والقصور الجذري للبنى لبذور الهيئات الدولية العليا غير المكتملة والحيادية والتي هي الأمم المتحدة، كل هذا أثار وضع بلقنة معمم، بينما يتطلب العصر الكوكبي تلاحم الدول القومية للتغلب على المسائل الملحّة المتعلقة بالإنسانية جمعاء، والتي تتجاوز القوى المُطَلقة لهذه الدول. في الواقع، فإن الانتشار المضطرد للأمم الجديدة المتشكلة من

المجموعات القومية الصغيرة يمنع تشكيل مجموعات أحادية أواتحادات كبيرة باتت ضرورية للتضامن البيئي في مواجهة المشكلات المتنامية. وهكذا بعد أن استنفدت خصوبتها التاريخية على العطاء (إمكان بناء مساحات حضارية أكبر من المدن وأكثر اندماجاً من الإمبراطوريات)، تفرض الدولة القومية مطلقة السيادة نفسها بطريقة معممة، محطمة في كل مكان تقريباً المحاولات التضامنية[1]، وكابحة لإنشاء هيئات تضامن دولية أعلى.

على أي حال، أصبحت الدول القومية، بما في ذلك الدول الكبرى متعددة الأعراق الآن صغيرة للغاية مقارنة بحجم المشكلات مابين وعبر الدول: مشكلات الاقتصاد، ومشكلات التنمية، ومشكلات الحضارة التقنية الصناعية، ومشكلات تماثل أنماط وأنواع الحياة، مشكلات تفكك عالم الفلاحين الألفي القديم، ومشكلات البيئة، ومشكلة المخدرات، كل هذه هي مشكلات كوكبية تتجاوز القدرات الوطنية. وبالتالي فإن الانغلاق على النفس، البلقنة المعممة تثير بعض الأخطار الرئيسة في نهاية الألفية.

يتم إحياء العداوات الدينية من خلال الخصومات بين الأمم، وخاصة في مناطق متداخلة ومنقسمة مثل الهند/باكستان والشرق الأوسط؛ ويتضخم العداء بين الحداثة والتقاليد ليصبح عداء بين الحداثة والأصولية، ضعفت الخصومة بين الديمقراطية والشمولية، لكنها أفسحت المجال أمام خصومة أكثر شراسة: بين الديمقراطية والديكتاتورية، يتغذى التناقض بين الغرب والشرق على هذه الخصومات ويغذيها مثل الخصومة بين الشمال والجنوب، التي تمتزج مع المصالح الإستراتيجية والاقتصادية المتناقضة

(١) المثال المضاد الوحيد، الذي لم يصبح مثالياً بعد، هوالمجتمع المولود في غربي أوروبا الصغيرة.

للقوى العظمى. هذه هي جميع الخصومات التي تتلاقى في مناطق التزلزلات الكبيرة في العالم (بما في ذلك تلك التي تمتد من منطقة أرمينيا وأذربيجان إلى السودان) وتتركز حيثما توجد ديانات وأعراق مختلطة، وحدود تعسفية بين الدول، والحنق من التنافس، وإنكار كل أنواع النظام، كما هوالحال في الشرق الأوسط. أخيراً، دعنا نتذكر الأزمة الثلاثية التي اخترقت منطقة مضغوطة من دانسك إلى فلاديفوستوك: أزمة سياسية، حيث أدى انهيار النظام الشمولي إلى خلق بدايات ديمقراطية هشة وغير مستقرة، وأزمة اقتصادية اذ فقد السكان الأمان والحد الأدنى من الحاجات الأساسية التي كان يوفرها النظام القديم دون أن يلمسوا بعد المزايا المرجوة من النظام الجديد، أزمة وطنية، حيث تصل بعض الجماعات العرقية إلى السيادة الوطنية وتمنع الحقوق عن الأقليات الموجودة معها، والتي تطالب بالحقوق نفسها، وتناحر الدول القومية التي تنتمي إليها هذه الأقليات نفسها يؤدي لصعود هستيري للتعصبات القومية. تتساعد هذه الأزمات الثلاث مع بعضها بعضاً: تساعد الهستيريا القومية في ظهور الأزمات الاقتصادية، وكلتاهما تؤدي إلى وصول ديكتاتوريات جديدة. كما قال الفيلسوف ("حامل جنسية العدو الصهيوني- المترجمة") ليبوفيتز: "نحن ننتقل بسهولة من الإنسانية إلى القومية ومن القومية إلى البهيمية". نحن فقط في بدايات تشكيل هذا الإعصار التاريخي لهذه الأزمات الهائجة، ولا أحد يعرف إلى ماذا يؤول في أوروبا هذا الالتقاء بين الدفق العِطش القادم من الغرب والموجات الانفصالية القادمة من الشرق. في الوقت نفسه أفريقيا[1] متأزمة الوضع تزداد سوءاً مع انهيار الديكتاتوريات "الاشتراكية"،

(١) في عام ١٩٦٠، شاركت بنسبة ٩ % في التجارة الدولية وكان لديها الاكتفاء الذاتي من الغذاء.

وعدم القدرة على استبدالها بالديمقراطيات، وانسحاب الاستثمارات الغربية، وضعف أو فساد الدوائر الحكومية، وتوطن الحروب القبلية و/ أو الدينية، وهذا ما يُترجم في تزايد الدمار والمجاعات المتفاقمة، كما في الصومال وإثيوبيا والسودان وموزمبيق. ليست القارة الآسيوية في منأى عن التشنجات التي في حال حدوث اضطرابات وحروب عرقية في الصين والهند، من شأنها أن تستجر كوارث إنسانية.

وهكذا فإن القرن العشرين خُلق وفي الوقت نفسه فُتت نسيج كوكبي نادر؛ انعزلت شظاياه وتصارعت وقاتل بعضها بعضاً وكادت تدمر النسيج الذي من دونه لم تكن لتوجد وتتطور. تسيطر الدول على المشهد العالمي في صورة جبابرة متوحشين، سكرى، أقوياء وعاجزين. كيف نتجاوز عصرهم الهمجي؟

أزمة المستقبل العالمية

لقد عملت أوروبا على نشر الإيمان بالتقدم في جميع أنحاء الكوكب. لم تعد المجتمعات التي اقتلعت من تقاليدها، تستنير باتجاه مستقبلها من خلال اتباع درس الماضي، لكن من خلال المضي قدماً نحومستقبل واعد. كان الوقت حركة تصاعدية. وعُدَّ التقدم مُجارياً للتاريخ البشري، ودُفع من خلال تطورات العلوم والتقنية والمنطق. وتم استبدال الانسلاخ عن الماضي، وتعويضه بكسب المضي نحو المستقبل. انتشر على كامل الأرض الإيمان الحديث في التنمية، والتقدم، والمستقبل. شكّل هذا الإيمان الأساس المشترك للأيديولوجية الديمقراطية الرأسمالية الغربية، حيث كان التقدم يعد بالممتلكات والرفاهية، وللأيديولوجية الشيوعية -التي أشبه بدين الخلاص الدنيوي- وصل الحد إلى الوعد ب"الجنة الاشتراكية". عانى التقدم من

أزمتين في النصف الأول من القرن، في الطفرة الهمجية للحربين العالميتين، التي واجهت الدول الأكثر تقدماً وجعلتها تتراجع. ولكن وجد "دين" التقدم هذا الترياق الذي زاد الإيمان به، حيث كان يجب أن ينهار، إذ تم التعامل مع أهوال الحربين بأنها ردود فعل الهمجيات القديمة، حتى كأنها إعلان نهاية العالم لزمن النعيم. بالنسبة للثوريين، نجمت هذه الفظاعات عن الأزمات الرأسمالية والإمبريالية، ولم يطرحوا على بساط البحث وعد التقدم. بالنسبة إلى أنصار التطور، كانت هذه الحروب بمثابة منعطفات لم توقف المسيرة إلى الأمام إلا لفترة. بعد ذلك، لما سادت النازية والشيوعية الستالينية موّهت صفاتها الهمجية بوعودها "الاشتراكية" بالازدهار والسعادة.

شهدت فترة ما بعد الحرب عام ١٩٤٥ تجدد آمال تقدمية كبيرة.استعيد المستقبل المُبهر، سواء في فكرة المستقبل المشرق الذي وعدت به الشيوعية، أم في فكرة المستقبل السلمي والمزدهر الذي يعد به المجتمع الصناعي. في جميع أنحاء العالم الثالث، بدا أن فكرة التنمية يجب أن تجلب مستقبلاً متحرراً من أسوأ العقبات التي تثقل كاهل الإنسانية.

لكن انقلب كل شيء على عقبيه منذ سبعينيات القرن الماضي.

ترنح المستقبل المشرق: أماطت الثورة الاشتراكية عن وجهها الدانتي (نسبة إلى دانتي صاحب كتاب الجحيم - المترجمة) المرعب في الاتحاد السوفييتي، والصين، وفيتنام، وكمبوديا، حتى كوبا، التي لطالما عُدّت "الجنة الاشتراكية" الصغيرة. ثم بدأ النظام الشمولي في الاختناق لينفجر في الاتحاد السوفياتي وفي كل مكان، وينهار الإيمان بالمستقبل "الاشتراكي". في الغرب، أعقب الأزمة الثقافية عام ١٩٦٨، ركود الاقتصادات الغربية عام

١٩٧٣ ودخولها في مرحلة اكتئاب طويلة الأمد. وفي العالم الثالث، أدت إخفاقات التنمية إلى تراجع وكساد ومجاعات، وحروب مدنية وقبلية ودينية. خبت سورة المستقبل. توقف متنبؤ المستقبل عن العمل[1] وبات العالم كسفينة تبحر في ليلٍ حالكٍ وضباب.

في نفس الفترة وصل التآكل إلى نواة الإيمان بالتقدم - العلوم / التكنولوجيا / الصناعة نفسها متآكلة بالعمق أكثر فأكثر. وكشف العلم عن ازدواجية جذرية متزايدة: لا تؤدي سيطرة العلوم الفيزيائية على الطاقة النووية فقط إلى التقدم البشري، ولكن أيضاً إلى الإبادة البشرية؛ شكلت قنبلتي هيروشيما وناغازاكي، اللتان تعاقب سباق التسلح النووي للدول الكبرى أولا ثم المتوسطة على إنتاجهما، تهديداً لمستقبل الكوكب.

اكتسح الطموح علم البيولوجيا في الثمانينيات: إذ أدى التعرف على الجينات والتفاعلات الجزيئية الحيوية إلى ظهور قدرة التلاعب الجيني الأول والترقب لإمكانية التلاعب بالدماغ الذي سيسمح بالسيطرة على العقول وإخضاعها.

في نفس الفترة أيضاً، بدأت المنتجات الثانوية للفضلات الصناعية بالظهور، وكذلك تسبب تطبيق الطرائق الصناعية على الزراعة وصيد الأسماك وتربية المواشي على نطاق واسع، في أذية وتلوث بيئي على مستوى كبير ومعمم على نحو متزايد، بات يهدد المحيط الحيوي الأرضي وحتى المحيط النفسي للبشر.

---

(١) مثل مركز البحوث على مستقبل جامعة جنوب كاليفورنيا. لا تزال هناك معاهد تركز بشكل أساسي على البرامج التكنولوجية قصيرة الأجل، مثل مركز الأبحاث حول المستقبل في باولوآلتو.

وهكذا، في كل مكان، فقدَ مفهوم تطور ثالوث العلوم والتقنية والصناعة صفاته "التأليهية". وبقيت فكرة الحداثة منافسة وواعدة أينما يحلم البشر بالرفاهية وبالحرية التي تمنحها الوسائل التقنية. إنما، بدأ التشكيك فيها في عالم الرفاهية المكتسبة. كانت الحداثة، ولا تزال، قضية حضارية متشعبة تحركها ديناميكية متفائلة. والحالة هذه فإن إشكالية هذا الثالوث الذي يحيي هذه الديناميكية هي إشكاليته نفسها. تضمنت الحداثة الانعتاق الفردي، تحويلاً معما للقيم إلى قيم دنيوية، التمايز بين الحقيقي والجميل والصالح. إنما ابتداءً من هذا المفهوم، لم تعد الفردية تعني فقط الاستقلالية والانعتاق، بل هي تعني أيضاً الفردية الانغماسية وضياع الهوية. العلمنة الدنيوية لا تعني التحرر من العقائد الدينية فحسب، بل أيضاً فقدان الأسس والقلق والشك والحنين إلى اليقين الكبير. تمايز القيم لا يؤدي فقط إلى الاستقلال الأخلاقي، والتمجيد الجمالي، والبحث الحر عن الحقيقة، لكن أيضاً إلى فقدان الأخلاق، وعلم الجمال التافه، والعدمية. لقد استُهلكت الفضيلة التي أسهمت حتى ذلك الوقت في تجديد فكرة التجدد **(جديد = أفضل = ضروري = تقدم)** وبقيت تستخدم فقط في إعلانات للمنظفات وشاشات التلفزيون وميزات السيارات.

لن يكون هناك المزيد من "رومانسية جديدة" **(رواية-المترجمة)**، "مطبخ جديد"، "فلسفة جديدة".

إذا كان الوعي بتناقض جميع العمليات التي طورتها الحداثة، التي طورت الحداثة، يتجلى في الغرب، فان نقد الحداثة، بعيداً عن القدرة على التغلب عليها، يتمخض عن ضعف ما بعد الحداثة البائسة الذي يكرس فقط العجزعن تخيل المستقبل.

في كل مكان ومن الآن فصاعداً يسود الشعور، عاماً كان أم ذاتياً، بضياع المستقبل. في كل مكان هناك وعي بأننا لسنا في المرحلة ما قبل الأخيرة من التاريخ، التي ستحقق إزهارها الكبير. نشعر في كل مكان أننا لا نسير نحو المستقبل المشرق ولا حتى نحو المستقبل السعيد. إنما لا تزال تفتقر إلى الوعي بأننا مانزال في العصر الحديدي الكوكبي، في فترة ما قبل التاريخ للفكر الإنساني.

يتداخل داء المستقبل مع الحاضر مؤدياً إلى ضائقات نفسية، لاسيما عندما يجري استثمار رأس مال الإيمان بالحضارة في فكرة المستقبل.

يمكن للحياة اليومية أن تخفف من الشعور بأزمة المستقبل هذه وتدفعنا على الرغم من الشكوك- أملاً في النجاة بشكل فردي ومن أجل أنفسنا- لإنجاب أطفال إلى هذا العالم، وللتخطيط لمستقبلهم.

لكن، في الوقت نفسه، تسبب أزمة المستقبل ارتداداً هائلاً نحو الماضي، ونظراً لكون الحاضر بائساً، قلقاً، وتعيساً، فإن الماضي، الذي دمره المستقبل، ينهض من أنقاض المستقبل. ومن هنا جاءت حركة التأصيل الهائلة والمتعددة الأوجه، العودة إلى الأسس العرقية أوالقومية أوالدينية المفقودة أوالمنسية، حيث نشأت "الأصوليات"[1] المختلفة.

سوف تستمر آثار هذه التأرجحات والتقلبات بين الماضي والمستقبل، وسيكون هناك كثير مما لا يُتَوقع. على كل حال لا يتم ضمان التقدم تلقائياً

---

(١) كانت الأعوام ١٩٧٧-١٩٨٠ نقطة تحول مهمة: في عام ١٩٧٧، أخلت الصهيونية العلمانية الطريق لإسرائيل التوراتية مع وصول بيغن إلى السلطة: في عام ١٩٧٨، جان-بول الثاني ينتخب البابا ويبدأ إعادة التبشير للعالم. في عام ١٩٧٩، وقعت إيران، العلمانية إلى حد ما، تحت سلطة آية الله الخميني.

بموجب أي قانون في التاريخ. المستقبل ليس بالضرورة التنمية. بل المستقبل الآن هواللا يقين.

مأساة التنمية

التنمية هي الكلمة الأساس، التي أصبحت onusien (مستقاة من كلمة OUN والتي تعني هيئة الأمم المتحدة)، وعليها التقت جميع المذاهب (vulgates)[1] الأيديولوجية في النصف الثاني من قرننا. يظهر الأنموذج الغربي للتقدم بشكل كبير في أسس الفكرة الرئيسة للتنمية،. يجب أن تضمن التنمية التقدم، وهذا الأخير يجب أن يضمن التنمية.

ثمة وجهان للتنمية. إنها من ناحية خرافة عالمية تفترض- حصول المجتمعات التي أصبحت صناعية على الرفاهية - وانخفاض شديد لأوجه عدم المساواة فيها - ووصول الأفراد إلى أقصى درجات السعادة التي يمكن ان يوفرها المجتمع، لكنها من ناحية أخرى مفهوم اختزالي، كونها ترى النموالاقتصادي هوالمحرك الضروري والكافي لجميع التطورات الاجتماعية والنفسية والأخلاقية. يتجاهل هذا المفهوم التقني - الاقتصادي الأبعاد الإنسانية المتمثلة في الهوية والمجتمع والتضامن والثقافة. لذلك فإن فكرة التنمية متخلفة بشكل خطير. مفهوم التخلف هو نتاج بائس ومجرّد لمفهوم التنمية الفقير والمجرّد.

---

(١) يّتعمد الكاتب استخدام كلمة les vulgates والتي تعني باللاتينية الكتاب المقدس.هذه الترجمة للكتاب المقدس التي اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية عام ٤٠٥ م، وهي المعتمدة اليوم، وذلك للدلالة على التقديس المسلم به من قبلِ أتباع هذه الأيديولوجيات لمذاهبهم- المترجمة

سمح الإيمان الأعمى بالتنمية المرتبط بالإيمان الأعمى بمسيرة التقدم إلى الأمام، التي لا تقاوم، بالقضاء المبرم على اللا اليقين من ناحية، وبإخفاء الوحشيات المارسة في أثناء عملية التنمية من ناحية أخرى.

لقد رسخت أسطورة التنمية الاعتقاد بوجوب التضحية بكل شيء من أجلها. وسوغت الديكتاتوريات التي لا ترحم، سواء أكانت من الأنموذج "الاشتراكي" (الحزب الواحد) أم من الأنموذج الموالي للغرب (الديكتاتورية العسكرية). وضاعفت وحشية ثورات التنمية من مآسي التخلف.

بعد ثلاثين عاماً مكرساً للتنمية، لا يزال الخلل الكبير في التوازن بين الشمال والجنوب قائماً ويزداد سوءاً. يستهلك ٢٥ % من سكان العالم القاطنين في البلدان الغنية، ٧٥ % من الطاقة؛ تحتفظ القوى العظمى باحتكار التكنولوجيا العالية بل وتحتكر حتى القوة المعرفية والتحكم بالثروات (برأس المال) الجينية للأنواع الحية، بما في ذلك البشر. يتلف العالم المتقدم فوائضه الزراعية، ويعطي استراحة من الزراعة لأراضيه، في حين يتضاعف المحل والمجاعات في العالم الفقير. بمجرد اندلاع حروب أهلية أو حدوث كوارث طبيعية، تلتهم "الطفيليات البيروقراطية" أو تلك المؤسسات التجارية الفاسدة المساعدات الخيرية العاجلة. لا يزال العالم الثالث يتعرض للاستغلال الاقتصادي، لكنه يعاني أيضاً من عمى ومحدودية تفكير وتخلف العالم المتقدم أخلاقاً وفكرياً.

تُستَنزفْ التربة في أفريقيا، ويتدهور المناخ، ويزداد عدد السكان، ويتفشى الأيدز. استُبدلت الزراعة المتعددة الملبية للاحتياجات الأسرية والمحلية بزراعة أحادية تخضع لتقلبات السوق العالمية. تحت تأثير هذه

الأخطار، تعاني الزراعة الأحادية من أزمة تلو الأزمة. تهرب رؤوس الأموال المستثمرة في القطاعات التي تعاني من أزمات. ويملأ نزوح الريفين أحياء الصفيح الفقيرة بالعاطلين عن العمل. لقد دمرت عملية التبادل النقدي وفكرة المتاجرة بكل الأشياء الحياة المجتمعية التي كانت قائمة على تبادل الخدمات والضيافة الودودة. تختفي أفضل الثقافات الأصلية لصالح أسوأ الحضارات الغربية.

كانت، ولا تزال الفكرة التنموية تتغاضى عن الغنى الثقافي للمجتمعات القديمة أوالتقليدية التي يُنظر إليها فقط من خلال المنظورين الاقتصادي والكمي. لم تر التنمية في ثقافاتهم إلا الأفكار الخاطئة والجهل والخرافات، دون أن تتفهم احتواء هذه الثقافات على مستوى عمق الحدس، والمعرفة التراكمية منذ آلاف السنين، والحكمة الحياتية والقيم الأخلاقية الضامرة لدينا في الغرب. نتيجة المنطق الغربي الأناني، تعامى الفكر التنموي في الوقت نفسه عن حقيقة أن ثقافات مجتمعاتنا المتقدمة تحتوي، مثل كل الثقافات ولكن بطرائق مختلفة، إلى جانب الحقائق والفضائل العميقة (بما في ذلك تلك المنطوية على عقلانية النقد الذاتي والتي تسمح لنا برؤية أوجه القصور والعيوب في ثقافتنا) على أفكار تعسفية وأساطير لا أساس لها (بما في ذلك اسطورة التقدم برعايتها الإلهية) والأوهام الهائلة (بما في ذلك وهم الوصول إلى أوج العقلانية وكون الثقافة الغربية الوكيل الحصري لهذه العقلانية)، التعامي المرعب (بما في ذلك التفكير المجتزأ والمجزأ والمُختَزل للآخر والآلي).

لقد أدى تطور الحداثة الحضرية والصناعية، في مصدرها الأوروبي، إلى تدمير الثقافات الريفية الألفية، وبدأ في مهاجمة بنية الثقافات الإقليمية المختلفة،

التي تحاول المقاومة غير المتعادلة. حدثت مقاومة للتغريب ضمن الثقافات العريقة العظيمة في آسيا والعالم الإسلامي إما عن طريق ازدواجية الهوية الثقافية (كما في اليابان والمغرب) و إما عن طريق استعادة الهوية الدينية والعرقية. كما قلنا أعلاه، تتم مقاومة التغريب أيضاً من خلال استعمال أدوات وأسلحة الغرب نفسها: صيغة الدولة القومية والتقنيات الصناعية والإدارية والعسكرية، الأيديولوجيات التحررية المطالبة بحقوق الشعوب. وبالتالي، يوجد في هذه العملية حركة مزدوجة، الأولى البحث عن إعادة التأصيل في الماضي، والثانية الانطلاق باندفاع نحوالمستقبل. إنها ديناميكية معقدة حيث تتفاعل الهوية مع الدين مع القومية مع الدولة مع التقنية وحيث تتدخل الرأسمالية والأيديولوجيات الغربية، الأيديولوجيات الثورية، الثقافة (ثقافة العامة) الجماهيرية، مثيرة التمرد، الأمل، يليه الاستسلام، اليأس والتمرد من جديد. لا يتم كل هذا من دون صراعات وتمزقات داخلية وتنازلات وضيعة. في أية حال، يتقدم التغريب عبر نشر التقنية، والفكر التجاري، ونظرية المركنتلية (نظام اقتصادي يسعى إلى تعزيز ثروة الدولة من المعادن الثمينة، الثروة الأساسة) ونشر الأدلجة . وفي الاتجاه المعاكس، كما رأينا أعلاه، تتقدم البلقنة والبحث عن الذات في الهوية العرقية والدينية.

في بقية العالم، تميل التنمية إلى إنهاء تفكيك الثقافات القديمة، هذه العملية التي بدأت منذ العصور القديمة، وتابعها الاستعمار على نطاق واسع. عالم الثقافات الأصيلة انخفض تعداد أفراده اليوم إلى ٣٠٠ مليون شخص، وهومهدد بالموت.

إننا نشهد المرحلة الأخيرة من إبادة ثقافات الصيد وجني الثمار، تلك الثقافات التي لاتزال مستمرة بالعيش في الغابات الاستوائية والجبال البرية

والمناطق الصحراوية. جلب تطور الطب لهم النظافة والشفاء من الأمراض، لكنه قضى على أدوية وعلاجات المداوين الشعبيين أو السحرة. يجلب تعلم الكتابة الثقافة المكتوبة، لكنه يدمر الثقافات الشفوية حاملة المعرفة والحكمة منذ آلاف السنين. لقد تم تفكيك النماذج التقليدية للشخصية.

توضح تجربة خليج جيمس الأخيرة العملية ضمن منطق التنمية. تعهدت شركة الطاقة المائية الكيبيكية ببناء سدود كبيرة هناك، بهدف توفير كهرباء غير مكلفة للمنطقة، وفي الوقت نفسه تشجيع إنشاء مصانع الألمنيوم. تم شراء جزء من الأراضي من هنود الكريس، ما أعطاهم الوسائل اللازمة للاستقرار، والحصول على المنازل والمعدات المنزلية والتكيف والاعتماد على العمل والطاقة والنموالاقتصادي إلخ. لكن أدى إنشاء بحيرات اصطناعية، في المناطق التي استولت عليها هذه الشركة إلى قطع الطرق المهاجرة لحيوانات الموظ (الوعل)، وإلى زيادة الفسفور في مياه هذه البحيرات ما جعل السمك غير صالح للأكل هناك. ما أجبر الناس على التخلي عن أنشطتهم الحيوية السابقة كصيادين وصيادي أسماك والتوجه للعمل في بناء السدود، ومن ثم التحول إلى عاطلين عن العمل. تُرك كبار السن غير القادرين على العمل للموت. غرق الشبان في إدمان الكحول، وبات أطفال في الرابعة من العمر يسكرون بالبيرة. أصبحت النساء، اللائي انتقلن بسرعة من النظام الغذائي القائم على السمك واللحم إلى نظام الدقيق والحلويات، يعانين من البدانة. تم تدمير المجتمع القديم ولن تقوم له قائمة. وحلت الأنانية محل الإيثار. نمط قديم للحياة، نمط قديم من الحياة قد مات. لقد وصل الرفاه المنزلي، جنباً إلى جنب مع إدمان الكحول والمخدرات والملل. أصبح هنود الكريس بغناهم المادي فقراء وتعساء الروح الآن، ومهدّدين بالانقراض.

في جميع الحالات، تدمَّر التنمية، في أوروبا، لكن بشكل أخطر خارجها، بتسارع مختلف أشكال التضامن المحلي وتُهجّن السمات الأصلية مع الظروف البيئية الفردية.

بالتأكيد، لا ينبغي عدُّ الثقافات مثالية. يجب معرفة أن كل تطور ينطوي على تنازل، وكل عملية خلق تنطوي على تدمير، وكل مكسب تاريخي ثمنه خسارة. يجب تفهم أنه كما أن كل حي فان، فإن كل ثقافة تستحق الحياة، وعليها أن تعرف كيف تموت. يجب أيضاً المحافظة على أهمية الثقافة الكوكبية. صحيح أن التعدد الثقافي قد تكيف بشكل رائع مع الظروف والمشكلات المحلية، لكن هذا التعدد يمنع اليوم الوصول إلى مستوى الكوكبي. ولكن، ألا يمكننا أن نستخلص من كل حضارة أكثر خصائصها ثراء وتعميمه؟ كيف إذاً يمكننا دمج القيم الثقافية وكنوز الثقافات التي تتفكك؟ هل فات الأوان؟ يتعين علينا مواجهة الشرطين المتناقضين: إنقاذ التنوع الثقافي المتميز الذي خلقه الانتشار الإنساني الكبير، وفي الوقت نفسه، تغذية ثقافة كوكبية مشتركة بين الجميع. بالمناسبة، نرى أنه بالتوازي مع عملية التجانس الحضاري المدفوعة بالطفرة التكنولوجية الصناعية، هناك أيضاً تلاقياً وتناغماً ثقافيين: يتم إعادة بناء التنوع الثقافي في الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وأفريقيا بلا توقف. إنما تبقى حقيقة أن التطور التقني الصناعي يهدد العالم ثقافياً.

في كل مكان، إنها التقننة المعممة، والتصنيع المعمم، وبناء المدن المعمم، مع آثارها المتناقضة التي نجهل حتى الآن كفة من سترجح. كل هذا يسبب وبسرعة تدمير الثقافات الزراعية، إنها نهاية عالم الفلاحين الألفي: بينما في عام ١٨٠٠ كان يعيش في المدن ٣% من سكان العالم، فان ٨٠% من

السكان في الغرب الأوروبي باتوا مدينيين. تنموالمدن الكبرى (الميغابول) مثل مكسيكوسيتي وشنغهاي وبومباي وجاكرتا وطوكيوا وأوساكا باستمرار. تعاني هذه الوحوش الحضرية (وتعرض سكانها) من الاختناقات المرورية والضوضاء والإجهاد والتلوث بجميع أنواعه. ينتشر البؤس المادي في الأحياء الفقيرة، ولا ينحصر التردي الأخلاقي في مناطق المخدرات والجريمة فحسب، بل يسود أيضاً في المناطق الراقية التي تحميها الميليشيات وقوات الحماية الخاصة شبيهة الغوريلا.

يتوقع مختصو علم النمو السكاني (الديموغرافيا) التابعون للأمم المتحدة أنه بحلول عام ٢٠٠٠، سيعيش أكثر من ٥٠ % من سكان العالم في المناطق الحضرية، وستكون هناك ٦٠ مدينة ضخمة يقطنها أكثر من ٦٥٠ مليون نسمة، أو ٨,٣ % من سكان العالم على نصف ملم من واحد بالألف من الأرض اليابسة. من بين المدن الضخمة البالغ عددها ٢١ مدينة، التي يزيد عدد سكانها عن ١٠ ملايين نسمة، ستكون ١٧ مدينة منها موجودة في البلدان الفقيرة.

إلى أين تقودنا التنمية العالمية؟ يسير البعض نحوالكارثة. أما الآخرون، الذين سينتزعون انفسهم من التخلف الاقتصادي، فسوف يتلاقون مع مشكلات حضارة العالم المتقدم. وهذه المشكلات تُعرف عن غيرها بوجود عالم متخلف اقتصادياً ضمن العالم المتقدم: ٣٥ مليون شخص يعيشون تحت خط الفقر في الولايات المتحدة. يبدوأننا ندخل في مجتمع "مزدوج"، يلفظ إلى أحياء المنفى المتواجدة فيه المنبوذين من التنمية حيث يشكل العاطلون عن العمل نسبة ١٠ إلى ٢٠ % منهم.

هل نتجه نحو أزمة التنمية العالمية؟

في أي حال يجب رفض المفهوم المتخلف للتنمية الذي يجعل من النمو التقني الصناعي الترياق لجميع علل التنمية البشرية والاجتماعية، والتخلي عن الفكرة الأسطورية التي تروج لتقدم لا يُقاوم يزداد إلى ما لا نهاية.

علة الحضارة أومرضها

أليست حضارتنا - أنموذج التنمية - هي نفسها مريضة التنمية؟

لقد أنتج تطوير حضارتنا أعاجيب: تسخير و "تدجين" الطاقة الفيزيائية، الآلات الصناعية الأوتوماتيكية والمؤتمتة أكثر فأكثر، الأجهزة المنزلية التي حررت أصحاب المنازل من المهام الأكثر استعباداً، الرفاه والراحة، المنتجات الاستهلاكية الشديدة التنوع، السيارة (التي، كما يوحي اسمها، منحت الاستقلالية في التنقل)، الطائرة التي جعلتنا نلتهم الفضاء، والتلفاز وهونافذة مفتوحة على العالم الحقيقي والعوالم الوهمية...

سمح هذا التطور بالازدهار الفردي، والحميمية في الحب والصداقة، والتواصل "بيني وبينك"، والاتصالات بين كل فرد وجميعهم، لكن هذا التطور نفسه يؤدي أيضاً إلى تبعثر الأفراد الذين يفقدون علاقات التضامن القديمة دون حصولهم على بدائل جديدة، وأصبحت لديهم علاقات مع المجهول والإدارات.

يؤدي تطوير العصر التقني / البيروقراطي إلى تعميم مفهوم العمل المجزأ الفاقد للمبادرة أوالمسؤولية أو الاهتمام. أدى الوقت المحسوب والوقت المستعجل إلى اختفاء الوقت الحر وتوافر الأشخاص لبعضهم، واختفاء الإيقاعات الطبيعية والهادئة. لا يسمح نمط الحياة العجول بالتوقف للتفكير والتأمل. يشمل المحرك العملاق البيروقراطي / التقني / الصناعي المزيد

والمزيد من الأنشطة. يُلزم الأفراد بإطاعة وصفاته وأوامره وأشكاله. لا نعرف كيف نتحاور مع سلطاته المجهولة. لا نعرف كيف نصحح أخطاءه، ولا نعرف إلى أي مكتب، أو إلى أية كوة يتوجب الذهاب للوصول إليه. تسيطر المكننة على ما هو غير ميكانيكي البتة: على التعقيد البشري. الوجود ذاته بات مهددا. تشتد سطوة المال مجهول المصدر في الوقت نفسه مع اشتداد السطوة المجهولة للبيروقراطية التقنية. العوامل المنشطة هي أيضاً عوامل مفككة: تطور روح المنافسة والنجاح ترسخ الأنانية وتزيل التضامن.

أصبحت مدينة الأنوار، التي توفر الحرية والتنوع هي أيضاً مدينة شاسعة مترامية الأطراف، وتتسبب الضغوط الناجمة عن الحياة فيها بدءاً من نمطية الحياة

مواصلات ← عمل ← نوم،

في خنق الوجود، حيث يستنزف تراكم الضغوط الأعصاب.

تراجعت الحياة الديمقراطية إذ كلما اكتسبت المشكلات بُعداً تقنياً، زاد خروجها عن نطاق قدرة الناس العاديين على حلها لتدخل ضمن نطاق الخبراء. وكلما تحولت مشكلات الحضارة إلى سياسية، قلَّت قدرة السياسيين على دمجها وتقديمها في لغتهم وفي برامجهم.

يَخضعُ الإنسان المنتج للإنسان المستهلك، الذي بدوره يتبع للمادة المنتجة التي يتم بيعها في السوق، التي بدورها تتبع للقوى النهمة التي صارت خارج التحكم، وباتت العملية تدور في حلقة مفرغة حيث لم يعد يتم إنشاء منتج ما من أجل المستهلك بل العكس. وصار أفراد المجتمع يعيشون ضمن حالة من الانفعال السطحي بمجرد هروبهم من الضغوط المستعبدة للعمل. وهكذا،

تحولت مشكلة الاستهلاك غير المنظم إلى حالة مرضية من الشراهة الاستهلاكية المفرطة المتناوبة مع فترات من العلاج عن طريق الحرمان، يضاعف الهوس المرضي بالنظام الغذائي والهوس المرضي بالمحافظة على القوام من المخاوف النرجسية ويفجر نهماً غذائياً يخلق قناعة كبيرة ومكلفة بفاعلية الفيتامينات والمكملات الغذائية. يصبح الاستهلاك لدى الأثرياء هستيرياً، مهووساً بآخر صيحات الموضة، والماركات الأصلية، بالجمال، بالبشرة النقية، بالصحة. لذا تراهم يتراكضون نحو الواجهات التجارية، ونحو المتاجر الكبرى، ومتاجر الأثريات، وأسواق السلع المستعملة. دمج هوس الكتاب المقدس بهوس الأطفال (يتم خلط الحابل بالنابل).

يعيش الأفراد من يوم إلى آخر مستهلكين للحاضر، منساقين بالخضوع للتوافه والثرثرة المتواصلة دون فهم بعضهم بعضاً، بينما هم يتجولون في أسواق الحلي، غير قادرين على البقاء في مكان واحد، يتحركون دون هدف في كل الاتجاهات.

لم تعد السياحة عملية اكتشاف الآخر، ومحاولة بناء علاقة طبيعية مع هذا الكوكب، بل تحولت إلى جولة إرشادية متكاسلة ناعسة في عالم أشباح من الفولكلور والمعالم الأثرية. وبذلك تحافظ وسائل "الترفيه" الحديثة على إحساس الفراغ الذي يريد الإنسان الفرار منه.

كما قد يرتبط ارتفاع مستويات المعيشة بتدهور نوعية الحياة. يمكن ربط تزايد وسائل الاتصال بضعف التواصل الشخصي. يمكن للفرد أن يكون مستقلاً وأن يكون منقاداً، و أن يكون ملكاً، وأن يكون مجرد تابعاً، وأن يكون سيد آلاته و في الوقت نفسه عبداً يقوده من يستعبده.

في ذات الوقت، هناك شيء يهدد حضارتنا من الداخل. تدهور العلاقات الشخصية، والشعور بالوحدة، وفقدان اليقين جنباً إلى جنب مع عدم القدرة على تحمل عدم اليقين، كل هذا يغذي أوجاعاً شخصية تزداد انتشاراً. ونظراً لكون هذه الآلام النفسية تفترش ثنايا نفوسنا الداخلية التي تشبه الكهوف، فإنها تعبر عن نفسها بمظاهر نفسية مرضية تتمثل في الأرق، وصعوبات التنفس، وقرحة المعدة، والشعور بالضيق، نحن نعجز عن التواصل مع البعد الحضاري الجماعي، ونفشي بسريرة أنفسنا إلى الطبيب، إلى الطبيب النفسي، إلى المشعوذ.

حينما تتمرد المراهقة ضد المجتمع وتضيع وتغرق في المخدرات القوية، يجري التعامل معها على أنها محنة تخص الجيل الشاب فقط؛ نحن لا ندرك أن فترة المراهقة هي الحلقة الضعيفة في الحضارة، وفيها تتركز المشكلات والأمراض والتطلعات التي انتشرت في أماكن أخرى وتبعثرت. تكشف عملية البحث في فترة المراهقة عن الاستقلالية ومحاولة الانتماء إلى الجماعة، والحاجة إلى علاقة أصيلة مع الطبيعة، حيث يمكن للمرء أن يعيد اكتشاف طبيعته الخاصة، ورفض حياة البالغين المليئة بالخداع، وتكشف بشكل جاف العوز الكبير الذي يعاني منه الجميع. أفصحت دعوة المراهقين في كاليفورنيا في فترة الستينيات، التي كان شعارها السلام والحب، عن حزن عميق للروح المحرومة من السلام والحب.

أظهرت اضطرابات عام ١٩٦٨ اعتراض المراهقين على مبادئ الحياة بذاتها في العالم الغربي، هذه المبادئ البائسة نفسياً ومعنوياً حتى عندما تكون مزدهرة مادياً.

لقد أصبحت المشكلات الموضوعية التي نجمت عن صعوبات أو اختلالات وظيفية اقتصادية، وثقل البيروقراطية وتصلبها، وتدهورات بيئية، أمراً ملموساً يتم الحديث عنه واستنكاره. لكن أمراض الحضارة التي تتسلل إلى النفوس وتتخذ شكلاً شخصياً لا تزال غير محسوسة. في أي حال، تلتقي المشكلات الموضوعية مع المشكلات الشخصية الذاتية لتشكل محنة حضارية جديدة. هذه المحنة التي ظهرت في الغرب عبر التنمية الاقتصادية ومن خلالها، سوف تستمر عبر الأزمة الاقتصادية ومن خلالها.

أخذ إنتاج الأفلام الخيالية، الذي تنقله وسائل الإعلام هذه المحنة بعين النظر في نهاية عام ١٩٦٨. كانت جميع الأفلام التجارية قبل ذلك تحظى بنهاية سعيدة، وكان أبطال الأدب الشعبي يجدون النجاح والحب في نهاية روايتهم. وكانت الصحافة النسائية توزع وصفات للسعادة. لكن بعد عام ١٩٦٨، انتقلنا من الأسطورة الفرحة للسعادة إلى إشكالية السعادة. لم تعد النهاية السعيدة مفروضة بالضرورة، وصارت الصحافة النسائية تسدي نصائح لقارئاتها عن المواجهة الشجاعة لمشكلات الانفصال، الوحدة، المرض، الشيخوخة. هنا يجب أن نلفت النظر بأن "المجتمع المدني" يتفاعل ويبحث عن حماية نفسه بوسائله الخاصة.

وهكذا، يتجلى الرد على القيود المفروضة من قبل الحياة الحضرية البيروقراطية في سنوات الستينات من خلال تطوير مفهوم الحياة المتناوبة، حيث يتناوب العمل مع الترفيه، المدينة مع القرية، مع ابتكار مفهوم عطلة نهاية الأسبوع والعطلات الأخرى المتعددة. ساهمت ظاهرة القديم المتجدد والرؤية الجديدة للطبيعة في شغل المساحات الداخلية للمنازل بالنباتات والأصداف والمعادن الغريبة والقطع الأثرية، وظهرت عادة ارتداء الجينز

والمخمل والأزياء الريفية والحلي البربرية، ما أدى إلى عودة عادة الشواء إلى حديقة المنزل، وجمع الخضراوات من الحديقة، وشراء واستخدام الأواني الفلاحية. في وقت لاحق، سرَّع ارتفاع الوعي البيئي البحث عن حلول "طبيعية" في كل المجالات، بدءاً من الغذاء.

يمثل إيروس الذي يمكن أن يأخذ - بشكل مختلف أومتزامن - رمز الحب والإثارة الجنسية والنشاط الجنسي والصداقة، الاستجابة الجوهرية لشر الحضارة، وهي استجابة تثيرها الحضارة نفسها وتنشرها عبر وسائل الإعلام. تجلت المقاومة لعملية طمس الهوية والتشرذم، لاسيما في عالم الشباب، في تكاثر علامات الإنتماء لعشائر ومجموعات من الأصدقاء وإقامة الاحتفالات. وأصبح الحب بالنسبة لجميع الفئات العمرية بمثابة إله منقذ. ولم يعد ممكناً تصور الزواج، الذي كان في الماضي وثاقاً عائلياً، بدون حب. عملية تفجر الحب تقمع آلام الروح وهكذا يولد الحب، ويولد من جديد في كل مكان. وتجاوزت لقاءات العشق والجنس الطبقات الاجتماعية، وتحايلت على المحظورات، وانتشرت في كل ما هوسري وعابر. إلا أن المشاعر التي تستحوذ علينا تماماً تُستهلك بسرعة. يضعف الحب بزيادة العشق والعشاق، ويتلاشى بمرور الوقت. تقتل اللقاءات التي تخلق هياماً جديداً الحب القديم. ينفصل أزواج ويرتبط آخرون، ثم ينفصلون. تستقر مساوئ الحضارة من عدم الاستقرار والتسرع والسطحية في الحب، وتعيد إليه سلبيات هذه الحضارة التي يحاول الحب طردها. لا يزال الحب والإخاء، وهما قوى المقاومة العفوية لسلبيات الحضارة شديدي الضعف بحيث لا يمكنهما معالجة هذه السلبيات. انهم يملؤون الفراغ من خلال زخمهم، لكنهم هم انفسهم يقضمهم الفراغ ويقطِّعهم، ومن هنا مفهوم معقد آخر عصي على الفهم وهوالفارغ / الممتلئ.

أخيراً هناك أشكال وقوى مقاومة أخرى لشرور الحضارة، يجري التعبير عنها بشكل خاص في الرغبة في استيعاب أساليب ورسائل الثقافات الشرقية التي تجلب الانسجام بين الروح والجسد والراحة النفسية، وانفصال الروحي عن المادي. وضمن هذه الرؤية تكشف أشكال اليوغا والزن المتداولة والتجارية عن أوجه القصور في الحضارة الغربية وعن الحاجات التي تؤمنها هذه الممارسات. في الوقت نفسه، ثمة محاولة بحث عن توحيد الحقيقي والطيب والجميل واستعادة المظاهر التدينية والمفاهيم المقدسة في أشكال مختلفة من التّدين المصطنع تندرج ضمنه فلسفة "العصر الجديد". هناك تحت انقاض كل ما دمره التقدم، الذي يعاني هو نفسه الآن من خراب آخر، هناك بحث عن الحقائق الضائعة...

من الصعب للغاية إدراك الطبيعة الحقيقية لشر الحضارة، نظراً لتضارباتها وتعقيداتها. إنما يجب رؤية الطوابق السفلية الملغومة، والكهوف، والهاويات تحت الأرض، وفي الوقت ذاته رؤية إرادة الحياة، والكفاح الخفي واللاواعي ضد الشر. يجب رؤية تجريد الإنسانية من إنسانيتها وأيضاً اعادتها لها. يجب رؤية الرضا، والفرح، والسرور، والسعادة، ولكن أيضاً عدم الرضا، والمعاناة، والإحباط، والقلق، ومصائب العالم المتقدم، التي تختلف ولكنها لا تقل واقعية عن تلك الموجودة في العالم المتخلف. كل ما يصارع بشراسة ضد قوى الموت في هذه الحضارة هوأيضاً جزء منها. العُصابات التي تسببها ليست فقط نتاج الشر، بل هي حل وسط أقل أو أكثر أيلاماً للتعامل مع الشر لتجنب الغرق الكامل فيه. هل ردود الفعل على الشر الحضاري غير كافية؟ هل سيزداد هذا الشر؟ في أي حال، لم يعد بالإمكان عدّ حضارتنا في مرحلة استقرار. بعد تحرر قوى غير مسبوقة من

الخلق وإطلاق العنان لقوى تدمير لم يسبق لها مثيل، هل تتجه حضارتنا نحو تدمير الذات أو أنها ستتمكن من التحول والتطور؟

التطور غير المنضبط والاعمى للعلم التكنولوجي

إن مستقبلنا مفعم أكثر من أي وقت مضى بالديناميكية المزدوجة لتطور العلوم وتطور التقنيات التي تغذي بعضها بعضاً؛ هذه الديناميكية تنشر التنمية الصناعية والتنمية الحضارية في الأرض، وهذا بدوره ما يحفّزها. وهكذا، يحكم العلم التكنولوجي العالم منذ قرن. وتعمل تطوراته وتوسعاته على تطوير وتوسيع التواصل والترابط والتضامن وإعادة التنظيم والتجانس، التي تشكل مفاهيم تطور عصر الكوكبي. إنما هذه التطورات وهذه التوسعات نفسها هي من تسبب - من خلال التأثيرات العكسية بالطريق الراجع - البلقنة وعدم التجانس والفوضى وأزمات اليوم.

فالإيمان بالمهمة الإلهية للعلوم التكنولوجية هو من يغذي اليقين بالتقدم، والآمال العظيمة للتنمية المستقبلية.

ليست العلوم التقنية مجرد مقطورة جر للعصر الكوكبي. لقد غزت جميع أنسجة المجتمعات المتقدمة، وزرعت بطريقة منظمة منطق الآلة الاصطناعية حتى في الحياة اليومية، وذلك بانتزاع الكفاءة الديمقراطية من المواطنين وإعطائها للخبراء والمتخصصين. لقد فرضت العلوم التقنية انقساماتها على الفكر من خلال فرض التفكيك والاختزال.

وبذلك تكون العلوم التقنية هي نفسها نواة ومحرك الاحتضار الكوكبي.

الغزو عبر منطق الآلة الاصطناعية

ما الذي يميز الآلة الاصطناعية عن الآلة الحية؟

يتكون الجهاز الاصطناعي من مكونات موثوقة للغاية. ومع ذلك فإن الجهاز ككل واحد هوأقل موثوقية بكثير من مكوناته منفردة. وأي مشكلة موضعية كافية لإيقافه وتعطله، ولا يمكن إصلاح الجهاز إلا عن طريق التدخل الخارجي. الآلة الاصطناعية لا تتحمل ولا تستطيع التعامل مع الفوضى. إنها تعمل بدقة وفق برنامجها. فهي مكونة من عناصر متخصصة للغاية ومخصصة للمهام المتخصصة. أعطتها أجهزة الكمبيوتر في الآونة الأخيرة ذكاء عاماً فقط يمكن تطبيقه على مختلف المشكلات.

تتكون الآلة الحية من عناصر غير موثوقة تتحلل بسرعة (البروتينات)، لكن مجموع هذه العناصر مع بعضها موثوق أكثر من عناصره المنفردة. إنها قادرة على إنتاج مكونات جديدة تحل محل العناصر التي تتحلل (الجزيئات) أو تموت (الخلايا)، وبالتالي فهي قادرة على التجدد الذاتي؛ وهي قادرة على الإصلاح الذاتي حين الإصابة الموضعية. وإذا كان الموت هوعدوالمنظومة الحية، فإن القوى المُفكِّكة تُستخدم للسماح بالتجديد. وبينما تستطيع الآلة الاصطناعية التعامل مع برامج، فإن الآلة الحية قادرة على بناء استراتيجية، أي تستطيع اختراع سلوك لها في حالة الاحتمالية العشوائية وعدم اليقين. لذلك، في الجهاز الحي، يوجد صلة جوهرية ومعقدة بين عدم التنظيم وإعادة التنظيم، وبين الفوضى والأبداع.

بالإضافة إلى ذلك لا تشمل الآلة الحية أعضاء متخصصة فقط، لكن أعضاء متعددة الوظائف. لا يتضمن نظامها التكاثري (الوراثي) مورثات متخصصة فحسب، بل يشمل أيضاً المورثات متعددة الاستخدامات موجودة ضمن مجموعات من الجينات متعددة الاستعمالات نفسها. ليست الآلة الاصطناعية سوى آلة. الآلة الحية هي أيضاً كائن حي ذاتي التنظيم. هذا المخلوق هو الفرد - الفاعل.

تمايزت كل صفات الكيان الآلي الحي إلى أعلى درجة في الكائن البشري، فقد ازدادت جودة الفرد وارتفعت القدرة على الاختيار **(الحرية)**.

حين تطبيق منطق الآلة الإصطناعية على البشر يؤدي ذلك إلى تطور البرنامج على حساب الاستراتيجية، وفرط التخصص على حساب الكفاءة العامة، والميكانيكية على حساب التعقيد التنظيمي: صرامة الأداء، والعقلنة والكرونولوجية التي تفرض على البشر طاعة منطق التنظيم الميكانيكي للآلة. هذه الأخيرة، تتجاهل الفرد الحي ونوعيته كفاعل، وبالتالي تتجاهل الحقائق الإنسانية الموضوعية.

فرض منطق الآلة الصناعية نفسه أول مرة في الصناعة حيث، في أثناء تحرير العضلات البشرية من العمل الشاق، استعبدت الآلة العامل بمعاييرها الميكانيكية والمتخصصة، بالإضافة إلى فرض التوقيت. لقد استعبدت الآلة المصنوعة لخدمة الاحتياجات البشرية، البشر لتلبية احتياجاتها الميكانيكية. وبينما صنعت الآلة لتكون تابعاً للنشاط البشري، فقد جعلت من العامل تابعاً لها.

انتشر منطق الآلة الصناعية خارج القطاع الصناعي، وخاصة في القطاع الإداري حيث اندرج منطق تنظيمها بالفعل في المنظومة البيروقراطية. لقد سيطرت على العديد من مجالات النشاط الاجتماعي: كما قال جيدون" المكنكة تتسلم القيادة[1]". أصبحت أول زعيمة في العالم الحضري، ثم في العالم الريفي، حيث حولت الفلاحين إلى مزارعين، والمدن والقرى إلى ضواحٍ.

منطق الآلة الصناعية - الكفاءة، القدرة على التوقع، الحسابية، التخصص الصارم، السرعة، التوقيت **(المؤقت)** – يغزو الحياة اليومية: إنه ينظم السفر،

(١) س. جيديون، المكننة تتسلم القيادة، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٤٨.

الاستهلاك، الترفيه، التعليم، الخدمات، المطاعم، ويستفز ما يسميه جورج ريتزير تحويل المجتمع إلى نماذج "ماكدونالد"[1]! يسير التحضر، التفكك، طمس الهوية جنباً إلى جنب مع التطبيق المعمم لمنطق الجهاز الاصطناعي على البشر وعلاقاتهم.

يطبق مفهوم التنمية، بالطريقة التي فرض نفسه فيها، منطق الآلة الإصطناعية وينشرها على الكوكب. وبالتالي، تصبح حيازة التقنية هي في الوقت نفسه الاستسلام إلى التقنية. نحن نظن أن الإنسان يُعقلن المجتمع، ولكن ما يحدث هو أننا نعقلن الإنسان ليتكيف مع عقلنة المجتمع.

سيطرة التفكير الميكانيكي والتجزيئي

إن امتداد منطق الآلة الاصطناعية إلى جميع مجالات الحياة البشرية ينتج عنه تفكير ميكانيكي تجزيئي يأخذ شكلاً تكنوقراطياً واقتصاد- قراطياً (حكومة الفنيين وحكومة الاقتصاديين). هذا التفكير لا يدرك إلا العلاقة السببية الميكانيكية في حين يخضع كل شيء أكثر فأكثر للعلاقة السببية المعقدة. إنه يختزل الواقع إلى كل ما هوقابل للقياس الكمي. ويُسبب فرط التخصص والاختزال للقياس الكمي انعدام الرؤية، ليس فقط على مستوى الوجود، الملموس، الفردي، لكن أيضاً على مستوى السياق والكلية والأساسي. إنه يؤدي، في جميع النظم التقنية البيروقراطية، إلى التجزئة وانخفاض التراكيز وفقدان المسؤولية في النهاية.

إنها تعزز كل من الجمود في العمل وتساهلية عدم المبالاة. وتسهم على نحو كبير في الانحدار الديمقراطي في الدول الغربية حيث تخرج جميع المشكلات التي

---

(١) تحويل المجتمع إلى أنموذج ماكدونالدز، سيج برس، ١٩٩٢.

أصبحت تقنية من سلطة المواطنين لصالح الخبراء، وحيث أن فقدان الرؤية العالمية والأساسية يعطي حرية التصرف ليس فقط للأفكار الأكثر تجزئة والأكثر انغلاقاً ولكن أيضاً إلى الأفكار العالمية الجوفاء بامتياز، والأفكار الأساسية الأكثرعشوائية، بما في ذلك، وقبل كل شيء، بين الفنيين والعلماء أنفسهم. تتجلى ويلات العقلانية التجزيئية والمنغلقة في تخطيط المشاريع البيروقراطية التقنية الكبيرة التي تنسى دائماً بُعداً أوأكثر من أبعاد المشكلات المُعَالجة (مثل سد أسوان، وتركيب فوس البحرية، تنظيم CNTS وقضية الدم الملوث، ومشروع تحويل الأنهار السيبيرية، وما إلى ذلك). في الواقع، العقلانية المنغلقة تنتج اللاعقلانية. وهي بالتأكيد غير قادرة على مواجهة تحدي مشكلات الكوكب.

الهمجية الجديدة

هناك معاناة إنسانية تأتي من الكوارث الطبيعية، من الجفاف، من الفيضانات، ومن نقص الغذاء. ويأتي بعضها الآخر من الأشكال القديمة للهمجية التي لم تفقد ضراوتها. وأخيراُ، يأتي بعضها الآخر من همجية جديدة تقنية – علمية - بيروقراطية، التي لا يمكن فصلها عن سيطرة منطق الآلة الاصطناعية على الكائنات البشرية.

لا يتميز العلم بقدرته التوضيحية فقط، ولكن أيضاً بانعدام رؤيته لمستقبله، وبكونه، كما هي شجرة المعرفة التوراتية، يحوي ثمار الخير والشر على حد سواء. التكنولوجيا تجلب همجية جديدة، جنباً إلى جنب مع الحضارة، مجهولة المصدر ومتلاعبة. لا تعني كلمة المنطق العقلانية القادرة على النقد فحسب، ولكن أيضاً الهذيان المنطقي للعقلانية، المتعامي عن رؤية كائنات ملموسة، وعن تعقيد الواقع. ما نفعله بهدف التقدم في الحضارة يؤدي في الوقت نفسه إلى التقدم في الهمجية.

كان والتر بنيامين مقتنعاً بأن البربرية متجذرة في أصول الحضارات العظيمة. رأى فرويد أن الحضارة تفشل في إلغاء الهمجية عن طريق طردها إلى سراديبها، لأن هذه البربرية تعود بانبثاقات جديدة. الحقيقة اليوم أن الحضارة التقنية العلمية، رغم كونها حضارة، تنتج بربرية خاصة بها.

عدم القدرة على تنفيذ طفرة التقنية الفائقة

اليوم، تنهار أسطورة التقدم، التنمية المريضة، وتجد جميع التهديدات الموجهة للبشرية جمعاء، أحد أسبابها على الأقل في تطور العلوم والتكنولوجيا (تهديد أسلحة الإبادة، التهديدات البيئية للمحيط الحيوي، تهديد الانفجار السكاني).

ومع ذلك، فالتطورات التقنية - العلمية عينها ستمكّن، في نهاية هذه الألفية، من استعادة المهارات العامة، واستبدال الأعمال الفائقة التخصص بالروبوتات والآلات، وعن طريق التحكم بالكمبيوتر، وتنظيم اقتصاد توزيعي من شانه القضاء على نقص الغذاء والمجاعات في العالم الثالث واحتضان المُستَبْعَدين (المشردين)، استبدال الأنظمة التعليمية الجامدة بأنظمة تعليمية تعتمد الرؤية الترابطية (التعقيدية). يمكن بناء حضارة فائقة التقنية، على وجه التحديد بمساعدة التقنية واندماجها، وعن طريق التحكم في المنطق الحالي للآلات الصناعية وفقاً للمعايير الإنسانية، والإدخال التدريجي للمنطق المعقد – وهوما انجاز لايزال في بدايته - في أجهزة الكمبيوتر، ولاحقاً في عالم كل الآلات الاصطناعية.

العجز عن القيام بالتحول الكبير التكنولوجي والاقتصادي والاجتماعي لا يأتي فقط من عدم الكفاية المعرفية التقنية والاقتصادية، لكن أيضاً من الوهن في التفكير التقني - الاقتصادي - البيروقراطي المهيمن بحد ذاته. كما

أنه يأتي أيضاً من تفاهة الفكر السياسي الذي، بعد انهيار الماركسية، عجز عن طرح فكر مترابط وبناء رؤية كبيرة. ثمة عجز في الخروج من أزمة التقدم من خلال تقدم آخر، والخروج من أزمة الحداثة عن طريق شيء آخر غير المفهوم الفقير لما بعد الحداثة.

السباق الأعمى

إن سباق الثالوث الذي تولى مسؤولية المغامرة البشرية، العلوم والتقنية والصناعة، غير خاضع للرقابة. فالنمو غير منضبط، ويدفع تقدمه إلى الهاوية.

تلت الرؤية الفرحة لبيكون، لديكارت، ولماركس، حيث الإنسان سيد التقنية، ويصبح سيداً الطبيعة، رؤية هايسنبرغ[1] وجيهلن، حيث تصبح الإنسانية أداة في يد تطور بيولوجي فائق تنتجه التقنية. علينا أن نتخلى عن الخرافتين الرئيستين للغرب الحديث: غزو الطبيعة - الموضوع[2] من قبل الإنسان - موضوع الكون، مسألة الاندفاع غير المتناهي والكاذب للنموالصناعي، للتنمية، للتطور... يجب أن نتخلى عن العقلانية الجزئية والمنغلقة، وطرائق التفكير المجردة الهذيانية التي تُعدّ غير منطقي كل نقد عقلاني يستهدفها. يجب التحرر من الأنموذج الزائف لعقلانية الإنسان العاقل الصانع المدعي بأن العلم والتقنية تتحملان مسؤولية التنمية البشرية وتحقيقها.

تدفعنا مأساة التنمية ونقص التنمية لمفهوم التنمية، والسباق المحموم للعلوم التقنية، والعمى الناجم عن التفكير المجزأ والاختزال، كل ذلك يدفعنا إلى مغامرة غير مُنضبطة.

---

(١) راجع إدغار موران، مقدمة لسياسة الانسان، باريس، دار نشر سوي،."نقاط سياسية" ١٩٦٩

(٢) الموضوعي: ما هو مقابل للذاتي - المترجمة

الاحتضار

أزمة؟

يمكننا عدّ الحالة الفوضوية والمتضاربة للعصر الكوكبي كحالته "الطبيعية"، واضطراباته على أنها المكونات الحتمية لتعقيده، وتجنب استخدام المصطلح الشائع ومفتاح كل الأبواب: الأزمة.

ولكن، ربما يجب التذكير بما تعنيه كلمة "الأزمة"[1]... أزمة تتجلى في النمو، وحتى الانتشار المعمم لأوجه اللايقين، أوانتهاكات النظم أو ردود الأفعال السلبية (التي تلغي الانحرافات)، من خلال تطورات ردود الأفعال الإيجابية (النموغير المنضبط)، عن طريق زيادة المخاطر والفرص (مخاطر الانحدار أوالوفاة، فرص إيجاد الحل أوالخلاص).

حينما ننظر إلى حالة الكوكب، نلاحظ:

- تفاقم اللايقين في المجالات كافة، واستحالة أي فكر مستقبلي مضمون، والتنوع الشديد لسيناريوهات المستقبل المحتملة؛

- انتهاكات في النظم والضبط (القوننة) (بما في ذلك في الآونة الأخيرة كسر توازن الرعب)، وتطور النمو في ردود الأفعال الإيجابية، مثل النمو السكاني، والتطورات غير المنضبطة في النموالصناعي، وتلك الخاصة بالعلوم التكنولوجية

---

(١) راجع إدغار موران، علم الاجتماع ،باريس، فايار ١٩٨٤ (للاطلاع على نظرية الأزمة راجع ص ١٣٩-١٥١).

- المخاطر القاتلة للبشرية جمعاء (السلاح النووي، تهديد المحيط الحيوي)، وفي الوقت نفسه، فرص انقاذ البشرية من الخطر، بدءاً من وعي الخطر نفسه.

الأزمة المتعددة

يُفَضَّلْ القيام بتحديد أولويات مشكلات الأزمة، وذلك بهدف التركيز على المشكلة الأولى أو الرئيسة.

المشكلة الأكبر هي المغامرة المنفلتة للعلوم التكنولوجية: فهي تتحكم في مشكلة التنمية ومشكلة الحضارة، وتحدد الزيادة الديموغرافية والتهديد البيئي. لكن التحكم في تقدم العلوم التكنولوجية اليوم لن يحل بحكم الأمر الواقع مأساة التنمية ولا إشكالية حضارتنا؛ هذا لن يزيل العمى الناتج عن التفكير المجزّئ والاختزالي، ولن يزيل المشكلة الديموغرافية ولا التهديد البيئي. أكثر من ذلك، تعتمد مشكلة العلوم التكنولوجية على الحضارة بأكملها، التي بدورها تعتمد على هذه العلوم. اليوم، لا يمكن معالجتها بمعزل عن غيرها، ويجب التعامل معها بطريقة متنوعة وفقاً لأقاليم الكوكب.

في الواقع، ثمة ردود فعل متبادلة بين المشكلات المختلفة والأزمات المختلفة والتهديدات المختلفة. وكذلك الأمر مع مشكلات الصحة والديموغرافيا والبيئة ونمط الحياة والحضارة والتنمية. و الأمرنفسه ينطبق على أزمة المستقبل، التي تشجع التشدد القومي، كما أنها تشجع على الاضطراب الاقتصادي، ما يشجع على بلقنة معممة، وكل هذا ضمن ردود الفعل المتبادلة. وعلى نطاق أوسع، تتداخل أزمة المحيط التطوري الإنساني

وأزمة المحيط الحيوي مع بعضهما، وكذلك تتداخل أزمات الماضي والحاضر والمستقبل مع بعضها بعضاً. يمكن اعتبار العديد من هذه الأزمات كأزمة كلية متعدد الأقطاب حيث تتداخل فيها وتتشابك أزمة التنمية، وأزمة الحداثة، وأزمة كل المجتمعات، التي انتُزِعَ بعضها من سباتها، من اكتفائها الذاتي، من حالة السكون، وبعضها الآخر تُسرّع حركتهم بشكل مذهل (يتم تنفيذه في ظل نظام أعمى)، مدفوعاً بجدلية تطورات العلوم التكنولوجية واندلاع الأوهام البشرية. وبالتالي لا يمكن للمرء فصل المشكلة الرئيسة، المسيطرة على جميع المشكلات الأخرى؛ ما من مشكلة حيوية واحدة، بل العديد من المشكلات الحيوية، وهذا الترابط المعقد بين المشكلات، الخصوم، الأزمات، العمليات غير المنضبطة يشكل الأزمة العامة للكوكب، التي تشكل المشكلة الحيوية رقم واحد.

التسارع

يمكن قياس شدة الأزمة أوعمقها بأهمية ردود الفعل المرتدة الأيجابية وأهمية الأخطار القاتلة التي تسببها. بالتأكيد يمكن عدّ السيرورة التكنولوجية والاقتصادية بأكملها للغرب منذ نهاية القرن الثامن عشر كردود أفعال إيجابية عملاقة، بمعنى أنها كانت تشبه عملية تغذية ذاتية غير خاضعة للسيطرة، عملية تضخيم ذاتية، وعملية تسريع ذاتية أدت إلى تدمير المجتمعات التقليدية وأنماط حيواتها وثقافاتها. كانت عملية التدمير هذه في الوقت نفسه عملية خلق (حضارة، أنماط ثقافية جديدة أعمال رائعة من الأدب والشعر والموسيقا...).

والسؤال المطروح اليوم هو ما إذا كانت قوى الانحدار والدمار ستنتصر على قوى التقدم والابداع، وما إذا كنا لم نتجاوز الحد الحاسم في التسارع / التضخيم، الأمر الذي قد يقودنا الآن إلى مهرب (runaway) متفجر، ذلك أن التسارع ينتشر في جميع قطاعات الحياة. السرعة نفسها تسير دائماً بشكل أسرع. مع التسارع التقني، عن طريق الفاكس، القطارات السريعة، البريد السريع والطائرات التي تفوق سرعتها سرعة الصوت، نجد حتى أنفسنا متسارعين... إنه السباق الذي يجر إليه الحضارة بأكملها.

يجب أن نكون على دراية بهذا السباق المجنون الذي يجرف بطريقه مستقبلنا، مستقبلنا الذي يكاد يحمل نوعاً من التقدم، أوحتى ربما وجهاً آخراً للتقدم. وكما يقول والتر بنيامين متحدثاً عن ملاك جرفته عاصفة هوجاء نحو المستقبل: "هذه العاصفة هي ما نسميه التقدم".

فهل ما نفعله نحن هو الركض نحوتدمير الذات؟ نحو طفرة؟

يمكن أن تسبب ردود الأفعال الإيجابية التي تؤدي إلى مسار الهروب في النهاية حدوث طفرة. إنما، حينها يجب أن تتولى قوى الرقابة والتنظيم المسؤولية. لذلك، فالمسألة تتعلق بإبطاء التسارع التقني في الثقافات والحضارات والطبيعة، التسارع الذي يهدد كل من هذه الثقافات والحضارات والطبيعة. يجب الإبطاء لتجنب الغليان الداخلي أوالانفجار. إنها مسألة خفض تسارع ليتم تنظيم الطفرة والتحضير لها والسيطرة عليها. يتطلب البقاء على قيد الحياة إحداث ثورة في صيرورتنا. علينا المضيّ باتجاه مستقبل آخر. هذا هوما يجب ان يكون عليه الوعي الحاسم للألفية الجديدة.

المرحلة الدمققية (الداموكلينية)

تحتل الأزمة الكوكبية قلب العمليات غير المنضبطة، التي بدورها تقع في قلب الأزمة الكوكبية. وارتفاع التهديدات العالمية القاتلة هي واحدة من خصائص الأزمة الكوكبية.

فتحت قنبلة هيروشيما مرحلة جديدة، عام ١٩٤٥ أشهر السلاح النووي بشكل دائم ضد البشرية جمعاء. تم ترسيخ هذا الوضع الدمققي مع الترسانات الهائلة القادرة على تدمير الجنس البشري مرات عدة ، والصواريخ التي تحمل الموت الهائل لآلاف في بيوتهم وحقولهم، في الغواصات النووية التي تقطع المحيطات جيئة وذهاباً، وفي الطائرات القإذفة الهائلة التي تجول السماء دون توقف ، حيث ينتشر السلاح ويصغر حجمه وسيصبح متاحاً قريباً للإرهابيين المحنكين ولمناوئي الحكومات. انتشر في الوقت نفسه تهديد دمققي إلى المحيط الحيوي حيث تهدد فضلات وانبعاثات التنمية التقنية الحضرية بقتل بيئتنا الحية بالتسمم، وبات يشكل تهديداً مميتاً للبشرية.

وهناك أيضاً ودائماً الموت بوجهه القديم، الذي تقهقر بوساطة الطب والنظافة، وعاد بقسوة غير معهودة حتى الان عن طريق الجنس الذي اعتقدناه طاهراً، بحيث باتت كل معانقة واحتضان تحت تهديد الطيف الدمققي. وأخيراً، اكتسح الموت مع انتشار القلق واليأس والعنف، مساحات داخل أنفسنا. لقد أُعيد تنشيط قوى التدمير والتدمير الذاتي الكامنة في كل فرد وفي كل مجتمع في بيئاتنا الحضرية مجهولة الهوية، ما

يضاعف ويزيد من العزلة والقلق الفردي، الذي بدوره يؤدي إلى عنف بات مجرد تعبير عادي عن الاحتجاج والرفض والتمرد. ينتشر الانجذاب القاتل نحو المخدرات القوية، وتحديداً الهيروين، بشكل لا يقاوم؛ إنها تهدئ وتُسكر وتمنح نشوة لا مثيل لها، ولكن الخلاص المؤقت الذي تمنحه هو خلاص قاتل.

وعى الإنسان العاقل منذ ظهوره، فكرة فنائه وفناء كل من حوله. وأدرك مع انهيار الإمبراطورية الرومانية أن الحضارات فانية. انتشرت، بفضل إسهامات علم الكونيات المعاصر منذ قرن من الزمن المعرفة الأكيدة بفناء الأرض والشمس، وتالياً فناء الحياة. وتضيف إلى أوجاع الفناء آلام هذا الفناء الجديد الحميمة، الوفيات العالمية الجديدة، القريب بعضها من بعض، المتجاورة، المحيطة، والمسممة، التي في مجملها هي آلام كوكبية.

تحالف الهمجية

تحدث الاندفاعات المتعددة في الطور الداموكليني تحديداً، في العديد من نقاط الكرة الأرضية، التي تحمل بربرية كبيرة نشأت من الاندماج بين الأشكال البربرية القديمة، القوية دائماً (التعصب والقسوة، الازدراء، الكراهية التي يغذيها أكثر من أي وقت مضى الدين والعنصرية والقومية والأيديولوجية) والأشكال الجديدة، مجهولة المصدر، الباردة، البيروقراطية، التقنية- العلمية للبربرية التي تطورت في قرننا. أصبح تحالف الأشكال المختلفة للهمجية المُثبتة في كوليما وأوشفيتز وهيروشيما، عالمياً وهذا التحالف هوالذي يهدد البشرية في بقائها ومستقبلها.

الاحتضار؟

إذا نظرنا، على المستوى العالمي إلى الإعصار الكارثي الوخيم لحربي القرن العشرين العالميتين والإعصار المجهول الجديد الذي لا يزال في طور النشوء، وإذا أخذنا في عين الاعتبار الأخطار القاتلة التي تهدد البشرية والقادمة من البشرية نفسها، وإذا نظرنا أخيراً وقبل كل شيء إلى الوضع الحالي للأزمات المتشابكة المتراكمة، يمكن عندها عدّ الأزمة الكوكبية الإنسانية التي لا تزال غير قادرة على التعبير عن ذاتها، احتضاراً، هذا يعني حالة مأساوية ومشكوكاً فيها حيث تتناحر وتتشابك مظاهر الموت والحياة. ماضٍ ميت لا يموت، ومستقبل ناشئ لا يولد. هناك انتشار عالمي لقوى عمياء، ولردود الفعل الإيجابية، والجنون الانتحاري، ولكن هناك أيضاً حركة عالمية للمطالبة بالسلام والديمقراطية والحرية والتسامح...

لا يقوم الصراع بين قوى التوحيد والتفكك فقط على مستوى العلاقات بين المجتمعات والأمم والجماعات العرقية والأديان، بل يظهر داخل كل مجتمع، داخل كل فرد. إنه ليس فقط صراعاً بين توجهات حضارية وتوجهات همجية، بل هو أيضاً صراع بين الأمل الجماعي بالبقاء ومخاطر الموت الجماعي. ذلك هو كفاح القرن العشرين، هذا الذي يوشك أن ينتهي، دون أن يكون بالضرورة الكفاح الأخير الذي سيخرجنا من العصر الحديدي الكوكبي.

تعمل اليوم كل طرائق الحماية القديمة، التي كانت تحمي الثقافات، ضد الإنسانية ومن أجلها. "مع" الإنسانية للحفاظ على التنوع. "ضد"

الإنسانية بالوقوف في وجه الوحدة. أصبحت وسائل الحماية الوطنية تدميرية أكثر منها للحماية. ولم تكتسب البشرية بعد، ككيان كوكبي، أي حماية مناعية ضد الشرور الداخلية التي تتآكلها.

الاحتضار الكوكبي ليس فقط إضافة الصراعات التقليدية إلى تناحر الكل ضد الكل بالإضافة لمختلف أنواع الأزمات بالإضافة للمشكلات الجديدة التي لا حل لها، **بل هو كيان كلي يتغذى على هذه المكونات المتضاربة الإشكالية والمسببة للأزمات، ويقوم في المقابل بتغذيتها وزيادتها** ويحمل هذا الكيان في طياته مشكلة المشكلات: عجز العالم أن يصبح عالماً، وعجز البشرية أن تصبح إنسانية.

هل نحن منخرطون حتماً في سباق كارثة عامة؟ من أي مخاضٍ نتوقع الخلاص؟ هل سنواصل في أية حال هذه (cahin-caha [1])؟ نحو قرون وسطى كوكبية من النزاعات الإقليمية، والأزمات المتعاقبة، والاضطرابات، والانحدارات، مع الحفاظ ربما على بعض الجزر الصغيرة. ربما تكون معاناة الموت والولادة هي الطريق، مع مخاطر لا حصر لها، نحو التحول العام... شريطة وعي هذه المعاناة.

---

(١) Cahin-caha: تُستخدم للتعبير عن الأمور التي تجري على نحو متباين إذ نقوم بها بصعوبة مراراً وتكراراً وكرهاً- المترجمة

-٤-

أهدافنا الأرضية

الوعي بجذورنا الأرضية ومصيرنا الكوكبي هو شرط ضروري لتحقيق الإنسانية وبناء حضارة الأرض. وبهذا المعنى تكون إعادة تأصيل جذورنا الأرضية هي غاية بحد ذاتها. الأشياء ترتبط ببعضها: إن التحضير لبلوغ أهدافنا الأرضية يتطلب المعرفة والعُرفان ب dasein[1] الكوني، بهويتنا الأرضية، ومكانتنا الأنثروبولوجية وبهذا العصر الحديدي الكوكبي.

المحافظة / التغيير الجذري

من الآن فصاعداً يجب إيجاد رابطة توحد هدفين أرضيين يبدوان متعارضين. الأول هو بقاء الإنسانية. والثاني هو متابعة السعي لتحقيق الأنسنة.

الهدف الأول هو المحافظة: إنها مسألة الحماية والحفاظ ليس فقط على التنوع الثقافي والطبيعي الذي تقضي عليه عمليات من المجانسة والدمار بلا

---

(١) (الوجود هنا) (الكينونة هنا)- مفهوم أساسي في فلسفة هايدجر الوجودية ولاسيما في كتابه (أعظم ما أبدع الوجود والزمن) يستخدمه للإشارة إلى تجربة الوجود الذي يَعي ماهيته . حيث يجب مواجهة قضايا مثل الموت أو مفارقة العيش في علاقته مع الآخرين في حين يكون وحيداً مع الذات في نهاية المطاف. - المترجمة

حدود، وحماية ليس فقط الأصول الحضارية التي تهددها عودة البربرية وانتشارها، لكن أيضاً الحفاظ على الحياة البشرية المهددة بالأسلحة النووية وتدهور المحيط الحيوي، وهوتهديد ديموقلي مزدوج ناتج عن البربرية الكبيرة. هذه البربرية القوية، دعونا نتذكر، هي نتاج التحالف بين قوى الهيمنة والعنف والكراهية، العنيفة دوماً، التي اجتاحت وجودنا منذ بدأيات تاريخ البشرية، و قوى البيروقراطية التكنولوجية الحديثة عديمة الهوية والعدائية التي تهدف لإلغاء الإنسانية والطبيعة.

الهدف الثاني ثوروي (نحن نهمل هنا عمداً «صفة» الثورية، التي أصبحت رجعية وملوثة بالهمجية). انها مسألة تهيئة الظروف التي يمكن فيها للإنسانية تحقيق ذاتها على هذا النحوفي مجتمع ما، أو تجمع أممي ما. لا يمكن الوصول إلى هذه المرحلة الجديدة إلا من خلال إحداث ثورة في العلاقات بين البشر في كل مكان، انطلاقاً من علاقات الإنسان مع ذاته، ووصولاً إلى علاقة الإنسان مع الآخر، وانطلاقاً من علاقات البشر القريبين من بعضهم، وصولاً إلى العلاقات بين الأمم والدول. ويشمل الأمر أيضاً العلاقات بين البشر والتكنولوجيا - البيروقراطية، بين البشر والمجتمع، بين البشر والمعرفة، بين البشر والطبيعة.

وهنا تأتي مفارقة حتمية: يحتاج المنطق المحافظ إلى التغيير الجذري لضمان استمرار التأنسن (الأنسنة).وكذلك يحتاج التغيير الثوري إلى المنطق المحافظ للحفاظ على البشر، ليس ككائنات بيولوجية فحسب، لكن أيضاً على انجازات إرثهم الثقافي والحضاري.

المقاومة

تظهر مفارقة ثانية، وهي الحتمية المزدوجة المتناقضة ظاهرياً بين المحافظة / التغيير الجذري إنها المفارقة ما بين التقدم / المقاومة .

وعلى عكس ما يبدو منذ عام ١٩٤٤ لم يفقد واجب المقاومة موضوعه (هدفه الذي يحركه - المترجمة) (objet)[١]، لكن توجب مارستها بأشكال جديدة، ضد الشمولية الستالينية (يشرفني انني أسهمت بها بعد أن قاومت النازية - المؤلف). يجب أن تُستانَف المقاومة بعد القضاء على الشمولية، بأشكال مختلفة تماماً.

يجب أن نستمر في المقاومة بمعنى أن نبقى في أهبة الاستعداد على جميع الجبهات ضد عودة وانتشار البربرية الكبيرة. لا يقتصر مفهوم المقاومة على مقاومة المحتل الأجنبي أو الديكتاتورية القاسية. عانى ربيع الشعوب ١٩٨٩-١٩٩٠ من «التجميد»، وتم تدمير كل بذور الحرية، وعادت الهمجية العظيمة عودة شنيعة.

بالتأكيد وجدت الإنسانية نفسها، في كل مكان، وفي كل زمان، مضطرة إلى مقاومة القسوة المنتشرة وليدة الخبث والازدراء واللامبالاة. وكلا نموذجي الهمجية الحالية هو تفاقمات متميزة من القسوة: قسوة الحقد والكره، وتأتي من البربرية الأولى، ويتم التعبير عنها بالقتل والتعذيب والغضب الفردي والجماعي، والقسوة عديمة الهوية وتأتي من البربرية التكنو- بيروقراطية. وتوضح فضيحة الدم الملوث في فرنسا أن السمة

---

(١) Objet: الأصل اليوناني هو (theme) ويعني كل ما هو موضوع تفكير أو تأمل أو نظر- المترجمة.

المميزة لهمجية النوع الثاني تكمن في الجمع بين التقننة، فرط التخصص، التقسيم، البيروقراطية، انعدام الهوية، التجريد، السلعنة التي تؤدي معاً ليس فقط إلى فقدان ما هوعام وأساسي، ولكن أيضاً فقدان حس المسؤولية، حس التعامل مع الحقائق الملموسة وفقدان الإنسانية.

لذا، باتت مقاومة الهمجية المزدوجة ضرورة أساسية وحيوية. ولا تشكل هذه المقاومة شرط لبقاء الإنسانية فقط، بل الضرورة التي تسمح بمتابعة التأنسن. وبالتالي نحن مضطرون إلى المقاومة والمحافظة والبحث عن التغيير الثوري في نفس الوقت. ومن هنا جاءت العلاقة التي كانت غير واردة قطعاً منذ زمن قصير:

المقاومة ←الحفاظ ← التغيير الثوري

السعي الواعي إلى التأنسن

سيؤدي السعي لتحقيق التأنسن إلى ولادة جديدة للإنسان. كانت الولادة الأولى هي بدايات التأنسن قبل ملايين السنين؛ وجاءت الولادة الثانية من خلال ظهور اللغة والثقافة، وربما من الإنسان المنتصب (Homo erectus)؛ الولادة الثالثة هي ظهور الإنسان العاقل والمجتمع القديم، أما الولادة الرابعة فهي ولادة التاريخ والتي تضم في وقت واحد ولادة الزراعة وتربية المواشي وظهور المدن والدول[1]. ستكون الولادة الخامسة الممكنة، وغير الواردة بعد، هي ولادة البشرية، وهي وحدها من شانها ان تُخرجنا من عصر الحديد الكوكبي، من عصور ما قبل التاريخ للروح البشرية، القدرة

(١) انظرإدغار موران الأنموذج المفقود، سبق ذكره، ص ١٨٩-٢٠٨.

على نشر الحضارة في الأرض و الاشراف على ولادة المجتمع الكوكبي، تَجّمع الأفراد الكوكبي الذي يحتضن الأفراد والأعراق، والأمم.

من التطور - المشكلة إلى التطور الإنساني

يجب أن يُنظر إلى السعي نحوالأنسنة بحسبانه تنمية لقدراتنا النفسية والروحية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية. هنا، نجد فكرة التطور، لكنها أكثر ثراءً من تلك غير المكتملة والمشوهة، والتي تم الترويج لها ونشرها منذ الخمسينيات [1]، التي يجب إعادة التفكير فيها على نحو كامل وجذري[2]

يجب بناء التنمية بطريقة أنثروبولوجية، لأن التنمية الحقيقية هي التنمية البشرية. لذلك يجب أن نحرر فكرة التنمية من "غثاثتها" الاقتصادية. يجب ألا تقتصر التنمية على النمو الذي، كما قال جان ماري بيلت، "أصبح نمطاً قديماً للنمو"، يجب أن تصبح فكرة التنمية متعددة الأبعاد، وأن تتخطى وتحطم ليس فقط الأنماط الغربية الاقتصادية ولكن أيضاً الحضارية والثقافية التي تدعي أنها تحدد معنى التنمية ومعاييرها. يجب إجراء فصل نهائي مع مفهوم التقدم باعتباره يقيناً تاريخياً لجعله احتمالاً غير مؤكد، ويجب إدراك أنه لا يوجد أي تطور يستمر إلى الأبد، مثله مثل كل الكائنات الحية والبشرية فإنه يخضع لمبدأ التدهورويجب تجديده باستمرار.

---

(١) كما رأينا في الفصل ٣.

(٢) حول تطور أزمة التنمية، انظر إدغار موران، علم الاجتماع، سبق ذكره، ص. ٤٤٣-٤٦٠.

التنمية، الرأسمالية، الاشتراكية

كان ممكناً الاعتقاد أن الاشتراكية أو الرأسمالية هما العاملان الحقيقيان للتنمية، وأن كلاً منهما لدى أتباعهما، يتميز بعبقرية إلهية. قدم كلاهما صيغة للتنظيم الاقتصادي (الخصخصة واقتصاد السوق للرأسمالية، واقتصاد الدولة والاقتصاد المخطط للاشتراكية) وادعيا ضمان التنمية الاجتماعية والبشرية. أظهرت الصيغة المفترضة أن تكون الاشتراكية، لكن تبين في الواقع أنها شمولية وأنها،علاوة على ذلك، تزيد من حدة جميع المشكلات التي تسعى لحلها (مثل العداوات القومية والإثنية والدينية) وأن ديمقراطيتها المزعومة جعلت أي ممارسة ديمقراطية مستحيلة. الرأسمالية، كما توقعها كارل ماركس بفعالية، كفلت تطوير القوى المنتجة بالطرائق الهمجية، ولا يمكن اعتبارها قطعاً بذاتها أوبمعزل عن العالم الخارجي كمفتاح للتنمية البشرية. وبالمثل فإن الاعتقاد بأن السوق يحمل في ذاته جميع الحلول لمشكلة الحضارة هو خطأ اقتصادي اختزالي كبير. لم يتحقق التقدم الاجتماعي في هذا القرن إلا من خلال حوار الأطراف المتناقضة والمتكاملة، أي بين رواد الأعمال والأحزاب ونقابات العمال وفي سياق ديمقراطي. وفي الواقع، لا يمكن تعريف المجتمعات الغربية فقط بمصطلح الرأسمالية: فهم في الوقت نفسه وطنيون متعددو الثقافات وديمقراطيون وتعدديون، ورأسماليون. باختصار كانت الاشتراكية والرأسمالية مجرد خرافات تنمية. الاشتراكية في نسختها السوفياتية كانت في حالة نزاع، وفي نسختها الاشتراكية الديمقراطية كانت منهكة لا أمل فيها. وكانت الرأسمالية تتمتع بصحة ظاهرية فقط وظهرت كصيغة سحرية لحل جميع المشكلات لفترة قصيرة للغاية. لا يمكن تصور مفاهيم الاشتراكية والرأسمالية على أنها مفاهيم

استبدادية وإمبريالية واختزالية. إنما، إذا نظرنا إلى الطاقة والمخترعات الاقتصادية للرأسمالية، وإلى خصائص السوق ذاتية التنظيم وذاتية التجدد[1]، نرى أنه يجب دمج كلتاهما في حضارة الكواكب وليس دمج الحضارة في الرأسمالية أوفي سياسة السوق. البربرية والحضارة موجودتان في كل ما هو اقتصادي فقط، وفي كل ما هو تكنولوجي فقط ولذا يجب أن يتم دمجهما وإخضاعهما للسياسة الإنسانية. إذا أخذنا في الاعتبار التطلعات للمزيد من المجتمعية والمزيد من الحرية التي أعطت مضمونها الأصلي لكلمة "الاشتراكية"، فإن سياسات التأنسن يجب أن تعبر عنها على نحو جذري. وإذا اعتبرنا أن الهدف من الاشتراكية هو إلغاء استغلال الإنسان للإنسان، فيجب عندئذ التوجه نحوه بصفته هدفاً قابلاً للتحقيق وليس مجرد وعود. لا ينبغي إغفال أن الهيمنة والاستعباد هما جذور الاستغلال الأنثروبولوجي الحيوي، الذي له في حد ذاته جذور عميقة في تنظيم المجتمعات التاريخية[2]، ولا يستطيع أي تغيير في النظام السياسي، ولا أي تغيير في الملكية الاقتصادية أن يؤدي إلى القضاء عليهما؛ بل يمكن أن يزيدهما سوءاً، كما تشهد بذلك الاشتراكية الشمولية. لذلك يجب بينما نواصل مقاومة أشكال الهيمنة والإخضاع والاستغلال المريعة، الانفتاح على الطموح الكبير لمشروع التأنسن بعمق وعلى المدى الطويل، دون أن ننسى أنه يستحيل القضاء على أسوأ جوانب وإمكانات الإنسان، وأسوأ أشكال العلاقات الاجتماعية لن يتم إلغاؤها أبداً، لكن يجب احتواؤها باستمرار والتحكم فيها بأفضل شكل: بالتحكم الذاتي.

---

(١) نحو السوق الموحد كنمط تنظيمي فظ، انظر إدغار موران، مقدمة للفكر المعقد، باريس ص ١٢١.

(٢) انظر إدغار موران، الأنموذج المفقود، مصدر سبق ذكره، ص. ١٨٩-٢٠٨.

تطوير التنمية في الدول المتطورة والنامية

تفترض التنمية، بالمعنى الذي قدمناه، ازدهار الاستقلالية الفردية في الوقت نفسه الذي تتزايد فيه المشاركة المجتمعية ابتداءً من المشاركة الجوارية (مع الاقربين) وانتهاء بالمشاركة الكوكبية. المزيد من الحرية والمجتمع، والأفراد والقليل من الأنانية.

إن فكرة التنمية هذه تجعلنا ندرك ظاهرة أساسية في العصر الكوكبي: يزداد تخلف البلدان المتقدمة تحديداً بازدياد تطورها التقني والاقتصادي.

التخلف في البلدان المتقدمة هوتخلف أخلاقي ونفسي وفكري. ثمة بالتأكيد عوز نفسي وعاطفي كبير إلى حد ما في جميع الحضارات، وهناك في كل مكان تخلف شديد في العقل البشري؛ ولكن من الضروري أن نرصد البؤس العقلي للمجتمعات الغنية، والعوز الشديد للحب في المجتمعات المتخمة، الخبث والعدوانية البائسة التي يبديها المثقفون والأكاديميون وانتشار الأفكار العامة الجوفاء والرؤى المشوهة، وضياع الجمعي، الأساسي، والإحساس بالمسؤولية. هناك نوع من البؤس الذي لا يتناقص مع تناقص البؤس الفيزيولوجي والمادي، بل يزداد مع الوفرة ومع توافر وسائل التسلية. هناك تطور محدد لعملية التخلف الفكري في ظل إعطاء أولوية للعقلانية، للتخصص، للتقييم الكمي للأشياء، للتجريد، وانعدام المسؤولية، وهذا كله يؤدي إلى تطور التخلف الأخلاقي.

هناك بالتأكيد جوانب أخرى في عالمنا المتقدم، ويسمح لنا التفكير المعقد، الحساس للتناقض أيضاً بمراعاة التطورات الحديثة في الاستقلالية الفردية والحريات والتواصل والانفتاح على العالم من خلال السفر والتلفزة

وتوافر الأمان والضمان الاجتماعي، على الرغم من بيروقراطيته، إلا أنه يعوض عن عدم المساواة ويخفف من المعاناة، يجب ألا ننسى أن الأفكار الجريئة والمختلفة وغيرالاعتيادية التي يتم القضاء عليها في مهدها في المجتمعات التقليدية، تنجح في التعبير عن نفسها في عالمنا. يجب رؤية كل جوانب واقعنا ورفض البديل الذي يتوضع بين النشوة والتباكي.

إعادة تقييم مفهوم التطور تقودنا أيضاً إلى إعادة التقييم النقدي لفكرة "التنمية" التي هي في حد ذاتها تقع ضمن دائرة التخلف. كما رأينا، تتجاهل فكرة التنمية الفضائل والغنى المميز للثقافات الألفية التي كانت ولاتزال الشعوب النامية تتناقلها. تسهم هذه الفكرة بقوة في موت هذه الثقافات، التي يُنظر اليها ككتلة من الخرافات والسخافات. تنظر الحضارات السجلّية المتعجرفة، بازدراء إلى حاملي الحضارات المتوارثة شفهياً وغير المكتوبة وتعدّهم بمنتهى البساطة أميين، وهذا ما يؤدي إلى تفاقم التخلف الأخلاقي والنفسي للأحياء الفقيرة.

من ناحية أخرى لا ينبغي إسباغ الكمال على الثقافات المختلفة عن ثقافتنا لمجرد اختلافها. وعلى عكس الفكرة القائلة بأن كل ثقافة في حد ذاتها مكتفية، لاحظ مارویاما[1] بدقة أن كل ثقافة يمكنها أن تعاني من خلل وظيفي، وسوء أداء وظيفي، ونقص أداء وظيفي، وسمية وظيفية (تسبب ضرراً أثناء أدائها لعملها). احترام الثقافات ضروري ولكن يجب أن ندرك أنها مثلنا نحن البشر غير مثالية وتحوي الكثير من العيوب مثلنا. جميع

(١) م. موراياما، "الجوانب غير الوظيفية، المغلوطة والسامة للثقافات"، التنبؤ التكنولوجي والتغيير الاجتماعي، ٤٢، ١٩٩٢. ص. ٣٠-

الثقافات مثل ثقافتنا، تشكل مزيجاً من الخرافات والخيال وثوابت لا تخضع للنقاش ومعرفة متراكمة ترفض النقد والأخطاء الجسيمة والحقائق العميقة ونظراً لصعوبة الإحاطة بهذا الخليط من النظرة الأولى، يجب الانتباه والحرص على عدم تصنيف المعرفة الألفية على أنها خرافات: فمثلاً طرائق تحضير الذرة في المكسيك، والتي نسبها علماء الأنثروبولوجيا إلى المعتقدات السحرية، إلى أن اكتشفنا أنها بهذه الطريقة سمحت للجسم (للعضوية) بهضم الليسين، وهي المادة الغذائية التي شكلت لفترة طويلة مصدر غذائهم الوحيد. وهكذا ما بدا لفترة طويلة "غير عقلاني" كان فعلياً ينم عن عقلانية حيوية أساسية.

علاوة على ذلك تقيم فكرة التنمية، بغض النظر عن كونها همجية، صلة أنثروبولوجية بين المأثور المتطور والمأثور المتخلف؛ وتشجع على تقديم مساعدات تقنية وطبية مفيدة، حفر الأبار وتطوير مصادر الطاقة ومكافحة الأوبئة ونقص التغذية، على الرغم من أنها تتم في ظل ظروف الاستغلال الاقتصادي والتدهور الطبيعي والتحضر المدني البائس وهو ما يسبب بحد ذاته معاناة جديدة[1]. كم من أشكال جديدة للبؤس جرى خلقها في أثناء مكافحة البؤس: بتدمير اقتصادات الإعاشة، عن طريق إدخال مفهوم النقود كعملة تبادل بينما كان السائد هو اقتصاد تبادل المواد والخدمات ! وبذلك فلقد أسهمنا في إنشاء تخلف وسوء تنمية ظناً منا أننا نقوم بالتطوير...

(١) مكن أن يثير اختراع التقنيات الوسيطة، على النحو الذي اقترحه وتخيله جان جيمبيل، وهو ما ينشئ صلة وصل بين التقنيات القديمة والتقنيات الأكثر تقدماً.

طالما أننا متخلفون فكرياً، فإننا سنزيد من التخلف في البلدان النامية. يتيح التخفيف من البؤس الفكري للدول المتطورة، في عصرنا العلمي، حل مشكلة البؤس المادي للدول النامية بسرعة. إنما، هناك عجز عن الانفلات من هذا التخلف العقلي، على وجه التحديد، وليس ثمة وعي لهذا التخلف ولهذا العجز أيضاً.

ونصل الآن إلى الفكرة الأهم ألا وهي أن التخلف الفكري والنفسي والعاطفي والإنساني السائد حتى في الدول المتطورة هو العقبة الأساسة في وجه التأنسن.

الوصول إلى التطور الفائق (الميتا - تطور)

التطور هوغاية، لكن يجب ألا تكون غاية قصيرة النظر أوغاية انتهائية. هل تخضع الغاية من التنمية نفسها لغايات أخرى.؟ وما هي هذه الغايات؟ أن نعيش الحياة بكل معناها. أم أن نعيش حياة أفضل؟

الحياة بمعناها أم الحياة الأفضل، ماذا يمكن القول؟ الحياة مع التفاهم والتضامن والرحمة، الحياة دون التعرض للاستغلال والإهانة والاحتقار. بمعنى آخر، فإن أهداف التنمية تدخل ضمن الضرورات الأخلاقية. وبالتالي يجب السيطرة على الاقتصاد وتشذيبه وفقاً للمعايير الأخلاقية البشرية. لذلك فان السعي نحوالأنسنة هو الذي يتطلب أخلاقيات التنمية، لاسيما مع إدراكنا لغياب أي وعد أويقين مطلق بقانون التقدم.

بالإضافة إلى ذلك، كما أشرنا، يجب دائماً بعث كل ما هومكتسب في كل ما هو إنساني، بما في ذلك التنمية المكتسبة أومكتسبات التنمية، وإلا سيكون

هناك دوماً خطر الانتكاس. فلنتذكر كل الانتكاسات التاريخية وكوارث الحضارة التي يصمم أصحاب عقيدة التقدم المضمون على تجاهلها ونسيانها.

يجب أن يكون تطور الأنسنة جزءاً من مصير عشوائي، هو سير دونما رؤية واضحة، نوع من التجوال والتيه البشري. يكوّن وعي مغامرة التشرد البشري مصدراً للإحساس بانعدام الأمن والقلق، لأنه يدمر اليقين والاستقرار، يدمر مفهوم المطلق، لأنه في هذه المغامرة لا توجد نهاية سعيدة، ويُعد تطوير الفردية مصدراً لانعدام الأمن والقلق المتزايد فيها. وما انتشار المظاهر العُصابية الهستيرية للمجتمع الاستهلاكي وآلاف الأشكال من الانشطة الترفيهية الحديثة الا الاستجابة لقلق الفردانية. علماً أن عملية تمويه وقمع هذا القلق لا تؤدي إلا إلى تعميقه أو تحويله إلى عدوانية وهذا يعيدنا إلى ضرورة إصلاح الفكر وإصلاح نمط الحياة الذي سنتحدث عنه لاحقاً[1].

هل يجب أن ندرج مصير الأنسنة بأكمله في فكرة التنمية؟

في الأهداف التي أشرنا إليها سابقاً لمفهومي الحياة بمعناها الحقيقي (أن نعيش حقا) والعيش بشكل أفضل، يوجد بحث عن شيء يتجاوز التنمية. إن مفهوم التطور يتجاوز التنمية: تطوير حب الموسيقا، على سبيل المثال، لا يعني أن تاريخ الموسيقا هو تطور تدريجي (تنموي)، وأن بيتهوفن أفضل من باخ، أو ريتشارد شتراوس من بيتهوفن. يجب إدراك قصور مفهوم التنمية، حتى عندما تكون بهدف الأنسنة، التي كما تعني حرفياً: تنشر وتوسع وتطور.

---

(١) انظر الفصل ٧، "إصلاح الفكر.

يجب صهرها جدلياً مع فكرة الإحاطة والتشابك، ما يمنحنا عودة إلى الأصل أو إلى ما قبل العالم (الوجود) المغمور في أعماق كياننا، والغوص في الأعماق القديمة، الإعادة والتكرار، نسيان الذات

الانغماس شبه المطلق في الحمّام الأمنيوسي المذهل، والعودة إلى الطبيعة، والرجوع إلى الأساطير، والبحث بلا هدف، والسلام دون كلام.

بالتأكيد! شيللي، نوفاليس، هولدرلين، بوشكين، رامبو، باخ، موزارت، شوبرت، بيتهوفن، موسورجسكي، بيرغ هم الثمار التاريخية للتطور الحضاري، لكن عملهم تجاوز هذا التطور، فهو يعبر عن وجودنا في العالم، إنه يتحدث إلينا عما لا يمكن تفسيره، إنه يقودنا إلى حدود النشوة، هناك حيث تتراخى الوطئة غير المحتملة للزمان والمكان. كل ما ينبثق من الأساسيات في تاريخ الفكر يخترق التاريخ، ويعود إلى الماضي حتى الأصول، وينغمس في أعماق مشاريعنا ويتطلع إلى ما وراء المستقبل.

هل بالإمكان بعد كل هذا اقتراح مفهوم التطوير الفائق، بمعنى التطور الذي يتجاوزالحد (ربما؟) الذي سيسمح التطور بالوصول إليه، والذي على أية حال يجب أن يكون متاحاً ؟

إعادة اكتشاف العلاقة الماضي / الحاضر / المستقبل

يعيش أي مجتمع وأي فرد من خلال جدلية العلاقة بين الماضي / الحاضر / المستقبل، حيث يتغذى كل مصطلح على الآخر. عاشت المجتمعات التقليدية حاضرها ومستقبلها تحت وصاية الماضي. ما زالت المجتمعات التي يطلق عليها تسمية النامية تعيش تحت وصاية المستقبل في

حين هي تحاول حماية هويتها الماضية وترتيب حاضرها بطريقة أو بأخرى. كانت المجتمعات الغنية تعيش بإمرة الحاضر والمستقبل، وكانت تنظر بفرح في البداية ثم بحنين إلى ماضيها وهو يهرب مبتعداً.

إن العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، التي يعيشها كل إنسان بشكل مختلف حسب المرحلة الزمنية وحسب الأفراد، تدهورت في كل مكان تقريباً لصالح مستقبل مفرط التضخم. في المجتمعات الغربية تسبب أزمة المستقبل تضخم الحاضر وإعادة البحث في جذور الماضي. إنها تؤدي في كل مكان إلى عمليات إعادة بحث في الجذور العرقية و/أو الدينية والأصولية (الإسلام ليس إلا واحداً منهم) وهي الاستجابة لأزمة المستقبل وبؤس الحاضر. في كل مكان تقريباً باتت العلاقة الحيوية بين الماضي / الحاضر / المستقبل جافة أوضامرة أومتعذرة. لذلك نحتاج إلى تنشيط هذه العلاقة التي تحترم الأبعاد الثلاثة دون توسيع نطاق أي منها. وهكذا، يجب اعتماد تجديد وتعقيد العلاقة بين الماضي / الحاضر / المستقبل كأحد أهداف سياسة الأنسنة. يمكن إعادة تجديد جذور الماضي بفضل ومن خلال احترام مبدأين . الأول هوالاعتراف بحق الوجود لجميع الثقافات، لكن دون تناسي أن هذه الثقافات ليست كيانات وصلت حد الكمال: فلكل منها أوجه قصورها وتخبطها، وعوزها الخاص، لكن مزايا هذه الثقافات لامثيل لها فيما يتعلق بالازدهار الوجودي لمواطنيها. يجب ألا ننسى أيضاً أن كل الثقافات المتميزة قد اكتسبت تفردها من تلاقي، وامتزاج العناصر الغريبة عنها، التي غالباً ما تأتي من ثقافة الخصم أوثقافة الشعوب المستعمِرة؛ وككل الأجناس الحية فقد تغيرت الثقافات وخضعت لطفرات، وأصبح الكثير منها أكثر

تعقيداً من خلال صهر وامتصاص العناصر التي شكلت إزعاجاً لثقافتها أوتهديداً لها في البداية. ومهما كان الأمر يصبح تجديد الأصول العرقي والوطني والديني رجعياً بمجرد تصلبه في الماضي، ما يؤدي إلى ضمور العلاقة مع الحاضر والمستقبل.

المبدأ الثاني في إعادة تجديد الجذور هو مبدأ إعادة الاستثمار الضروري في المنحى (arkhe) الأنثروبولوجي / البيولوجي / الأرضي، والذي رغم كونه مفهوماً مشتركاً عاماً لدى جميع البشر لا يمنع بأي حال من حصول إعادة تجديد متميزة. الماضي ليس فقط ماضياً فريداً لجماعة عرقية أو لأمة، بل هو الماضي الأرضي الإنساني المؤنسن، الذي يجب أن نتمكن من تملكه والتماهي معه.

لا يمكن التضحية بالعلاقة مع الحاضر، الحاضر الذي يمثل العيش والاستمتاع، من أجل ماضٍ استبدادي أو مستقبل وهمي. هذه العلاقة تشمل اليوم المشاركة عن بعد في حياة الكوكب وقدرة التواصل مع دوائر الثقافات المختلفة في العالم وكذلك في فولكلور وثقافة الكوكب نفسه. من ناحية أخرى وقبل كل شيء، في زمن الحاضر تحديداً يتم تحقيق رفاه العيش الذي يتجاوز التنمية. تعيد الدورة حوار الماضي / الحاضر / المستقبل القوة الملموسة لمتعة الحياة التي هي محور الحاضر. كما قال القديس أوغست: "هناك ثلاثة أزمنة: حاضر الماضي، وحاضر الحاضر، وحاضر المستقبل".

أخيراً، يجب إعادة تنشيط العلاقة مع المستقبل طالما أن السعي نحوالأنسنة يحمل التوتر نفسه الموجود في البحث عن المستقبل. لم يعد المستقبل هو المستقبل الوهمي للتقدم المضمون. إنه مستقبل عشوائي وغير مؤكد، لكنه مفتوح لإمكانات لا حصر لها، حيث يمكن لتطلعات الإنسان

ورغباته أن تبرز لكن دون إعطاء أي وعود بتحقيقها. في هذه الشروط الجديدة، فإن استعادة المستقبل لها أهمية قصوى وضرورة ملحة للبشرية.

العلاقة الداخلية / الخارجية

كان الإنسان مُستقطَباً دوماً من قطبين متناقضين. الأول، المنفتح، هو الفضول نحو العالم الخارجي والذي أصبح سفراً واستكشافاً وبحثاً علمياً، هذا البحث الذي توسع اليوم ليشمل استكشاف الكون. القطب الآخر، انطوائي، يتجه نحو الحياة الداخلية، والتفكير، والتأمل. منذ فجر الحضارات، كان هناك علماء فلك يَشخَصون نحوالسماء بينما يقوم المتأملون باكتشاف الروح. كان هناك التقنيون وكان هناك المتصوفون. وكان هناك أيضاً ثمة إمكانية في تبدل الميول.

اليوم، نَمتْ الميول الكونية: السفر، مغادرة الأرض، الذهاب إلى كواكب أخرى، إلى أبعد من ذلك... لكن إنشاء المستعمرات في الفضاء يفترض وجود التضامن الأرضي. حتى في أجمل فرضية للخيال العلمي المتمثلة في تكوين كونفدرالية كبيرة من المستعمرات الآتية من الأرض، فإن هذه المستعمرات ستظل أكثر من أي مكان في الوطن الأم: في الأرض لأنه المكان الذي لا توجد فيه حاجة إلى النظم الاصطناعية وقباب الأكسجين والدفيئات العملاقة للنباتات والحيوانات...

إن الالتزام الداخلي الذي جرى قمعه وتهميشه لفترة طويلة في الحداثة الغربية، بدأ يسمع دعوات جديدة: هنا وهناك، نود الهروب من النشاط، والإثارة، والترفيه، يطمح المرء إلى التهدئة الداخلية، إلى الصفاء الذي لا يأتي

من المخدرات لكن من تهذيب وتشذيب النفس. إن تنظيم وترتيب كوكب الأرض لا يعني التخلي عن استكشاف العالم المادي واحتمال السفر الكوني، ولا يعني كذلك التخلي عن البحث الداخلي. يجب متابعة كلا التوجهين، واحدهما مع الآخر انطلاقاً من الأرض، واحدهما مع الآخر للتواصل مع ما هو الحياة الأخرى (الغيبيات).

ترقية الحضارة

إن السعي وراء الأنسنة الذي سيجد مخرجاً من عصر الحديد الكوكبي، يدفعنا إلى إصلاح الحضارة الغربية، التي باتت كوكبية في ثرائها كما في بؤسها، من أجل بناء عصر الحضارة الكوكبية.

ليس هناك ما يصعب تحقيقه أكثر من الرغبة في حضارة أفضل.

هذا الحلم بالتنمية الشخصية لكل فرد، وبقمع جميع أشكال الاستغلال والهيمنة، والتوزيع العادل للثروات، والتضامن الفعال بين الجميع، ونشر السعادة، قاد أولئك الذين أرادوا فرضه بالقوة إلى استخدام الوسائل الهمجية التي دمرت مشروعهم التحضري. لقد أدى كل قرار بقمع النزاعات والاضطرابات، وتحقيق الانسجام والشفافية، إلى نقيضه، والنتائج الكارثية واضحة[1]. كما أظهر لنا تاريخ هذا القرن، فإن الرغبة في إقامة جنة الخلاص على الأرض انتهت ببناء الجحيم. يجب ألا نقع مرة أخرى في مطب السعي نحو حلم الخلاص الدنيوي. إن الرغبة في عالم أفضل، وهوهدفنا الرئيس،

---

(١) الذي يشجع الشكوك والعدمية، وقبول النظام والاضطراب الراسخ، والاعتقاد بان حتمية الظلم أوالشر يجب أن تجبرنا على التقبل بهدوء كل الشر(الأذى) الذي يحدث. ومن الواضح ان خيبة الأمل هذه تزيد من صعوبة تصور وإجراء أي إصلاح للحضارة.

لا تعني تحقيق الأفضل في جميع العوالم. وتالياً، هناك مشكلة أساسية، سننظر فيها لاحقاً: مشكلة العقبات الهائلة التي تتعارض مع حضارة الحضارة وتهدد حتى إمكان وجود سياسة حضارية.

الديمقراطية المُمَدّنة

ولدت الديمقراطية على نحو هامشي في التاريخ، إلى جانب الإمبراطوريات الاستبدادية، والتيوقراطيات، والطغيان، والأنظمة الطبقية والأرستقراطيات. وتبقى هامشية على الرغم من عالمية الطموح الديمقراطي. وهي النظام السياسي الأكثر تحضراً.

الديمقراطية الحديثة هي نتاج تاريخ مشكوك فيه يحتضن التقدم وفيه النكسات، وفيه ظهرت مبادؤها وتم التأكيد عليها وتطويرها. مبدأها الأول هو مبدأ سيادة الشعب الذي تضمن على الفور، حرصاً على هذه السيادة، حدود لذاتها، عن طريق إطاعة القوانين والقواعد، والنقل الدوري للسيادة إلى المُنتَخَبين. وكانت حكراً في البداية على البشر الأحرار، لكنها عَمَمت مبدأها عندما تم الاعتراف بأن جميع البشر أحرار وأنهم متساوون في الحقوق. بعد ظهور ديمقراطية المدينة، جاءت ديمقراطية الأمة التي جمعت بين مئات الآلاف وحتى الملايين من المواطنين وأدت إلى إنشاء هيئة برلمانية، وهي مؤسسة الفصل بين السلطات، من أجل حماية نفسها من الانتهاكات، التي ستأتي حتماً نتيجة تركيز السلطات ومن أجل ضمان الحقوق الفردية وحماية الخصوصية. أرست الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ المعايير الديمقراطية، التي استكملت عام ١٨٤٨ في شعار الثالوث: الحرية والمساواة والإخاء. هذا الثالوث معقد لأن مكوناته متكاملة ومتناقضة في آن واحد: الحرية

وحدها تقتل المساواة والإخاء، والمساواة المفروضة تقضي على الحرية دون تحقيق الأخوّة، والأخوّة- وهي ضرورة أساسية لوجود تاريخ من الرابطة المجتمعية بين المواطنين[1]- يجب أن تنظم الحرية وتقلل من عدم المساواة، لكن هذه الأخوّة لا يمكن بناؤها ولا تحقيقها بموجب قانون أو مرسوم. وجاءت الاشتراكية أخيراً لتقترح نفسها "كمنهج ديمقراطي" ليس على التنظيم السياسي فحسب، بل على التنظيم الاقتصادي / الاجتماعي للمجتمعات أيضاً.

يمكن للمرء أن يعتقد أن المبادئ التي أشرنا إليها للتو ستكون كافية لتحديد وضمان الديمقراطية. ولكن تطلب الأمر خوض التجربة المعاصرة للحكم الشمولي لتظهر سمة أساسية، تم التقليل من شأنها وحتى إخفاؤها، ألا وهي الارتباط الحيوي للديمقراطية مع وجود التنوع والصراع.

تفترض الديمقراطية وتغذي تنوع المصالح والفئات الاجتماعية، وكذلك تنوع الأفكار، ما يعني أنه يجب ألا تفرض ديكتاتورية الأغلبية، والاعتراف بحق الأقليات والمحتجين، والسماح للأفكار الهرطقية والانحرافية بالتعبير عن نفسها. إنها تحتاج إلى توافق في الآراء بشان احترام المؤسسات والنظم الديمقراطية، وفي الوقت نفسه تحتاج إلى تنوع بل حتى تضارب الأفكار والآراء التي تضمن لها الحيوية والإنتاجية. إلا أن حيوية وإنتاجية الصراعات لا يمكن أن تتحقق إلا باتباع قواعد الديمقراطية، التي تنظم الخصومات عن طريق استبدال المعارك الجسدية بمعارك الأفكار،

---

(١) راجع إدغار موران مقدمة في الفكر المعقد، سبق ذكره، فقد تم توضيح كيف أن الإخاء أمر حيوي اجتماعياً لزيادة ترابط المجتمعات.

وتحدد الفائز المؤقت في هذه الخصومات من خلال المناظرات والانتخابات الديمقراطية، التي تتطلب توافق الآراء وتصارعيتها، هي أكثر بكثير من مجرد مارسة سيادة الشعب. إنها نظام معقد من التنظيم والتحضر السياسي الذي يُغذي (ويتغذى من) استقلال عقول الأفراد وحرياتهم في الرأي والتعبير، وضمان وجود المثل الثالوثي الأعلى: الحرية، المساواة، الإخاء.

يحتاج هذا النظام إلى ظروف معقدة ليتخلق ويتأصل. ترتبط الديمقراطية بالظروف التي بدورها ترتبط بمارسة الديمقراطية (بناء الروح المدنية، قبول شروط وأحكام اللعبة الديمقراطية). ومن هنا تأتي هشاشتها. ومن هنا نرى صعوبة إرساء الديمقراطية بعد المرور بالتجربة الشمولية. تحتاج قواعد وأصول الممارسة الديمقراطية إلى ثقافة سياسية ومدنية حالت عقود من الشمولية دون تكوينها؛ تثير الأزمة الاقتصادية فائضاً من التصارعية التي تهدد بخرق الحكم الديموقراطي، في حين أن التعصب القومي يفضل فرض دكتاتورية الأغلبية الهائجة ضد الأقليات المسالمة.

إلا أن الغرب نفسه يعاني من مشكلات ديمقراطية خطيرة، ليس فقط لأن إضفاء الطابع الديمقراطي على ديمقراطياته لم يكتمل ولديه أوجه قصور وفجوات، ولكن أيضاً لأن عمليات الانحدار الديمقراطي نشأت هناك.

بداية، فإن تطور التكنوبيروقراطية يؤسس حكم الخبراء في جميع المجالات التي كانت حتى ذلك الآوان تشكل جزءاً من المناقشات والقرارات السياسية. وهكذا فإن التكنولوجيا النووية تمنع المواطنين والبرلمانيين بل حتى الوزراء من اتخاذ أي قرار في استخدام هذا السلاح، إذ يتم اتخاذ قرار استخدام هذا المصدر الجديد للطاقة من مستوى أعلى من المواطنين.

لقد غزت العلوم التكنولوجية حتى الآن فقط نطاق العلوم البيولوجية والاجتماعية، مثل تلك الخاصة بالأبوة والأمومة والولادة والموت، صار بالإمكان إنجاب طفل من دون أب محدد، وحتى يمكن أن يكون الأب ليس على قيد الحياة، وخلقه خارج رحم الأنثى الأم، وكذلك فحص وتحديد الأجنة المصابة بخلل ما للتخلص منها؛ سيكون من الممكن قريباً تشكيل أجنة حسب رغبات الوالدين ومناسبة للمعاييرالاجتماعية. لم تدخل هذه المشكلات في الوعي السياسي أو النقاش الديمقراطي، باستثناء الحق في الإجهاض. وبشكل أعمق، فإن الفجوة الآخذة في الاتساع بين العلوم التكنولوجية الخفية (السرية) والمتخصصة بدرجة عالية، و المعرفة المتاحة للمواطنين، تخلق ازدواجية بين أصحاب المعرفة - ذوي المعارف المجزأة والعاجزة عن وضع المعرفة ضمن السياق أوالمضمون العام - وبين الجهلة وهذا يعني كل المواطنين. الأمر الذي يقودنا إلى المطالبة بدمقرطة المعرفة، أي ديمقراطية معرفية. وقد تبدوهذه المهمة إما سخيفة للتكنوقراطيين وممثلي الطبقة العلمية، و إما مستحيلة للمواطنين انفسهم: لا يمكن القيام بها إلا من خلال تشجيع نشر المعرفة لما بعد المرحلة الدراسية وما وراء مباني الجامعة [1]، وقبل كل شيء من خلال تنفيذ إصلاح الفكر الذي يجعل من الممكن تراكم المعرفة.

في الوقت نفسه، فإن تكثيف التنافس الاقتصادي بين الأمم، وتحديداً في ظل الكساد الاقتصادي، يساعد على تحويل ما هو سياسي إلى اقتصادي، وتحويل الاقتصاد إلى مشكلة سياسية دائمة؛ ونظراً لوجود أزمة الأيديولوجيات

(١) تأسس بفضل وداخل مركز البحوث الوطني الفرنسي CNRS مكتب "العلم والمواطنين" هو بداية العمل في هذا الاتجاه.

والأفكار، يجد الاعتراف بأولوية الاقتصاد إجماعاً سهلاً يُضعِفُ الدور الحيوي للديمقراطية في صراع الأفكار.

في الوقت نفسه، تتراجع الديمقراطية اجتماعياً: بعد الحد من عدم المساواة الناتجة عن زيادة النمو حتى بداية السبعينيات، تقوم المنافسة الاقتصادية والبحث عن الإنتاجية برمي جزء متزايد من العمال خارج سوق العمل، وعملية عزل طبقة البروليتاريين (العمال وصغار الكسبة) والمهاجرين في تجمعات فقيرة خاصة بهم، تفصلهم عن الجزء الصاعد من المجتمع. لا يمكن للمتحكمين الاقتصاديين، القادرين على تكييف البشر مع التقدم التقني ببساطة، أن يقوموا بتكييف التقدم التقني مع البشر، إنهم عاجزون عن إيجاد حلول جديدة لإعادة تنظيم العمل وتوزيع الثروة. وهكذا يتشكل مجتمع "مزدوج" - والذي مع استمرار العجز الديمقراطي - سوف يصبح هو المجتمع الطبيعي.

ثمة تلازم بين انهيار آمال المستقبل الكبيرة، والأزمة العميقة للثوروية، فشل الإصلاحيين، تسطيح الأفكار البراغماتية اليومية، العجز عن صياغة رؤية شاملة وإجمالية، إضعاف صراع الأفكار لصالح صراع المصالح أوالعصبية الإثنية أوالعرقية، كل هذا يؤدي إلى التصلب الحزبي، ويضعف المشاركة، التي بمجرد حدوثها تساهم في ترسيخ هذا التصلب والضعف.

وفي هذا الانحدار الديمقراطي، تستمر مشكلات الحضارة الكبرى التي تحدثنا عنها أعلاه، وتتحول لتصبح مشكلات خاصة، بدلاً من تمثلها في الضمير السياسي وفي المناظرات العامة. وهكذا تُطرح على المجتمعات الغربية، بأشكال متعددة، المشكلة الرئيسة المتمثلة في القصور الديمقراطي،

أي الحاجة إلى تجديد الديمقراطية، في حين تعاني الديمقراطية في أرجاء الأرض الاخرى من مشكلة ولادتها المستعصية. فالمشكلة الديمقراطية هي مشكلة كوكبية بامتياز و ذات أشكال مختلفة.

يصطدم الطموح الديمقراطي المُعَمم بالعراقيل الديمقراطية المُعَممة. إنما الحضارة تعتمد على الديمقراطية التي بدورها تعتمد على الحضارة.

نجد أن أهدافنا متناقضة، ويتوجب علينا مقاومة القوى المهددة للديمقراطية والدفاع عنها ضد خطر التدمير من قبل هذه القوى، وأيضاً الرغبة في دفع عجلة الديمقراطية يعني إدراجها في الأهداف العميقة للإنسانية.

تحويل الأرض إلى اتحادية

يتَطلب تَحضّر الحضارة التواصل بين المجتمعات بل وأكثر من ذلك: ارتباطها العضوي على نطاق الكوكب، وهذا الهدف بات شديد الوضوح لا لبس فيه إطلاقاً لأن مفهوم الأمة في كل القارات قد استنفد وظيفته التاريخية المتمثلة في تحرير الشعوب المستعمرة أو الخاضعة و خاصة أن مفهوم الامة بدوره صار يبدو أكثر ميولاً لإخضاع الأقليات .

هل يجب إذاً تجاوز مفهوم الدولة القومية؟

لقد لاحظنا بالفعل انها تمثل قوة أنثروبولو- تاريخية كبيرة، قوة الأسطورة الأمومية والأبوية الوطنية، قوة دينية (عبادة الأمة المقدسة)، القوة المُنظِمة للدولة الحديثة. إن فشل الأممية في القرن العشرين، ووهن العولمة، وصعوبات تشكيل أوروبا، تكشف قوة الواقع متعدد الأبعاد للدولة القومية. واليوم، فإن المطلب العام للاعتراف بالسيادة للدول

متعددة الأعراق لا تعد ولا تحصى هوبالتأكيد مطلب مشروع، لكنه مطلب غير مشروع أيضاً لأنه يفترض ضرورة الغلبة للأكثرية.

بالإضافة إلى ذلك، يجب أن نُذكّر مرة أخرى، إذا أصبحت الدولة القومية قوية بما يكفي لتدمير البشر والمجتمعات على نطاق واسع، فلقد أصبحت في الوقت نفسه غير كفيَّة للتعامل مع المشكلات الكبيرة التي أصبحت كوكبية، كونها أكبر بكثير من الاهتمام بالمشكلات المحددة الخاصة بكل مواطن من مواطنيها. غيّرَ تطور العولمة الاقتصادية من الرائز المعتمد لقياس حجم المشكلات وأدى بحكم الواقع إلى تجاوز صلاحيات الدولة القومية. علاوة على ذلك، فإن هذه الدولة القومية باتت غير قادرة على حماية الهويات الثقافية الإقليمية التي تدافع عن نفسها بالتحديد عن طريق المطالبة بتقليص سلطات الدولة.

إن تجاوز مفهوم الدولة القومية يجب أن يؤدي في حد ذاته إلى تقليص بيروقراطية الدولة، الأمر الذي من شانه أن يكون مفيداً لمواطنيها. ذلك "أن كل دولة مُضطرة لمعاملة الإنسان الحر بحسبانه عجلة في آلة[1]".

لا يعني تجاوز الدولة القومية تصفيتها، ولكن يعني اندماجها في مؤسسات أكبر، وتقييد قوتها المطلقة التي تصل درجة التحكم بالحياة والموت للجماعات العرقية وللأفراد، من هذا المنطلق يمكن تصور مبدأ "حق التدخل" في سيادة الدول، لكن مع الحفاظ على جميع الإمكانات للدولة القومية لتذليل المشكلات على مستواها (مبدأ التبعية). لا يمكن الانتقال إلى ما هو أبعد من

(١) ما يسمى ببرنامج المثالية الألمانية المنسوب إلى هولديرلين وشيلينغ وهيغل.

الدولة القومية نحو الروابط الإنسانية الأكبر، ومن ثم الأكثر فعّالية، إلا إذا اعترف الأوروبيون بصفة الوطن الأم لأوروبا، الأفارقة إلى أفريقيا، وأمريكا اللاتينية لأمريكا، وما إلى ذلك، وإذا استطاع كل فرد الاعتراف بهذه الصفة للأرض تُصبح هي الأم والوطن لجميع البشر.

في أي حال، فإن الترابط الكوكبي هو الحد الأدنى من المتطلبات المنطقية لعالم صغير ومعتمد على بعضه. من الضروري بالفعل، ضمن هذا التجمع المطالبة بالمواطنة الكوكبية، التي من شانها أن تعطي وتضمن للجميع حقوقاً أرضيةً. هذه الفكرة التي تبدو اليوم مثالية، تم إدراكها من خلال مرسوم كراكلا **(٢١٢)**[1] الذي منح الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية التي كانت آنذاك تمثل في عينه العالم أجمع.

يجب أن تظهر جغرافية سياسية جديدة. لن تركز السياسة الجغرافية لكوكب الأرض على مصالح الأمم والإمبراطوريات، ولكنها ستكون لا مركزية وتخضع لضرورات المصلحة المشتركة؛ ليس بغرض إنشاء مناطق نفوذ استراتيجية واقتصادية، بل بهدف إقامة روابط تعاون بين المناطق. يمكن لهذه الجغرافيا الجديدة أن تفرض نفسها فقط من خلال الجمع بين طرائق متعددة.

يجب أن تكون الأمم المتحدة مركز هذه اللامركزية، في الوقت الذي تتدخل فيه قوات الشرطة الكوكبية عندما تتعدى دولة على دولة أخرى أو

---

(١) منح الإمبراطور كراكلا الجنسية الرومانية للأحرارفي جميع أنحاء إمبراطوريته من أجل زيادة الضرائب و جعل بموجبه كل سكان الإمبراطورية سواسية يخضعون لقانون واحد ضَمَنَ الحرية و الحقوق الأساسية حتى أنه منح المساواة بين نساء الإمبراطورية والنساء الرومانيات- المترجمة

شعب أو جماعة عرقية، في انتظار أن تكون قادرة على امتلاك ما يكفي من القوى الديمقراطية، وما يكفي من قواتها الخاصة بها لاستعادة الديمقراطية أينما يتم الإطاحة بها. ينبغي لنا أيضاً أن نشجع على تشكيل كيانات كوكبية جديدة مرتبطة بالأمم المتحدة، وتحديد البرامج المشتركة للمشكلات الحيوية، كما حدث في ريو عام ١٩٩٢، وتطوير كيانات عبر- أممية وعبر- دولية، وما فوق الدولية، والاستفادة من التجارب التاريخية كتجارب مدن هانزا، والإمبراطورية الرومانية- الجرمانية المقدسة، والإمبراطورية الرومانية، ليس لتقليدها، بل لتحفيز الابتكارات المتوقعة بتذكرها.

نحتاج لتحقيق هذه الفرضيات، كما قال جان ماري بيلت إلى "الرأي العام العالمي". ستكون هناك حاجة لمواطنة الكواكب، وضمير مدني كوكبي، ورأي فكري وعلمي كوكبي، ورأي سياسي كوكبي. نحن لا نزال في البدايات. ومع ذلك فهذه هي الشروط المسبقة الضرورية للسياسة الكوكبية، والتي هي بدورها شرط لتكوين هذه الآراء وهذا الوعي.

لا يمكن أن تكون الرابطة الإنسانية التي نتطلع إليها (كما قلنا في مكان آخر[1]) "تستند إلى أنموذج الهيمنة للرجل الأبيض، البالغ، التقني، الغربي؛ على العكس من ذلك، يجب أن تكشف وتوقظ المكونات الحضارية من النساء والشباب والشيوخ والشعوب المتعددة الأعراق والثقافات... ". ستكون مسألة التحرك نحومجتمع عالمي قائم على روعة التنوع، وليس على انعدام روعة التجانس، وهو ما يقودنا إلى ضرورة مزدوجة، تحمل معها تناقضها، والتي لا يمكن تخصيبها إلا في تناقضها: ١) الحفاظ في كل مكان

(١) إدغار موران وبياتيللي بالماراني، وحدة الانسان، سبق ذكره ص ٣٥٠-٣٥٥.

على الوحدة وتوسيعها ونشرها وتطويرها؛ ٢) الحفاظ في كل مكان على التنوع وتوسعيه، ونشره، وتطويره.

ومن هنا تأتي المفارقة: يجب علينا الحفاظ على الثقافات والانفتاح عليها في نفس الوقت. مع ذلك، هذا ليس شيئاً جديداً: ففي جذور وأصول جميع الثقافات، بما في ذلك الثقافات التي تبدو فريدة في نوعها، هناك تلاقٍ، وتكوين، وتوفيق، وتهجين. لدى جميع الثقافات القدرة على استيعاب ما هو، بالنسبة إليهم، غريب في البداية، على الأقل حتى عتبة معينة، هذه العتبة تكون متغيرة وفقاً لحيوية هذه الثقافات، والتي إذا تم تجاوزها يمكن أن تؤدي إلى امتصاص و/ أو انصهار بعض هذه الثقافات في الثقافة الغريبة عنها.

وبالتالي، وفقاً لضرورة مضاعفة معقدة لا يمكن إلغاء تناقضها الداخلي، هل يمكن التغلب على هذا التناقض وهل هو ضروري لحياة الثقافات نفسها؟ يجب علينا الدفاع عن التَمّيز الثقافي لكل ثقافة وفي الوقت نفسه تعزيز التهجين والمصالبة الثقافية: يجب أن نربط بين حماية الهويات ونشر العالم المهجن أوالكوزموبوليتان[1] الذي يميل إلى تدمير هذه الهويات.

كيف يمكن الاندماج دون الانصهار؟ تبرز المشكلة بشكل مأساوي مع الثقافات القديمة مثل ثقافة شعب الإنويت (سكان الاسكيمو والتوندرة). يجب أن نعرف كيف نجعلهم يستفيدون من مزايا حضارتنا: الرعاية الصحية، التقنيات، وسائل الراحة، إلخ. إنما أيضاً معرفة كيفية مساعدتهم في الحفاظ على أسرار الطب الشعبي الخاص بهم، ومهارات

(١) الكوزموبوليتان هي نزعة تميل إلى عدّ الإنسانية أسرة واحدة، وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعاً، دون حسبان لاختلافهم في اللغة أو الجنس أو الوطن . - المترجمة

الشامانية، ومهاراتهم في الصيد، ودرايتهم بالطبيعة، إلخ. سوف يتطلب الأمر مهربين مثل جان مالوري، الذين يجب آلا يكونوا بأي شكل من الأشكال لا من المبشرين الدينيين ولا من العلمانيين الذين يأتون لجعل هذه الشعوب تحمر خجلاً من معتقداتها وعاداتها...

يجب ألا ننسى أن التهجين كان دوماً قادراً على خلق التنوع مع تعزيزه للتواصل الداخلي للثقافة. قام الإسكندر الأكبر، في كل مدينة آسيوية غزاها، بتزويج بضع مئات من الفتيات الشابات من سكان آسيا الأصليين محاربيه المقدونيين، وكانت المدن التي عبرها أو خلقها نوىً لحضارات رائعة هلنستية ومصادر لفن مُهجّن يوناني- بوذي. تم تهجين الحضارة الرومانية نفسها في وقت مبكراّ جداً واستوعبت كل التراث اليوناني، وعرفت كيفية دمج عدداً كبيراً جداً من الآلهة الأجانب في مجمّع الإلهة الخاص بها "البانتيون"، وعرفت كيفية توزيع الشعوب البربرية التي أصبحت رومانية بموجب القانون على كل مساحة أراضيها مع الحفاظ على هويتهم العرقية. يتغذى الإبداع الفني من التأثيرات والالتحام. وهكذا فان تقليداً يبدو اليوم شديد العراقة، مثل الفلامنكو هو، مثل الشعب الاندلسي نفسه، نتاج التداخلات العربية واليهودية والإسبانية والعبقرية الحزينة للشعب الغجري. يمكننا أن نسمع ونرى، في الفلامنكو خصوبة وفناء الحتمية المزدوجة، الحفاظ على الأصل والانفتاح (نحو الخارج). من ناحية تم الحفاظ على هذا الأصل أولاً وبصورة خاصة بفضل شغف بعض الهواة الفرنسيين بدراسة cante jondo[1] و العودة إلى مصادرها التي تدهورت بشكل

(١) تعني بالإسبانية "أغنية عميقة" وهو أسلوب صوتي في غناء الفلامنكو في الموسيقى الشعبية الإسبانية -المترجمة

كبير، وتم إحياء بعض المخطوطات بإعادة تدويرها، وعاد الفنانون المنسيون وغير المعتبرين أسياداً مرة أخرى، وبدأو ينتجون مع احترام التقاليد، أجيالاً جديدةً من الفنانين الذين لديهم موارد قوية الان. من ناحية الانفتاح، حدث انحطاط أولي في خلطة إسبانية غامضة، ومن ثم دمج المصادر في موسيقا البانيز ودي فالا، ثم أخيراً تهجين مثيراً للاهتمام وحديث مع الأصوات والإيقاعات القادمة من أماكن أخرى، مثل أصوات الجاز (باكو دي لوسيا، الذي يعزف مع جون ماك لوغلين) أوموسيقا الروك (في أفضل ما عزفته فرقة ملوك الغجر Gipsy kings). كان الجاز أولاً وقبل كل شيء هجيناً أفريقياً- أمريكياً، وهومنتج فريد من نوعه في نيو أورليانز، واشُتهر في كافة الولايات المتحدة متعرضاً لطفرات متعددة دون أن تسبب الأساليب الجديدة اختفاءً للأنماط السابقة؛ وأصبحت موسيقا سوداء - بيضاء، استمع إليها، ورقص على إيقاعاتها، وعزفها بعد ذلك البيض، وانتشرت في جميع أنحاء العالم بكل أنماطها المختلفة، في حين أن نمط نيو أورليانز القديم، الذي أهمل في عقر داره، عاد من جديد في أقبية سان جيرمان دي بري في باريس، ما أحياه مرة أخرى في الولايات المتحدة ليستقر في نيو أورليانز. بعد ذلك تلاقى الإيقاع مع البلوز لتظهر موسيقا الروك في الولايات المتحدة ضمن محيط البيض، ولتنتشر إلى جميع أنحاء العالم وتتأقلم مع جميع اللغات، متبنية في كل مرة هوية وطنية. اليوم، في بكين، كانتون، طوكيو، باريس، موسكو، نرقص، نحتفل، نتواصل مع موسيقا الروك، وسيتراقص شباب جميع البلدان على الأنغام نفسها على الكوكب نفسه.

علاوة على ذلك، أدى انتشار موسيقا الروك في جميع أنحاء العالم لإنتاج أنماط موسيقية هجينة أخرى في كل مكان، مثل موسيقا الراي، لينتج

في النهاية مزيج من الروك الأيقاعية كنوع من الحساء الإيقاعي حيث تتزاوج الثقافات الموسيقية من جميع أنحاء العالم. وهكذا يتم التهجين نحو الأسوأ في بعض الأحيان، ونحو الأفضل في أحيان أخرى دون خسارة أوضياع، يتم إخصاب الثقافات الموسيقية في العالم بأسره دون ان تدرك أنها تنتج أطفالاً كوكبيين من الموسيقا.

يجب أن ندع الثقافات والناس تتجه نحو الاختلاط المعمم والمتنوع، الذي بدوره يزيد من التنوع. المحظورات التي تجلب سوء الطالع، والتي شكلت في عهد الشتات البشري خطوط الدفاع الأولى للثقافات القديمة وعقائدية الأديان ، أصبحت عقبات أمام التواصل والتفاهم والخلق في العصر الكوكبي. في البداية تم عدّ كل ما يمزج الأنماط مُشتِتاً ومُسبِباً للارتباك؛ ورُفض هجينو الأعراق والديانات بكونهم أوغاداً وزنادقة وغير شرعيين من قبل مجتمعاتهم الأصلية. إنهم ضحايا وشهداء عملية رائدة للتفاهم والحب.

شهدت الفترات الحضارية العظيمة للحضارات القديمة لمنطقة البحر المتوسط والإسلام، وكذلك الإمبراطوريات الحديثة العظيمة، شهدت ازدهار المدن الكبرى العالمية (الكوزموبوليتانية) مثل الإسكندرية وروما وبغداد وقرطبة وإسطنبول وفيينا. بعد ذلك، طردت القومية الحديثة، المهووسة بالواحدية، التنوع كما فعلت في دول الإمبراطورية العثمانية السابقة، في لبنان، في الجزائر، كما فعلت في يوغوسلافيا وكما تواصل فعله في الاتحاد السوفييتي السابق. إنما بدأت مسيرة مختلفة في القارتين الأمريكيتين بعد القيام بدمار ثقافي لا يمكن تعويضه. أنشئت مدن عالمية جديدة، مثل نيويورك وسان فرانسيسكو ولوس انجلوس وساوباولو. أصبح السكان الهجينون (الخلاسيون) هم الأغلبية في البرازيل، في المكسيك و

فنزويلا، وفي كل مكان أنتجوا ثقافات متميزة. دون أن يتم الاختلاط بعد، ومع وجود الكثيرمن الأفكار المسبقة، بل حتى الرفض للآخر، يتعايش البيض والسود والشيكانوس والأمريكيين من أصل هندي في الولايات المتحدة، وانخرط كثيرون في المثل العليا وأساليب الحياة نفسها. بينما لا تزال مأساة تصفية الحضارات الصغيرة، مثل هنود الأمازون، مستمرة، وما ينتج عن المزج القسري للناجين ليس في الواقع مزجاً بين الثقافات بل عملية تفكك وصهر كارثي.

حينما يتمكن البشر من التحول إلى مواطنين حقيقيين في هذا العالم، أي عالميين، تنمو لديهم القدرة على الحرص واحترام التراث الثقافي، وكذلك فهم احتياجات التجديد. هذا هو السبب في أننا نستعمل كلمة العالمية (كوزموبوليتان) التي تعني (حرفياً) مواطن من العالم، وابن الأرض (بالمعنى الملموس) وليس الفرد المجرد المنفصل عن كل جذوره. نريد تطوير شبكات في نسيج الكواكب، ندعوإلى التهجين في ظروف من التعايش، وليس من الصهر القسري لجوهر حضارة في أخرى.

تتضمن بطاقة هوية المواطن الجديد في العالم مجموعة من الهويات المتمركزة، بدءاً من الهوية الأسرية والمحلية والإقليمية والوطنية. يجب عدّ الهوية الغربية، حتى بعد اندماج مكونات من حضارات أخرى فيها كما يرتجى، جزءاً ومكوناً من مكونات الهوية الأرضية، وليست الهوية الأرضية نفسها.

كانت العبر- قومية تريد أن تخلق من الجنس البشري شعباً، وترمي العولمة إلى خلق دولة من العالم. يتعلق الأمر بجعل الجنس البشري: إنسانياً، وكوكب الأرض منزلاً مشتركاً للتنوع البشري. وسيكون المجتمع / التجمع البشري الكوكبي هوتحقيق الوحدة والتنوع البشري.

نعم ولكن.....

هل يوجد بصيص أمل لتحقيق هذه الأفكار الجميلة والطرح الرائع في اضطرابية هذا العالم واستحالة تغييره الذي أشرنا إليه في الفصول السابقة؟

-٥-

الحقيقة المستحيلة

الحقيقة غير المؤكدة

الواقعية يمكن أن يكون لها معنيان في السياسة. الأول يطلب عدم محاربة الواقع، بل التكيّف معه، الثاني يطلب مراعاة الواقع من أجل الأمل في تغييره. إنما، هناك العديد من الشكوك حول حقيقة ما يسمى الواقع. الواقع هو أولاً وقبل كل شيء، بالطبع، حقيقة مباشرة. إنما الواقع المباشر بحد ذاته يشير إلى معنيين مختلفين، أحدهما مؤقت، والآخر واقعي. الأول يدل على حقيقة اليوم. وهومفهوم قوي للغاية، وقد ألغى جزءاً من واقع الأمس؛ لكنه أيضاً ضعيف جداً، لأنه سيجري إلغاؤه جزئياً من خلال واقع الغد. يُظهر لنا التاريخ باستمرار وعلى مر الأيام هشاشة الوقائعيات التي كانت بديهية ومنتصرة، وهكذا من حزيران ١٩٤٠ إلى تشرين أول ١٩٤١ كانت هيمنة ألمانيا الهتلرية على أوروبا بأكملها هي الحقيقة التاريخية الساحقة. وصل الفيرماخت، في صيف عام ١٩٤١ إلى القوقاز، إلى أبواب موسكو و لينينغراد، اللتين بدا سقوطهما مؤكداً. أصبحت فرنسا المنهزمة تابعة. تكورت إنجلترا، الدولة المهمشة، على نفسها تحت القنابل. بقيت أمريكا خارج الحرب. يبدو أن الواقعية هي التكيف مع الحقيقة الحتمية:

الخضوع للمنتصر. لقد رأى ديغول في صيف عام ١٩٤٠ حقيقة أخرى: بينما لمعظم الأشخاص كانت الحرب قد انتهت، بالنسبة إليه فهي تكاد تبدأ: لقد عدّ أن القوتين العظميمتين اللتين كانتا خارج الحرب، الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، سوف تدخلاها بالضرورة؛ إنه يتوقع أن تصبح هذه الحرب على مستوى العالم فعلاً وأن القوى المتفوقة التي ستنخرط فيها لاحقاً ستقضي على الرايخ الثالث. بالطبع، هذه الحقيقة التي أصبحت سارية المفعول في ١٩٤٢ - ١٩٤٥، لم تكن محددة مسبقاً .

ماذا كان سيحدث لو لم يتم تأجيل الهجوم الألماني إلى ٢١ حزيران ١٩٤١، في أعقاب الانقلاب الذي وقع في الشهر الذي سبق الهجوم في بلغراد، والذي أجبر هتلر على خسارة بضعة أسابيع لتصفية الجيش اليوغوسلافي، وماذا لو لم يكن الشتاء الروسي مبكراً وشديداً للغاية، ما أدى إلى عرقلة نقل الفيرماخت وسمح لموسكو و لينينغراد بعدم الانهيار ؟ لولم يجرّ اليابانيون أمريكا إلى الحرب بمهاجمة بيرل هاربور في كانون الأول ١٩٤١؟ في أي حال، إن انهيار ألمانيا النازية لم يكن أمراً محتماً، و كان يمكن أن ترسخ هيمنتها الدائمة على أوروبا. تكون الحقيقة مضطربة في أوقات الأزمات والحروب، مع انقسامات وتقلبات غير متوقعة .

لكن الواقعية لم تكن على ما تبدو عليه، إلى جانب الانتصار الفوري للقوة. كان من اللا واقعية أن نؤمن بانهيار هذه القوة. هناك حالات يتعين عليك فيها معرفة كيفية الرهان بعيداً عن الواقعية واللاواقعية.

يشير المعنى الوقائعي لمصطلح الواقع إلى الحقائق والأحداث المرئية في الوقت الحاضر. إلا أن الحقائق والأحداث الملحوظة في كثير من الأحيان

تخفي حقائق أو أحداثاً غير مرئية. هناك، تحت قشرة الواقع المرئي، حقيقة غامضة تحت الأرض، ستظهر لاحقاً ولكنها غير مرئية حالياً للواقعيين. هناك أحداث ضخمة بضخامة أبي الهول، لم يتم فك شفرتها إلا بعد أن تحققت. تعيين مخائيل غورباتشوف في الأمانة العامة للحزب الشيوعي هو حدث صغير – كأبي الهول- إذ أصبح ضخماً بعد خمس سنوات. حتى في عام ١٩٨٨، كان من غير الواقعي التنبؤ بالانهيار السريع للإمبراطورية الهائلة، بل كان من الواقعي الاعتقاد بأن هذا النظام الشمولي الذي كان يرزح تحت ثقل مشكلات، كان قد نجح حتى ذلك الوقت بالتغلب عليها[١]، وهي نفسها تسهم بثقلها في الحفاظ عليه، ولم يكن من الواقعي التنبؤ أنه في عام ١٩٩٢ سيحدث تدمير ذاتي للاتحاد السوفييتي.

مرة أخرى، نأتي إلى مناطق من اللا يقين حول الحقيقة، والتي تضرب بعدم اليقين الواقعية نفسها، وتكشف في بعض الأحيان أن مظاهر اللاواقعي كانت واقعية.

دعونا نضف أن هناك العديد من الحقائق التي يصعب أن يفهمها حتى الخبراء أحيانا وغالبا، مثل الحالة الاقتصادية في العالم: هل يتعلق الأمر بمصادفة مؤقتة لانهيارات محلية أو أنها أعراض لأزمة عالمية خطرة قادمة؟

---

(١) تشخيصي وتوقعاتي في "الخروج من القرن العشرين. (الطبعة الاولى١٩٨١) باريس، دار النشر سوي Points Essais ١٩٨٤. ص ٣٣١-٣٣٣. من طبيعة الاتحاد السوفييتي، باريس، فيارد، ١٩٨٣، ص. ٢١٥-٢٢٤ و٢٥٠-٢٥١؛ التفكير بأوربا١٩٩٠ باريس غالمار فيليو.

هذا يوضح أنه يجب علينا معرفة كيفية تفسير الحقيقة قبل الاعتراف بمكانية الواقع. ويوضح لنا في الوقت نفسه أن معنى المواقف والحقائق والأحداث هومسألة تفسير.

كل معرفة، بما في ذلك الإدراك ما هي إلا ترجمة وإعادة بناء الرؤية[1]، أي التأويل. لا يظهر الواقع الشامل إلا من خلال النظريات والتفسيرات وأنظمة الفكر. تكشف أي معرفة بالواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي عن أنظمة تفسير السياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة وهي النظم التي تعتمد على نظام تفسير التاريخ.

هذه الأنظمة هي التي يمكنها أن تُظهر المفاهيم المجردة، أو التصورات الخيالية، أو الرؤى أوالأفكار المشوهة كواقع فعلاً، بطريقة شبه جنونية بين أولئك الذين يودون تصديقها.

اعتقد البلاشفة أنهم يعرفون حقيقة التاريخ والمجتمع: كانت الإمبريالية والرأسمالية وصراع الطبقات والمهمة التاريخية للبروليتاريا والظهور الضروري للمجتمع غير الطبقي بديهيات أكدها وصقلها نظام قراءتهم للمواقف والوقائع والأحداث. كان يُعتقد أن مغامرة الشيوعية تسير في اتجاه الحقيقة التاريخية، لكن تبين في الواقع أنها تمردٌ على الحقيقة التاريخية.

ينسى التفسير الاقتصادي للتاريخ منعكسات البنى والظواهر غير الاقتصادية، ويتجاهل الحوادث والأفراد والأهواء والجنون البشري. يعتقد المنطق الاقتصادي أنه يتفهم الطبيعة العميقة للواقع وذلك من خلال تصور يعميه عن الطبيعة المعقدة لهذا الواقع.

---

(١) راجع الطريقة إدغار موران، معرفة المعرفة، ص... 210-209

إن إدراك الواقع المعقد لواقعنا الإنساني والاجتماعي والتاريخي هو أمر صعب للغاية. الأنموذج[1] الانفصال / الاختزال الذي يتحكم في معظم طرائق تفكيرنا يفصل بين الجوانب المختلفة للواقع، ويعزل الأشياء أوالظواهر عن بيئتها؛ إنه غير قادر على تفهم المعرفة في سياقها وفي إطارها العالمي الذي يعطيها معنى. إنه غير قادر على تفهم القدرة التحويلية للزمن، وهوغير قادر على فتح الإمكانات.

هذا هوالسبب في أن أي معرفة بالواقع والتي لا يحركها ويسيطر عليها أنموذج التعقيد مصيرها التشويه، وتفتقر إلى الواقعية بهذا المعنى.

إلا أن أنموذج التعقيد، الذي يساعدنا في إدراك تعقيد الوقائع، لا يوفر لنا اليقين. على العكس من ذلك، فهو يساعدنا في الكشف ليس فقط عن أوجه عدم اليقين الكامنة في هياكل علمنا عينها، لكن أيضاً عن "الثقوب السوداء" في عدم اليقين في الواقع الحالي...

وهكذا:

لا تتكون الحقيقة إلا من الحاضر الآني فقط.

الحقيقة ليست واضحة على نحو مطلق في الوقائع.

لا تعكس الأفكار والنظريات الحقيقة بل تترجمها وبطريقة قد تكون مغلوطة.

حقيقتنا ليست سوى فكرتنا عن الواقع.

قد تكون الحقيقة هي أيضاً رهان.

---

(١) حول مفهوم الأنموذج، انظر المنهج. إدغار موران ،دار النشر سوي،١٩٩٠،ص ٢١١-٢٣٨.

لذا نظراً لصعوبة تعرُّف الحقيقة، يمكننا طرح هذا السؤال: هل من الواقعي أن نكون واقعيين؟

إنها عمياء تلك الواقعية الضحلة التي تعتقد بالواقع المُدرك ولا ترى إلا اللحظة. كما قال برنارد غروتويزن: "أن نكون واقعيين، يا له من وهم!"

الحوار الأصم بين الفكرة والواقع

تظهر هنا مشكلة أخرى: هل هناك سيطرة للأفكار على الواقع، ما يفترض وجود واقع وقوة أفكار؟

كما أوضحنا في مكان آخر، فإن الأفكار والأساطير تصبح حقيقة، وتفرض نفسها على العقول، حتى على الواقع التاريخي، وتنتهكه، وتحوله.

ثورة تشرين الأول ١٩١٧، التي سطّرها لينين انطلاقاً من فكرة أنه كان من الضروري أن يتمخض التاريخ عن الاشتراكية التي يحملها في داخله، وأدى هذا في الواقع إلى ولادة الاستبداد.

كما أظهرت المجريات فإن الواقع لا يرفض تلقائياً أو على الفور الفكرة التي تتناقض معه. هناك أفكار مفعمة بطاقة مذهلة: وكذلك هي جميع الأفكار العظيمة والمعتقدات العظيمة. في الصراع بين الفكرة والواقع، ليس الواقع هو دائما الأقوى. يمكن للفكرة أن تكتسب قوة مرعبة مزدردةً دم الواقع.

في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، أخضعت الفكرة الواقع، فلقد قضت على ما عارضها بتدمير فلاحية هذا البلد الفلاح، وكممت الحقيقة وقمعتها، وبَنَتْ حقيقةً شموليةً هائلةً، وأنتجت أعظم قوة عسكرية

في كل العصور. إلا أن الفكرة المنتصرة تدهورت بانتصارها نفسه. تشكلت حقيقةً جديدةً هي حصيلة اقتران الفكرة بالحقيقة القديمة وشكلت بذلك الشمولية الحديثة التي أصبحت حقيقة كبرى في تاريخ العالم لأكثر من نصف قرن. هذه الشمولية المتعاظمة بشكل متزايد لم تعد قادرة، على حد سواء، على الامتثال لتطلعات الاشتراكية، أو اكتساب الكفاءة الاقتصادية للرأسمالية. فجاءت فكرة إصلاح هذه الحقيقة. استغلت هذه الفكرة وهي في ذروة سلطتها، شكوك وتساؤلات واستغلال بعض القادة لتصبح الفكرة السياسية الجديدة. غير أن هذه الفكرة أساءت التعامل مع الحقيقة التي سيطرت عليها الهيكلية الشمولية وبات تكشّف الحقيقة انهياراً.

هناك علاقة من اللا يقين بين الفكرة والواقع. يمكن أن تفرض الفكرة نفسها على الواقع، لكن هذا الواقع لن يتوافق مع الفكرة، ويأتي نتاج هذا التسافد بين الواقع والفكرة غير منتمياً إلى أحدٍ من هذين الأبوين.

يجب التفكير في تبني سياسة جدلية بين سياسة المثالية[1] وسياسة الواقع؛ لكننا نجد مرة أخرى عدم اليقين من الحقيقة، وبالتالي من الواقعية

في سياسة الواقع، ونحن نجازف بالبقاء إما في موقع التمني الورع للسياسة المثالية وعمى السياسة المؤمثلة أو في قبول أي نظام مؤسّس، ومن أي أمر واقع.

ما هو الممكن؟ كل شيء غير ممكن في وقت معين، لكننا لا نعرف ما هي الحدود التي تفصل الممكن عن المستحيل.

---

(١) س. كوربر، السياسة الخارجية، عدد ٧٩، ١٩٩٠، واشنطن العاصمة، ص. ٣٢٤.

ما هوالمستحيل؟ إذا لم تكن هناك ضغوط كافية لنتمكن من تحديد التاريخ، فهناك قيود تمنع بعض الاحتمالات. والسؤال هو معرفة ما هي القيود المقيدة؟

هناك بعض القيود التي تبدومقيدة تماماً ولكن يمكن خرقها: فكما أن القيود المفروضة على التنظيم الفيزيائي الكيميائي جعلت إمكانية الوجود الحي مستحيلةً حتى ظهر هذا الوجود الحي بشكل منعطف تلائَم مع ظهور مبادئ جديدة. وبالمثل فإن ظهور اللغة البشرية كان مستحيلاً قبل الثورة المتعددة التشريحية / الوراثية / الاجتماعية / الثقافية التي سمحت باستقامة الجمجمة وتشكيل تجويف فوق الحنجرة حيث، مع الاسترخاء في الحبال الصوتية وتطور الحنك، أصبحت الأصوات منطوقة. قبل ظهور الزراعة والمدينة، منعت الضغوط القوية للغاية - المجتمعات الصغيرة المتشتتة التي لم تشكل دولاً واستمرت تعيش من الصيد وجمع الثمار - من تنظيم الزراعة والمدينة معاً.

ما هي قيودنا التي لا يمكن التغلب عليها؟ القيد الوحيد الذي لا يمكن التغلب عليه ذو الطابع الموحد هو المبدأ الثاني للديناميكا الحرارية، الذي يمنع - بسبب نتائجها - الحركة الدائمة والخلود والجنة الأرضية.

إلا أن القيود الاجتماعية والاقتصادية التي لا يمكن التغلب عليها في نظام ما يمكن تجاوزها، في وعبر نظام أشد تميزاً، كما كان الحال للنظام الحي، مقارنة بالنظام الكيميا - فيزيائي، كما كان الحال بالنسبة للغة البشرية فيما يتعلق بنظام الاتصال أو المجتمع التاريخي مقارنة بالمجتمع القديم. من الواضح أن الميتا - نظام له قيوده. لا يوجد نظام بدون قيود. إن استحالة إزالة جميع القيود تخبرنا أنه لا يوجد عالم أفضل. لكنه لا يحظر إمكانية وجود عالم أفضل.

إذاً مرة أخرى نجد اللا يقين. ليس فقط ما يُعلُمنا بحصول ما هو مباغت لكن - بشكل دائم - يُعلمنا بتكرار اللا متوقع، والجديد (غورباتشوف، يوغوسلافيا، إلخ)، وهو أيضاً لا يقين متّمكن ضمن الاحتمالات الاجتماعية والبشرية.

الرهان

مبدأ "بيئة الفعل[1]"[2] الذي يمتد من حيث المبدأ من بيئة السياسة، يعني أن الفعل يبدأ بالانفلات من نيّة هؤلاء الذين أطلقوا الفكرة أساساً بمجرد دخولها حيز التفاعل داخل وبالاتجاه العكسي في البيئة التي تتدخل فيها. وهكذا، فإن "رد الفعل الأرستقراطي"، الذي أدى إلى دعوة القيادات العامة عام ١٧٨٩، حيث ظن النبلاء أنه بفضل التصويت التراتبي، سيتمكنون من استعادة الامتيازات التي انتزعتها منهم المَلكية المطلقة، وجاءت النتيجة عكس ذلك حيث تمت تصفية جميع امتيازات الطبقة الأرستقراطية. في المقابل تسبب المد الثوري عام ١٩٣٦ في إسبانيا بردة فعل أدت إلى حدوث الانقلاب (الفاشي) الفرانكوي.

كما هي الحال في علم الأرصاد الجوية، يمكن أن يكون للتشعب البسيط في منطقة حرجة آثار متسلسلة هائلة

---

(١) راجع إدغار موران، مقدمة في الفكر المعقد، مرجع سابق. سبق ذكره.

(٢) Action الفعل: نظرية في علم الاجتماع تُناقش الفعل الاجتماعي و تعتمد على قضية أساسية فيما يتعلق بتفسير وتأويل السلوك الانساني ألا وهي أن كل سلوك هو سلوك هادف أي لبلوغ هدف (غاية) ويختار وسائل عدة وانماطاً سلوكية متعارفاً عليها- المترجمة

ومن هنا جاء مفهوم "تأثير الفراشة"، فمثلاً بعض التعديلات الطفيفة للأفكار في ذهن زعيم إمبراطورية استبدادية هائلة يظن أنها ستؤدي إلى إصلاح حذر ومحدود وهوما يحدث في البداية، ولكن العملية تنتشر وتتضخم، ووفقاً لمنهجية انفجارية نتيجة تأثيرات الفعل ورد الفعل حيث يكون فشل الحصول على رد فعل محدود بمثابة إطلاق الرصاصة الأخيرة، وفي غضون عامين تؤدي العملية إلى انهيار الإمبراطورية نفسها. هذه هي من "تأثيرات الفراشة[1]" التاريخية.

في أي حال، فإن العواقب طويلة الأمد للعمل السياسي لا يمكن التنبؤ بها نهائياً في البداية. وبالتالي فإن العواقب التسلسلية عام ١٧٨٩ كانت غير متوقعة. كان الإرهاب لا يمكن التنبؤ به، وكذلك كان تيرميدور[2]، القنصلية، الإمبراطورية، عودة عائلة البوربون، إلخ. على نطاق أوسع، كانت العواقب الأوروبية والعالمية للثورة الفرنسية غير متوقعة حتى تشرين الأول ١٩١٧ ضمناً، وكذلك كانت عواقب ثورة تشرين الأول ١٩١٧ غير المتوقعة، من "الاشتراكية في بلد واحد" إلى تشكل وانهيار إمبراطورية شمولية.

هذا يعني أن السياسة لا تخضع فقط لمبدأ واقع عدم اليقين الذي ذكرناه أعلاه، لكن أيضاً لآثار مبدأ عدم اليقين في بيئة الفعل.

---

(١) قد تسبب ضربات أجنحة فراشة في أستراليا إعصاراً في نيويورك.

(٢) Thermidor: انقلاب ضمن الثورة الفرنسية ضد قادة نادي اليعاقبة الذي سيطر على لجنة السلامة العامة . فقد صوّت المؤتمر الوطني على إعدام ماكسميليان و روبسبير و لويس أنطوان وآخرين من قادة الحركة الثورية وبذلك أنتهت المرحلة الأكثر تطرفاً في الثورة الفرنسية - المترجمة

يجب وضع المشكلة التقليدية للغايات والوسائل نفسها في علاقة من عدم اليقين، حيث يمكن للوسائل الدنيئة المستخدمة من أجل غاية نبيلة ليس فقط أن تلوث هذه الغاية، بل يمكنها أيضاً أن تقضي على نفسها. وتالياً، لم يكتف الشيكا، وهوالجهاز المصمم للقضاء على أعداء الثورة، بتلويث المشروع الاشتراكي فحسب، بل قضى على نفسه بأن أصبح تحت أسماء متعاقبة من Guepeou وNKVD/ ك.ج.ب، قوة استخباراتية عالية قادرة على إعادة بناء نفسها.

تخبرنا بيئة الفعل أنه في نفس الوقت يمكن أن تؤدي النوايا الحسنة إلى آثار بغيضة ويمكن أن تُحدث النوايا السيئة تأثيرات ممتازة، على الأقل في المستقبل القريب (في سبيل المثال، عندما أدى فشل الانقلاب التصحيحي في موسكو، عام ١٩٩١، إلى إلغاء ديكتاتورية الحزب الشيوعي). لذلك، من الضروري أيضاً أن نطرح جدلياً (dialectiser) مشكلة الغاية والوسيلة، أي أن نرفض إعطاء أحد المصطلحات أولوية مطلقة على الآخر[١]!

يبدو أن بيئة الفعل تستدعي التقاعس عن القيام بالفعل، وفقاً للاعتبارات الثلاثة :

أ) التأثير الضار (التأثير الضار غير المتوقع أكثر أهمية من التأثير المفيد المتوقع)؛

ب) غرابة الابتكار (كلما تغير كلما شابه الشيء نفسه)؛

ج) تعريض الانجازات المكتسبة للخطر (نريد تحسين المجتمع، لكننا ننجح فقط في القضاء على الحريات والأمن). يجب بالتأكيد أخذ

(١) راجع إدغار موران ، للخروج من القرن العشرين، تم ذكره سابقاً ، ص ٣٠٠- ٣٠٢ .

هذه الاعتبارات الثلاثة في الحسبان، التي تم التحقق منها بطريقة مرعبة في الثورة البلشفية وما أعقبها. إنما تبقى هذه الاعتبارات غير متمتعة بقيمة اليقين الحاسم، ومن ناحية أخرى، يمكن أن يؤدي غياب الابتكار إلى إطلاق العنان لعمليات التفكك والتحلل والتدهور، والتي ستكون بالتالي قاتلة.

لذا، فإن بيئة الفعل لا تدعونا إلى التقاعس عن الفعل، بل إلى المقامرة التي تدرك مخاطر الفعل، وإلى تبني إستراتيجية عمل تجعل من الممكن تعديل أو حتى إلغاء الإجراء المتخذ. تدفعنا بيئة الفعل إلى تبني جدلية بين المتأمثل و الواقع.

الممكن / المستحيل

من الممكن اليوم، تقنياً ومادياً، الحد من عدم المساواة، وإطعام الجياع، وتوزيع الموارد وإبطاء النموالسكاني، والحد من التدهور البيئي، وتغيير الوظائف، وإنشاء مختلف الهيئات العليا التنظيمية والوقائية العالمية، وتطوير الأمم المتحدة إلى عصبة أمم حقيقية، تمدين كوكب الأرض. من الممكن بعقلانية بناء المنزل المشترك، وترتيب الحديقة المشتركة.

سمح تطور الاتصالات والمعلومات والتقنيات بقيادة كوكبنا الذي يبلغ تعداد سكانه ٣ مليارات نسمة بشكل أسهل من قيادة فرنسا التي كان عدد سكانها أقل من ٢٠ مليون نسمة في عهد لويس الرابع عشر.

ثمة إمكانية لخلق رأي عام عالمي: من خلال وسائل الإعلام، هناك ومضات من التضامن العالمي للأيتام الرومانيين واللاجئين الكمبوديين

والبوسنيين البائسين؛ هناك ومضات وعي للهوية الإنسانية، ومضات وعي لفكرة المواطنة الأرضية.

تزداد احتمالات التعرّف إلى المصير المشترك مع تنامي الأهوال، فهي تتغذى من التهديدات "الدمقّقية" للأسلحة النووية، وتدهور المحيط الحيوي، وتدهور المحيط الإنساني في جميع أنحاء العالم بسبب الهيروين والأيدز.

قلنا إن الاتحاد الكوكبي هوالشرط العقلاني الأدنى لعالم منكمش ومترابط. إنما، يبدو أن هذا الاتحاد المحتمل مستحيل لأنه يتطلب تحولات في البنى العقلية والاجتماعية والاقتصادية والوطنية...

وبالتالي، فإن الممكن مستحيل، ونحن نعيش في عالم مستحيل حيث يتعذر الوصول إلى الحل الممكن.

ومع ذلك، فإن فكرة الممكن المستحيل واقعية (قابلة للتحقيق)، لأن كلمة "الواقعية" تعني أنها تتوافق مع الإمكانات الحقيقية للاقتصاد والزراعة والتكنولوجيا والمعرفة، إلخ. يعني من صلب الواقع. إلا أن هذه الواقعية الكوكبية هي اليوم طوباوية.

ضخامة القوى المضادة

تمدين كوكب الأرض! لكن يجب أن ندرك مشكلة الحضارة عينها. إنها مجرد قشرة رقيقة على سطح وجودنا ومجتمعاتنا. علينا أن نعزز القشرة، لكن هذا يفترض حدوث تحول عميق في العلاقات الإنسانية، وهنا بالضبط بيت القصيد.

تقبع الهمجية في صلب الحضارة، ليس فقط بالمعنى الذي تحدث عنه والتر بنيامين الذي يرى أن كل حضارة ولدت من الهمجية، لكن بالمعنى المعقد الذي يراه سيغموند فرويد (القمع، عدم إبادة الهمجية عن طريق الحضارة) وكذلك بالمعنى التنظيمي الحديث (تخلق التطورات المُلحَقة بالعلوم والتكنولوجيا والبيروقراطية بربرية حضارية نوعّية).

آه! لا تكفي التمنيات والرغبات وعمل مشاريع. سوف يتطلب الأمر كثيراً من الاصلاحات المتزامنة والمتقاربة وهو بالتحديد ما يبدوغير ممكن، بالنظر إلى ضخامة القوى المضادة.

المستحيل ممكن؟

ألا يعني هذا إعادة التمني الذي فشل دائماً و حتى الان بأشكاله البوذية والمسيحية والاشتراكية؟ يدرك التفكير المعقد، وهو يعي التناقضات، والشر المُبطن في الخير، والخير المُبطن في الشر، والكمال المستحيل، والوصول إلى الهدف المستحيل، لبيئة الفعل، من التشابك غير المتوقع دائماً للفعل الداخلي والمرتد، التصفية المستحيلة لـ"السلبية"، يدرك بالتالي هذه الصعوبة الهائلة.

سوف يتطلب الأمر تقدماً بشرياً رائعاً لحل مشكلاتنا الأولية. دعنا نقل حتى إن الوضع ميؤوس منه من الناحية المنطقية : فكلما أصبح التغيير ضرورياً، أصبح متعدد الأبعاد وجذرياً، وجعلته أنظمتنا العقلية والاجتماعية والاقتصادية ضرباً من المستحيل.

إنما، إذا كان الوضع ميئوساً منه، فإن ذلك يشير إلى أننا وصلنا إلى عتبة منطقية، حيث الحاجة إلى التغيير، الدفع باتجاه التعقيد يمكن أن يكون

لصالح التحولات التي من شانها أن تساعد على ظهورالأنظمة الفوقية. حينما يكون الموقف مستحيلاً منطقياً، ينشأ الجديد ويحدث الخلق، وهو ما يتجاوز المنطق دائماً. وهكذا، عندما أصبح التنظيم الكيميائي لمجموع ملايين الجزيئات مستحيلاً من الناحية المنطقية، ظهرت المنظومة الذاتية الحيوية الحية.

بالطبع، وقد قلناه سابقاً، ليس التقدم الأخلاقي والضروري سياسياً هو ضرورة تاريخية؛ فالتقدم نفسه يخضع لمبدأ اللا يقين. ما نتمنى هو أن يكون رأس حربة لحركة تاريخية كوكبية (أرضية) وربما لن يكون سوى الحرس الخلفي الصغير لحركة المقاومة ضد الهمجية. نجد هنا مفهوم ضرورة المقاومة التي تحدثنا عنها سابقاً (انظر الفصل ٤). لكننا لسنا محكومين بدون أمل. إن قوى الهمجية والتفتت والعمى والدمار التي تجعل من فكرة السياسة الكوكبية فكرة طوباوية، تهدد اليوم الإنسانية لدرجة أنها تدلنا وبصورة عكسية عما هومتوقع: إن سياسة الأنسنة والثورة الكوكبية هما تلبية لحاجة حيوية واحدة.

نحن لا نصوغ "ضرورة وجودية" تمليها الفكرة. قال ماركس: "لا يكفي أن تذهب الفكرة إلى الواقع، فالواقع يجب أن يذهب إلى الفكرة أيضاً"، يوجد اليوم هذه الحركة المزدوجة: قوى متعولمة تتحرك نحوالفكرة، ويمكن للفكرة أن تتجه نحو الواقع بإعطاء معنى كوكبي للتآخي والتفاهم لقوى التوحيد التي تعمل في هذا القرن. للأسف، هناك أيضاً حركة الواقع التي تسير إلى الاتجاه المعاكس. هنا مرة أخرى نجد اللا يقين. ولكن، إذا كان اللا يقين بشان الواقع أمراً أساسياً، فإن الواقعية الحقيقية هي تلك التي

تستند إلى عدم اليقين الحقيقي، مع الأخذ في عين الاعتبار اليقين المحلي والاحتمالات وعدم الاحتمالات المحلية.

يمنح لا يقين العقل ولا يقين الواقع مخاطر وفرصاً على حد سواء. عدم كفاية الواقعية الآنية يفتح الباب أمام ما بعد الآني. المشكلة هي ألا تكون واقعياً بالمعنى المبتذل (التكيف مع الاني)، أو غير واقعي بالمعنى التافه (التهرب من قيود الواقع)، لكن أن تكون واقعياً بالمعنى المعقد (فهم عدم اليقين الواقع، معرفة أن هناك ممكناً غير مرئي في الواقع) الذي غالباً ما يبدو غير واقعي.

هنا تهرب الحقيقة، مرة أخرى، من كلا الواقعيين والطوباويين.

الحقيقة العالمية على وجه التحديد لا تُدرك؛ أنها تحتوي على حالات عدم يقين هائلة تدين لتعقيدها، وتقلباتها، وديناميتها المختلطة والعدائية، وتشعباتها غير المتوقعة، واحتمالاتها التي تبدو مستحيلة ومستحيلاتها التي تبدو ممكنة. تتغذى مراوغة الحقيقة العالمية مرة أخرى على الأجزاء المنفردة، حيث صيرورة الأجزاء ترتبط بصيرورة الكُلّ.

ها نحن أولاء هنا نواجه مفارقة لا تصدق حيث تصبح الواقعية مثالية، وحيث يكون الممكن مستحيلاً. غير أن هذه المفارقة تخبرنا أيضاً أن هناك طوباوية واقعية، وان هناك مستحيلاً ممكناً. مبدأ اللا يقين من الواقع هو صخرة بشواظ متشعّب في الواقعية والمستحيل على حد سواء. وداخل هذه الصخرة يجب طرح السياسة التطورية. لقد سبق لنا قوله: عليك أن تعرف كيف تراهن على ما وراء الواقعية واللا واقعية.

-٦-

الأنثروبوليتك

من السياسة (بوليتك) إلى السياسة الإنسانية (الأنثروبوليتك)[١]

انتقلنا خلال هذا القرن من سياسة الحكم الجيد إلى سياسات الرفاه الاجتماعي، من دولة البوليس إلى دولة الرفاه.

أخذت السياسة أولاً الاقتصاد تحت غطائها باتّباع مذهب الحماية في القرن التاسع عشر، ثم قوانين مكافحة الاحتكار. ولاحقاً استولت السياسة على الاقتصاد من خلال توجيه وتحفيز النمو، والسيطرة، حتى وصلت حد قيادة الدولة والتخطيط.

أصبحت احتياجات الأفراد والسكان تدخل ضمن نطاق الواجبات السياسية.

---

(١) الأنثروبوليتيك تهدف إلى تجاوز التجارب والعقائد السياسية وتميل إلى تأسيس الإنسان السياسي **(**homo-politicus**)** وتبحث عن الحضارة المشتركة بين جميع التنظيمات السياسية في تنوعها التاريخي والجغرافي. فهي الحقل الذي يتفحص المجتمعات القديمة حيث الدولة مكونة بوضوح وذات أشكال متنوعة جداً، إنها تتفرس في مسألة الدولة وأشكالها الأولية، في مجتمعات بدون تنظيم سياسي **/** مجتمعات ذات تنظيم سياسي، من دون دولة **/** ذات دولة. الموسوعة السياسية -المترجمة.

- تُمارس رعاية الأشخاص وحمايتهم من خلال المساعدات المختلفة، والتامين على الحياة، والعمل، والمرض، والشيخوخة، وكذلك الخدمات مثل الأمومة ودور الحضانة ودور التقاعد ودور الجنازة.

- باتت مسؤولية إصلاح الأضرار الناجمة عن الكوارث الطبيعية (الفيضانات والزلازل وما إلى ذلك) هي مسؤولية الحكومات بشكل متزايد.

- تم تنظيم سياسة التعليم وتوسيع نطاقها في السياسة الثقافية والترفيهية.

- أصبحت حرية وسائل الاتصال الحديثة أو السيطرة عليه إشكالية سياسية.

- على نطاق أوسع، ارتفع الرخاء والرفاهية إلى مستوى الأهداف (الغايات) السياسية.

وهكذا، اخترقت السياسة مسام المجتمع كافة ، وسمحت لنفسها في الوقت نفسه بأن تخترقها جميع مشكلات المجتمع.

تسببت مشكلات الحياة والبقاء، بالمعنى البيولوجي الحرفي للمصطلح، بثورة مذهلة وواسعة النطاق في السياسة.

- حلّت السياسة الصحية محل سياسة المساعدة الشعبية ولم تعد تهتم فقط بالمرضى والعجزة، لكن شملت الآن جميع السكان؛ وأخذت على عاتقها مسؤولية مكافحة السرطان والأيدز، وكذلك مكافحة المخدرات بل وحتى التبغ.

- أصبحت سياسة ضمان الحد الأدنى للمعيشة معممة في البلدان الغنية، في حين أصبحت مكافحة الجوع في البلدان الفقيرة مسؤولية السياسة الدولية.

- أصبحت الديموغرافيا مصدر قلق سياسي كبير، سواء كان هناك ميل إلى انخفاض عدد السكان أو ميل إلى الاكتظاظ.

إن إمكانات التدخل الطبي الحيوي، والتي تؤثر الآن في الموت والولادة والهوية وتحولها، تسبب مشكلات سياسية:

- القتل الرحيم، اقتطاع الأعضاء، نقل الدم، الحق في الإجهاض، حفظ الحيوانات المنوية، والتلقيح الاصطناعي، والأمهات البديلة، وقبل كل شيء، التلاعب الجيني، الذي سوف يجعل من الممكن تحديد الجنس، والصفات الجسدية وربما النفسية للطفل الذي سيولد، لم تعد هذه الأمور مشكلات تخص الفرد والأسرة فقط، ولكنها تخضع لقرارات سياسية.

وبالتالي، مع إمكان تعديل طريقة انتقال التراث الوراثي، وهذا التراث نفسه، فإن الطبيعة الإنسانية وطبيعة المجتمع باتت جزء من الإشكالية السياسية: صارت الحياة، الولادة، الموت من الآن فصاعداً ضمن المجال السياسي. صارت الاضطرابات التي تؤثر في مفاهيم الأب والأم والطفل والذكر والأنثى، وهذا يعني ما هو أساسي في تنظيم الأسرة والمجتمع، تتطلب معايير سياسية. تتعرض قريباً فكرة الكائن البشري - التي أصبحت قابلة للتعديل عن طريق التلاعب - لخطورة التطبيع من قبل قوة سياسية لها القدرة على المناورة بقوى التلاعب. تصبح السياسة في مواجهة المشكلات الأنثروبولوجية الأساسية عن غير قصد، وغالباً دون معرفة ذلك، سياسة على الإنسان.

وفي الوقت نفسه، يجري تسييس الكوكب بمجمله وتصبح السياسة كوكبية: خطر السلاح النووي الحراري على البشرية كان بالفعل مشكلة

سياسية كبرى، على مدار عشرين عاماً، أصبحت البيئة مشكلة سياسية، ليس فقط محلياً (تدهور النظم البيئية)، لكن أيضاً مشكلة عالمية (تغيير المحيط الحيوي).

وبالتالي، يتوجب على السياسة أن تتعامل مع تعدد أبعاد المشكلات الإنسانية. في الوقت نفسه، بما أن التنمية أصبحت هدفاً سياسياً رئيساً وكلمة "التنمية" تعني (حتماً بطريقة غير واعية ومشوهة) أن السياسة تتولى مسؤولية مستقبل الإنسان، وتتولى كذلك، أيضاً بطريقة لاوعية ومشوهة، مستقبل البشر في العالم. ولكن مستقبل الإنسان في العالم يحمل في ذاته المشكلة الفلسفية، التي أصبحت من الآن فصاعداً مشكلة مُسيّسة، لمعنى الحياة، الغايات الإنسانية، المصير الإنساني. وكنتيجة عملية لذلك فإن السياسة باتت الآن تحمل صيرورة الإنسان ومستقبله بالإضافة إلى مستقبل الكوكب.

السياسة المُوحّدة والسياسة الشمولية

بالفعل، منذ الثورة الفرنسية، كان هناك ظهور ومن ثم انتشار واسع لقناعة تكاد تماثل الأسطورة، ولإيمان يكاد يصبح دينياً بأن الخلاص يكمن في السياسة. بالنسبة إلى سانت جوست (أحد منظري الثورة الفرنسية)، كانت الثورة ستجلب السعادة إلى أوروبا. حّول كارل ماركس اشتراكية القرن التاسع عشر إلى دين الخلاص الدنيوي، وحيث كان فيها المسيح البروليتاري هو من سيقضي على كل ما يسبب الظلم والانقسام للبشر. في حين أن الديمقراطية الاجتماعية أعطت فقط معنىً مساعداً / وقائياً لوظيفة السياسة الإلهية، فإن هذه الوظيفة الإلهية أخذت بُعداً شبه ديني للخلاص على الأرض في نسختها المسماة الماركسية اللينينية. وهكذا تم استثمار

السياسة في مهمة جليلة أشبه بالأديان الكبرى التي تمنح الخلاص، مع اختلاف أنه بدلاً من تقديم الخلاص في الجنة بعد الموت، فإنها وعدت به على الأرض وعلى مدى الحياة.

ألهمت فكرة الثورة التي من شانها أن تغير العالم وتغير الحياة، والمدفوعة بقناعة أسطورية قوية وإرادة عنيدة، ألهمت سياسة أصبحت شمولية. وهكذا، تميز القرن العشرون بالانتشار الهائل على الطريقة الدينية والأسطورية للسياسة الاستبدادية. لقد أوضحت ذروتها وانهيارها أنه إذا كانت السياسة تستطيع أن تسيطر على معظم جوانب حياة المجتمع، فهذا لا يعني قدرتها على تحمل أوحل جميع المشكلات الإنسانية.

إنها، بطريقتها الربّانية والدينية، عبّرت الشمولية عن الخصائص المعاصرة للسياسة، التي تتناول جميع جوانب الحياة البشرية، والتي يجب أن تتحمل مسؤولية مستقبل الإنسان في العالم.

السياسة المفرغة من محتواها والمجتزأة

بينما تضخمت السياسة لتصبح شمولية، تم إفراغ وتفتيت السياسة التقليدية غير الشمولية.

أدخل الاختراق في سياسة الاقتصاد والتكنولوجيا والطب وعلم الأحياء إلخ، الاقتصاديين، التقنيين، البيروقراطيين، الخبراء والمتخصصين، في مجالس وهيئات الدولة والأحزاب، وقاموا بتقسيم مجالات المهارات وفقاً لتخصصاتهم وطرائق تفكيرهم المحددة.

لاحقاً، في كثير من البلدان، حيث تراجعت الخصومات الأيديولوجية القديمة، أُفرغت السياسة من محتواها من الأفكار السامية لصالح الأهداف

الاقتصادية التي أصبحت ذات أولوية: استقرار العملة، معدل النمو، ميزان التجارة الخارجية، وإنتاجية الشركات، والقدرة التنافسية في السوق الدولية. وهكذا في المرحلة الحالية يوجّه الاقتصاد السياسة ويكاد أن يبتلعها.

وهكذا نجد أنفسنا في مواجهات عدة في الوقت نفسه:

- جفاف وتصّلب[1] السياسات التقليدية التي باتت عاجزة عن إدراك المشكلات الجديدة التي تواجها.

- تواجد أعداد كبيرة من السياسات التي تواجه مشكلات متعددة الأبعاد، والتي تتعامل مع هذه المشكلات بطريقة التجزئة، الفصل، الإضافة.

- تدهور السياسة التي تسمح للخبراء والإداريين والفنيين والخبراء الاقتصاديين وغيرهم بالقضاء عليها.

ومن هنا تكمن الصعوبة الكبيرة: يجب أن تشمل السياسة الإنسانية تعدد الأبعاد ومشكلات الإنسانية بمجملها ولكن مع تجنب أن تصبح شمولية. يجب أن تستوعب السياسة كل من الإدارة والتقنية والاقتصاد دون أن تسمح بأن يتم حلها أو تفريغها فعلياً، من قبل الإدارة والتقنية والاقتصاد.

يجب أن تستجيب السياسة متعددة الأبعاد لمجموعة واسعة من المشكلات المحددة، لكن يجب ألا تكون هذه الاستجابة مجزأة ومنفصلة. إنها تحتاج إلى التقنية والعلمية، ولكن يجب ألا تخضع لنظام التخصص الذي يدمر مفهوم الكلية والمفهوم الأساسي فيها: المسؤولية. على العكس من

---

(١) sclerose: يستخدم الكاتب هنا هذا المعنى الدّال على حالة مرضيّة وهي تصلب النسيج الضام أو تصلب الشرايين أو الأعصاب - المترجمة

ذلك، يجب أن تحفّز باستمرار رؤية الكلّية - الكوكبية ومفهوم الأساسية ومعنى الحياة والأهداف الإنسانية، والشعور المسؤول - الذي لا يمكن أن يأتي إلا من وعي ضرورة تحمل مسؤولية المشكلات الأساسة والعالمية.

أخيراً، إذا كان صحيحاً أن الخيال ما هو إلا دخان غير متسق، لكنه جزء من النسيج المعقد للحقيقة الإنسانية. إذا كان صحيحاً أن الأسطورة ليست بنية فائقة، لكن إحدى الحالات المُنتِجة والمُنتَجة، والمُسَببة في حلقة التنظيم الذاتي للثقافة والمجتمع، إذا كان صحيحاً أن العاطفية والحب والكراهية ليست فقط شؤوناً خاصةً ولكنها تشكل جزءاً حيوياً من الكائن البشري، لذلك لا يمكن للسياسة أن تقارب فقط هذه المشكلات بطريقة مبتذلة من العلمانية للتكنولوجيا والاقتصاد والكم.

بعد انهيار وعد الشعر (المثير للعواطف) بـ "تغيير الحياة"، أصبحت السياسة كالنثر المُبتذل (تقنية وبيروقراطية وتكنو-اقتصادية). إنما يجب أن نعرف أن الإنسان يعيش "شعرياً ونثريا"على الأرض (كما سنرى في الفصل ٨) [١] وأن الشعر ليس مجرد مجموعة متنوعة من الأدب: إنه أيضاً طريقة العيش في التشاركية، والحب، والتواصل الحماسي، والحماس، والطقوس، والاحتفال، والسكر، والرقص، والغناء، التي تُجلّي فعلياً الحياة في "النثرية" المؤلفة من مهام عملية ونفعية وفنية. هناك تكامل أو تناوب ضروري بين النثر والشعر.

---

(١) والعبارة حيث يكمل المرء كلمات هولدرلين: "من الشاعري أن يعيش الانسان على الأرض".

وهذا يعني أن السياسة الإنسانية، إن لم يعد واجباً عليها أن تحقق حلم القضاء على "النثر" من العالم من خلال تحقيق السعادة على الأرض، يجب ألا تبقى محصورة في مأزق "المجتمع ما بعد الصناعي"، أو"التقدم التقني".

يجب ألا تكون السياسة - التي يجب أن تخترق أبعاداً إنسانية متعددة - ذات سيادة. إن الحد من كل هذه الأبعاد إلى مجرد البعد السياسي لا يمكن أن يكون سوى تشويه واختزال وما قبل الشمولية.

لا شيء يفلت من السياسة، لكن كل ما يتم تسييسه يبقى بطريقة ما خارج السياسة. يجب ان تتبنى السياسة التي تحتضن كل شيء، كل ما تحتضنه. المطلوب هو التعامل جدلياً مع السياسة ومع أبعادها الإنسانية. إن دخول كل الأشياء البشرية في السياسة يجب أن يمنحها شخصية أنثروبولوجية. لذلك لا ينبغي أن تقتصر فكرة الأنثروبوليتك[1] أوالأنثروبولوجية على جميع الأبعاد التي تحتضنها: يجب عليها تطوير الوعي والمنظور السياسي من خلال هذه الأبعاد متفهمة ومحترمة كل ذلك وكل ما قد يخفى عن السياسة.

تقود فكرة سياسة الإنسان إلى فكرة السياسة العالمية (الكوكبية)، وتقود فكرة السياسة العالمية إلى فكرة سياسة الإنسان. وبهذا يخبرنا كلا الأمرين على نحو مشترك أن السياسة لا ينبغي لها أن تكون فقط ولا بشكل أساسي سياسة الجماعات العرقية، والأحزاب، والدول.

إن الطبيعة متعددة الأبعاد والعالمية (الكوكبية) والأنثروبولوجية للسياسة هي نتيجة لهذا الوعي الأساسي:

---

(١) هذه الفكرة طرحت في مقدمة السياسة للإنسان. سبق ذكره.

فما كان سابقا على هامش السياسة (مشكلات معنى حياة الإنسان، التنمية، حياة وموت الأفراد، حياة وموت الأنواع) أصبح الآن جوهرياً (مركزياً). لذلك يجب علينا أن نبني سياسة للإنسان في العالم، سياسة المسؤولية الكوكبية، سياسة متعددة الأبعاد ولكن غير شمولية. إن تطور البشر، وعلاقاتهم المتبادلة، والكينونة الاجتماعية، تشكل غاية السياسة الإنسانية في العالم، التي تدعو إلى استمرار الأنسنة.

تتجاوز العصرنة هذه السياسة (aggiornamenti) والتحديث، وما بعد الحداثة، لكن، كما سنرى، لا تهمل في أي حال من الأحوال ما هو عارض، محلي، إقليمي، كما هو في المدى المتوسط.

الترابط في الأساس الأنثروبولوجي

- كل سياسة تهدف إلى التنمية البشرية وإلى بناء عالم أفضل، يجب بالضرورة أن تطرح على نفسها هذا السؤال: ماذا يمكن أن نأمل؟ الأمر الذي يُطرح على الإنسان والمجتمع والعالم.

هذا ما فعله ماركس الذي أجرى تحقيقاً واسعاً وعميقاً، استناداً إلى مبادئ العلوم والمذاهب الفلسفية في عصره. لسوء الحظ، اعتقد أن ما كان سوى لحظة في تطور العلوم هو نهائيٌ: الحتمية والمادية؛ لقد اعتقد بسذاجة، أنه كان يستنبط قانوناً للتاريخ، والتاريخ بوهيمي، لم يعرف القوانين قط؛ واكتفى بمفهوم مشوه وبروميثي[1] للإنسان، متجاهلاً الرجل الحالم والوجه

---

(١) نسبة إلى بروميثيوس إله النار رمز الحضارة الانسانية الأولى، محب للعمل، مؤمن بالانسان - المترجمة

الآخر للإنسان العاقل (homo erectous) الذي هو الإنسان المعتوه (demens) ؛ لقد حدد على نحو مبالغ فيه الإيمان بالتقدم من خلال الحماس المسياني (الخلاصي) اللاواعي الذي أعطاه الثقة في المسيح السياسي (البروليتاريا)، وفي نهاية العالم (الثورة)، وفي الخلاص (المجتمع اللا طبقي). واليوم، كما رأينا، فإن القرن الخامس من العصر الكوكبي لا يسمح للعلوم الفيزيائية والبيولوجية والإنسانية قول الكلمة الأخيرة في المعرفة الأنثروبولوجية - البيولوجية الكونية، بل بعيداً عن ذلك، لندرك مدى تعقيد الإنسان الشيطان، وتعقيد الكائنات الحية، وتعقيد الأرض، والتعقيد الكوني. اليوم، على الرغم من المقاومة الهائلة التي تبديها البنى العقلية والمؤساساتية، من الممكن للفكر المعقد أن يتخذ خطواته الأولى، دون الاختزال أو الانفصال، دون خلط وتحديد كل شيء، وذلك لربط كل ما كان منفصلاً مع الحفاظ على الفروق والاختلافات.

يمكن للأنثروبولوجيا المعقدة أن تُنير الطريق للأنثروبوليتيك. لا يملك الإنسان المهمة السامية المتمثلة في السيطرة على الطبيعة، لكن يمكنه مواصلة الأنسنة. والأنسنة عشوائية حيث أن الإنسان العاقل - المعتوه يمتلك، في الوقت نفسه، الخير الأصلي والشر الأصلي، ممتَزجين مع بعضهما[1]. يجب إدراك هذا التناقض الذي يحمل في طياته نقاط الضعف والبؤس والعوز والقسوة واللطف والنبل وإمكانات الخلق والتدمير والوعي واللاوعي، وهو ما فعله باسكال في صفحة من الأنثروبولوجيا الرائعة[2].

---

(١) انظر التناقض المفقود، إدغار موران، المصدر انف الذكر، ص. ١٠٧-١٢٧.

(٢) أفكار (طبعة Brunschwicg)، باريس، كلاسيكيات غارينيه، ص. ٥٣١. المصدر الأنف الذكر.

مسألة التعقيد:

بيئة السياسة والإستراتيجيا

دعونا نتذكر مبدأ علم البيئة السياسية. لا سيادة للسياسة على المجتمع ولا على الطبيعة، وهي تتطور بشكل مستقل/تابع[1] في نظام حيوي اجتماعي، وهذا الأخير متعلق بنظام حيوي طبيعي، الذي تَدْخُلُ عواقب أفعاله على الفور في لعبة ردود الفعل للمجموع الاجتماعي والطبيعي، لا تنصاع إلا لفترة وجيزة ونادراً لرغبة أو إرادة الجهات الفاعلة. ويعبر عن هذا الأمر بأصدق ما يمكن في العصر الكوكبي، إذ يؤدي الاعتماد المتبادل المعمم للإجراءات المحلية والمفردة لعواقب عامة وبعيدة وغير متوقعة. لذلك يجب أن يكون مبدأ بيئة العمل السياسي حاضراً باستمرار في الفكر السياسي الإنساني وفي السياسة الكوكبية.

الإستراتيجية هي السلوك المعقلن لعمل ما ضمن سياق من عدم اليقين واحتمالية المخاطر. يجري وضع الإستراتيجية وفقاً للأهداف والمبادئ، ويتم تصور سيناريوهات مختلفة محتملة لمسار العمل، ويجري اختيار السيناريو الذي يبدو أنه الأكثر ملاءمة وفقاً للحالة: في بعض الأحيان، من الأفضل اعتماد سيناريو يقلل من المخاطر ولكن أيضاً من الفرص، وفي أحيان أخرى يكون من الأفضل اختيار سيناريو يزيد من الفرص والمخاطر أيضاً. تقوم الإستراتيجية بتعديل مسار الإجراء المعتمد خلال تطبيقه اعتماداً على معطيات واردة، وردود الفعل، والمخاطر،

---

(١) بخصوص مفهوم الاستقلال / الاعتماد، انظر مقدمة في التفكير الشامل، مرجع سبق ذكره.

والأحداث، والظهور غير المتوقع للعوائق أو ازديادها، ويزداد إثراء الإستراتيجية بالخبرة والقدرة على الاستجابة للمحن.

إن إستراتيجية السياسة الإنسانية الكوكبية محكومة بالتطور في ظرف من عدم اليقين الشديد. انهارت التوقعات المستقبلية التي كانت ممكنة قبل خمسة وعشرين عاماً. ثمة العديد من العمليات المتضاربة، المتنازعة، المترابطة، العشوائية، عملية متسلسلة من الأفعال وردود الأفعال التي تجعل المراهنة على مستقبل آمن غير ممكنة، يمكننا فقط المراهنة على مستقبل مرغوب فيه، ممكن لكنه غير مؤكد، من خلال تطوير الإستراتيجية المتكيفة بدقة مع عدم اليقين الكوكبي.

يجب تطوير استراتيجية أنثروبوليتيكية (سياسية - إنسانية) كوكبية استناداً إلى الأفكار الكبرى أوالأفكار الموجّهة، أي باتجاه الأهداف التي حاولنا تحديدها (انظر الفصل ٤).

المبادئ الأنثروبوليتيكية معقدة، تنطوي على عدم اليقين و/ أو العكسية داخلها. لذلك فإن مبدأ بيئة العمل يحمل معه عدم اليقين ولكنه يجعل من الممكن تصحيح أوالتخلي عن الإجراء عندما يتعارض مع الغاية. لقد أشرنا بالفعل إلى أن المبادئ الحوارية (الدياليكتولوجية) تحمل بحد ذاتها اثنتين أوثلاثاً من الضرورات التكميلية والعكسية مثل الذي يربط

المحافظة← الثورة ←المقاومة

دعنا نشر أيضاً إلى المبدأ الحواري (الدياليكتولوجي) الذي يجب أن يربط بين التحول والتنظيم. أي تحول تفكيك / إعادة تنظيم. إنه يفكك البنى القديمة لبناء بنى جديدة. كل ابتكار يهدف للتغيير هوانحراف، وبما

أن الضوابط الموضوعة مسبقاً تلغي الانحرافات، يجب عليها تحطيم هذه الضوابط وذلك بوضع ضوابط جديدة لتجنب التفكك الذي من شانه أن يلغي الابتكار نفسه. لذلك نحتاج إلى معايير وضوابط وقواعد - وهي مصطلحات تحمل في ذاتها فكرة التنظيم - وذلك لتتم عملية التفكك التي تسمح بالتجديد وبوضع الضوابط التي تحافظ على التحول.

لقد ألمحنا من قبل إلى "الحد الأدنى"، حيث تؤدي الزيادة في الفرص إلى زيادة المخاطر، والعكس من ذلك، فتقليل المخاطر يسبب تقليل الفرص. في الحالة الأولى، مبدأ الاختيار هوالجرأة، وفي الحالة الثانية هوالحذر. إنما من الصعب تحديد متى يجب تفضيل الحكمة (الحذر) على الجرأة. فيما يتعلق بالمسار العام للكوكب، أشرنا سابقاً، من خلال وضع التباطؤ بين أهدافنا الأرضية، ما يعني أنه يجب أن تصبح الحكمة المبدأ العام. إلا أن هذا المبدأ العام لا يعني قطعاً أن التسارع غير ضروري في المواقف الحرجة ولا أن الجرأة غيرضرورية لتحريك الجمود. وبالمثل، يجب علينا تعزيز المبدأ الأخلاقي الذي بموجبه يجب على الوسائل أن تنسجم مع الغايات، ولكن البنية المعقدة للدائرة بين الغايات والوسائل توضح لنا أنه في الحالات الحدودية، تكون الوسائل "الرديئة" ضرورية للنجاة من الأسوأ.

من بين هذه المبادئ، دعونا نوضح أيضاً التكاملية بين مبدأ التضامن والعالمية، الذي يتطلب معالجة على المستوى العالمي للمشكلات ذات الأهمية العالمية والعامة، ومبدأ الإستطرادية، وهويحفظ للسلطات الوطنية أو الإقليمية أو المحلية الحق في التعامل على نحو مستقل مع المشكلات التي تدخل في اختصاصها.

أخيراً، لنتذكر التعقيد الخاص بمبدأ الثالوث الحرية والمساواة والإخاء. إنها مبادئ متكاملة، إذ يجب أن يكون هناك حد أدنى من الحرية والمساواة حتى يكون هناك أخوّة، والحد الأدنى من الأخوّة بحيث لا تكون الحرية عبارة عن رخصة والمساواة مقبولة من حيث المبدأ ، هذه الحدود متعارضة أيضاً، إذ أن الحرية تميل إلى تدمير المساواة وتتجاهل الأخوّة، وتتطلب المساواة قيوداً تؤثر في الحرية، والأخوة على عكس المبدأين الآخرين لا يمكن فرضها أوضمانها بموجب أي قانون أودستور. ومع ذلك، كما يقول جان أونيموس، ليست الأخوّة طوباوية أكثر من الحرية والمساواة، اللتين أيضاً لا يمكن تأطيرهما تماماً بالدستور . بعد قول هذا يجب أن نعود هنا مرة أخرى إلى مبدأ بيئة الفعل لضمان عدم تحويل فضائل الحرية والمساواة والإخاء إلى مساوئ. كم من الجرائم المرتكبة ضد الحرية باسم الحرية، الجرائم المرتكبة ضد المساواة باسم المساواة، الجرائم المرتكبة ضد الأخوّة باسم الأخوّة!

يجب خضوع الإستراتيجية السياسية - الإنسانية لمعايير. هذه المعايير (normes) ليست "حقن" أخلاقية ولكن قواعد سلوكية تنشأ من الخلط بين مواجهة المبادئ والأهداف والأفكار الرئيسية مع الحقائق والمنطق السائد والميول التطورية الحالية. باختصار، المعايير هي نتاج الغايات والمبادئ والظروف التجريبية لمعطيات الفعل في الآن نفسه. وبالتالي، يمكن عدّ مبدأ الحذر، مبدأ الكيفية وهو مبدأ "أقل لكن أفضل" معياراً.

يمكننا تحديد اثنين من المعايير الدائمة:

المعيار ١. السعي نحو كل ما هو ترابطي، ومحاربة كل ما هو انفصالي. هذا لا يعني أنه يجب الإبقاء على قيود الهيمنة على أمة أوجماعة عرقية ترغب في التعبير عن نفسها. إذ نتيجة ذلك، في هذه الحالة بالذات، التحرر لن يؤدي إلى عزل وتمزيق الروابط - الاقتصادية والثقافية - القائمة مسبقاً وسابقاً ولكن إلى خلق حاجة إلى المشاركة في اتحاد جامع. وهكذا، في سبيل المثال، ينبغي أن يكون تحرير دول البلطيق مصحوباً بالاندماج في وحدة بحر البلطيق الجديدة - السويد والنرويج وفنلندا والدنمارك وروسيا - وبناء علاقات متميزة مع روسيا ليس فقط لحماية أوجه التكاملية الاقتصادية، إنما أيضاً لحماية الأقليات الروسية الموجودة هناك.

على نطاق أوسع وأعمق، يجب أن يصبح الاتفاق، أي الارتباط والتضامن، كما يقول أرتورومونتس، المحرك الرئيس الجديد للتاريخ، الذي سيخضع له المحرك الآخر التقليدي ألا وهو الصراع.

المعيار ٢. التوجه نحو عالمية حقيقية. لا تأتي العقبة فقط من السلطات الأنانية أو المتعصبة عرقياً والتي تُضحّي دائماً بالمصلحة العامة من أجل مصالحها الخاصة، التي قد تبدو عالمية، وتعتقد أنها تعرف / تخدم المصلحة العامة، لكنها تطيع منطقاً مُجَرَداً فقط. من الصعب تطبيق عقلنة معيار العالمية الواضحة. فالمصلحة العامة ليست هي محصلة ولا هي انعدام المصالح الخاصة. توضح بيئة العمل أنه يمكن تحويل العمل في خدمة المصلحة العامة باتجاه خدمة المصالح الخاصة. يجب باستمرار إعادة تقييم فكرتنا عن المصلحة العامة اعتماداً على المحيط الخاص بنا ألا وهو كوكب الأرض.

تتطلب إستراتيجية السياسة الشاملة الوعي بالتفاعلات بين القطاعات والمشكلات ولا يمكن التعامل مع هذه المشكلات والقطاعات بمعزل عن بعضها. يجب أن تعمل على التفاعلات نفسها، وتجنب المعاملة أحادية الجانب والقاسية.

فلنأخذ بلا تحديد أنموذج حماية المحاصيل ضد عوامل ممرضة ما. تدمر المبيدات بالتأكيد العوامل الممرضة، ولكنها تدمر أيضاً أنواعاً أخرى مفيدة؛ إنها تدمر الضوابط البيئية الناتجة عن التفاعلات بين الأنواع المتناحرة وتؤدي إلى زيادة تعداد بعض الأنواع، وهوما يمكن أن يصبح ضاراً؛ إنها تؤثر في الحبوب والخضروات، ومن ثم تُفسد نوعية الطعام. من ناحية أخرى، يمكن إجراء علاج بيئي لتدمير أو إضعاف نوع ضار من خلال إدخال أحد العوامل المتناحرة معه، ثم مراقبة ردود الفعل المتسلسلة المحتملة.

ظلت السياسة على مستوى الحلول المشابهة للمعالجة بالمبيدات. إذ تعمل على معالجة مشكلة معزولة بدلاً من النظر في التداخلات المتصلة ببعضها. وتالياً، بالنسبة لمشكلات الصحة، والديموغرافيا، ونمط الحياة، والبيئة، يتم تنفيذ سياسات منفصلة عن بعضها، وليس سياسة تدخل على مجموع التفاعلات بين هذه المشكلات.

علاوة على ذلك، لا يتعلق الأمر بمجرد مراعاة التيارات السائدة. يجب إدراك أن التيار الرئيسي يسبب تيارات مضادة يمكن أن تصبح قوية جداً. لذلك جرى خلق القديم - الجديد، والرؤية الطبيعية الجديدة، والريفية الجديدة، والإقليمية الجديدة، التي نشأت كرد فعل على التيار الكبير للتجانس والتمدن (إنشاء المدن) في الستينيات، وكذلك كان التيار

البيئي هو الذي فاجأ وأربك السياسات الصناعية وصناعة المدن[1] منذ عام ١٩٧٠ وما بعده.

الأزمنة الثلاثة

يجب أن تعمل الإستراتيجية السياسية على مخططات عدة في الوقت نفسه ، الأمر الذي يطرح مشكلات بشكل متواصل من الأولوية. يجب على سائق السيارة الذي يريد الوصول إلى نهاية سباقه بأسرع الطرائق و / أو بأضمنها أن يتجنب على الفور الشارع الوعر، والخروج من طابور السيارات المزدحم، وتفادى المشاة المتهورين. في الوقت نفسه، يجب أن يكون منتبهاً إلى ما بعد الحالي حتى نهاية مجاله البصري، التنبه لإمكانات الاختناقات المرورية، أو ربما الاستعداد لتعديل طريقه، وحتى انتهاكه لقانون المرور بالسير في اتجاه ممنوع... هكذا، يجب أن تجمع الإستراتيجية السياسية باستمرار بين المدى الآني أو المتوسط أو الطويل.

نحن نغير منظور رؤيتنا حين الانتقال من أجلٍ إلى آخرٍ، اللذين مع ذلك لا توجد بينهما حدود حقيقية، إنهما يتداخلان ويوجدان في بعضهما البعض. يجب العمل على هذه المراحل الثلاث في الوقت نفسه، وهذا يعني أن المديين المتوسط والطويل يجب أن يكونا حاضرين في الوقت الحاضر.

الآني والحاضر

ثمة حاجة إلى سياسة يومية وبالذات لأن المستقبل ضبابي. يجب التحرك ضمن مجال الرؤية وأحياناً حتى لو لم يكن هناك رؤية.

---

(١) ب. بيلارد. ، لعنة فوس باريس، دار سوي ١٩٨١

تكرس السياسة والآنية لحالات الطوارئ، لكن أيضاً للاستعدادات طويلة الأجل.

تتطلب حالة الطوارئ براغماتية وسياسة الأقل ضرراً. كما تتطلب عكساً مؤقتاً للمبادئ.

وكما قال أبقراط وابن سينا، يجب علينا ألا نعالج الأعراض، بل أسباب المرض، ما يُدعى رؤية طبية متمكنة، وعلى المدى الطويل. ولكن، إذا كان المريض في أسوأ حالاته، فيجب علينا التدخل في الأعراض، وقبل كل شيء، نخفض الحرارة قبل البدء في العلاج الأساسي، لكن في هذه الحالة تعدد تداخلات الطوارئ يبعدنا عن خطة العلاج الأساسية، ولأن السياسة قصيرة النظر، فإنها تتوقف يوما بعد يوم عن أن تكون ملائمة لتصبح سياسة عادية.

تدفع الضرورات المتعددة بالفوري للاستمرار الحيوي - الحروب المحلية التي تهدد بالانتشار، والتهديدات الذرية والظهور المفاجئ للوحشية، والكوارث الطبيعية و/ أوالتقنية. تثير الضغوط الآنية باستمرار الضرورات المتناقضة (الارتباط المزدوج) بين الحاجة إلى سياسات عميقة - التي تتطلب استثمارات فكرية ومادية مربحة فقط على المدى الطويل - وبين المزايا التي تمنحها فوائد أو متع اللحظة.

تعمل فكرة الآن، الأوسع من تلك الخاصة بالفوري، كحلقة وصل بين المدى القريب والحد الأوسط. إنها تدعو إلى التحديث (aggiornamento) وحداثية السياسي، للتغلب على "القِدَم" وإجراء التعديلات الأساسة لاحتياجات الآن. لكن، إذا كان من الضروري التخلص من الطرائقية،

والوصفات الجاهزة، والصيغ البالية، فمن الأفضل أولاً التأكد من أنها فعلاً بالية وأنها ليست ببساطة دُرجة (موضة) باطلة، حيث يثبت ما هو" طراز قديم"، في كثير من الأحيان قوة أكبر حين الاستخدام من "الحديث" المقترح. يجب أن لا نفعل في السياسة كما فعل فلاحو منطقة البروتاين الفرنسية الذين استبدلوا أثاثهم القديم المصنع يدوياً من الخشب الثمين بأثاث صناعي من نماذج مكررة من الخشب الأبيض وبعد أن قاموا بإلقائه أوإعطائه لتاجر البضائع المستعملة اكتشفوا قيمته بشكلٍ متأخرٍ.

هل يجب علينا الاعتماد - والتخطيط -على زمن اليوم، في حين يجري تجاوزه؟

تعتقد "الحداثة" في التعليم، على سبيل المثال، أن من الضروري تكييف الجامعة مع الاحتياجات الاجتماعية الحالية للسوق والاقتصاد، في حين أن الجامعة لديها مهمة في الوقت الراهن وهي تقديم القيم القديمة (التي أكل الزمن عليها وشرب) التي تحملها داخلها. وبتعبير آخر ، وعلى الرغم من المانعة الأكاديمية يتوجب، ومن الآن، التهيأ لإصلاح الفكر وهذا وحده يسمح بتلبية تحديات التعقيد التي يرمي الواقع بها علينا. سيكون مثل هذا الإصلاح أكثر من مجرد تحديثات وحداثة: إنه سيلبي تحديداً احتياجات السعي وراء الأنسنة.

نعتقد أنه يتوجب التكيف مع الحاضر، بينما نتكيف مع الحاضر يجب أن نكيّف الحاضرمعنا. يجب ألا يتم التحديث إذا كان هذا المصطلح يعني قبول كل شيء حديث كضرورة طبيعية وتكييف السياسة مع الواقع

المفروض. يجب على العكس، تحديث السياسة بمعنى تكييفها مع المشكلات الانثروبولو - سياسية والكوكبية الجديدة التي تقتحمها من الداخل. إنما من الضروري أيضاً تسييس الحداثة من خلال دمجها بطريقة صحيحة في منظور السياسة الإنسانية والكوكبية.

في هذا المعنى، يجب أن نتجاوز التحديثات، التحديث، قصر النظر وسطحية ما بعد الحداثة. إذ يجب أن نكيف السياسة مع الحاضر و الحاضر مع السياسة في آن معاً.

الحد الأوسط

السياسة في حدها الأوسط هي سياسة استثمار باتجاه الغايات الأرضية، وفي الوقت نفسه هي سياسة انتقالية تأخذ في الحسبان الصعوبات والمقاومات والتيارات والتيارات المضادة.

ضمن مفهوم الحد الأوسط يجب تأكيد مبادئ إستراتيجية السياسة الإنسانية والمعايير التي حددناها أعلاه.

المدى البعيد

تعمل السياسة طويلة الأجل على مبدأ جذب الغايات التي حددناها، والتي يجب التذكير بها باستمرار، الأفكار - المساعدة والأفكار - الدليلية.

يتطلب المدى الطويل في الزمن الحاضر مثل المدى المتوسط، حتى أكثر منه، استثماراً سياسياً وفلسفياً للأسف لا يهتم به نهائياً، أولئك الذين يعدون أنفسهم طلائع مستقبل أفضل. الاستثمار في إعادة التفكير السياسي يتطلب إعادة تأسيس فعلي، الأمر الذي يتطلب إصلاح الفكر. وهو الغرض من هذا الكتاب.

المساحات الثلاث

كما هوالكون الفيزيائي المجهري، والكون الكوني الشاسع، يتوضع الكون المتوسط الفيزيائي لمنطقتنا الوسطى بين الكبير اللانهائي والصغير اللامتناهي، وهما من طبيعة غير متجانسة على الرغم من أنهما من هذا الكون نفسه، وبالمثل، فإن الكون الاجتماعي المجهري **(**عالم العلاقات الشخصية**)**، والكون المتوسط الاجتماعي **(**عالم الجماعات العرقية والمجتمعات**)** والكون الاجتماعي الشاسع **(**مناطق واسعة من الحضارة والفضاء الكوكبي**)** ههم من طبيعة غير متجانسة، على الرغم من أنهم الكون نفسه. تتموضع السياسة عادة على مستوى الكون المتوسط - الاجتماعي. تميل إلى نسيان العلاقات المجهرية من شخص إلى شخص[1] **(**بمعنى الحياة الفردية الفعلية**)** والعالمية الملموسة لمشكلات الكواكب.

تتمثل مهمة السياسة الإنسانية في النظر في هذه المقاييس الثلاثة وتقديم مبادئ وإستراتيجية التجانس بطريقة محددة لكل منها.

أخيراً، دعونا لا ننسى أن الذي يعطي أصالة للعصر الكوكبي في القرن العشرين هو تشكيل بناء مكون من "الزمكان" الكوكبيين المعقد، حيث تعيش فيه محمولة ضمن وعاء زمني موحد، جميع المجتمعات التي تنتمي لأزمان مختلفة: الحقبة القديمة، الحقبة الريفية **(**الزراعية**)**، الحقبة الصناعية، الحقبة ما بعد الصناعية، إلخ. كل هذا يجب أن يقودنا إلى رفض الفكرة المدعية بوجوب مسايرة المجتمعات كافة للحقبة الأسرع زمنياً،

(١**)** انظر إ. موران، مقدمة في سياسة الانسان، مرجع سابق.

"حقبة الزمن المحسوب على العداد"، الحقبة الغربية. يجب أن يقودنا بدلاً من ذلك إلى أن نعيش تكامل الحقب المختلفة، وأن نحتوي غزو حقبة " زمن العداد"، وأن نسعى إلى إبطاء الحقبة الغربية.

التحضير لعملية إبطاء السرعة

حضارتنا مصابة بمرض السرعة. من الضروري جداً أن نعي حالة اللهاث المجنون، وخطر السرعة الجامحة. يجب استعمال المكابح، خفض السرعة، من أجل بناء مستقبل مختلف. من الضروري الآن مواجهة التنظيم الدولي للنمو الاقتصادي والمنافسة، وإصدار ميثاق لمعايير طريقة الحياة، بما في ذلك حقوق الزمن المخصص للإنسان. كيف يمكن الإبطاء؟ تتطلب هذه المشكلة الوعي العالمي نفسه الذي بدأ بالظهور في قمة الأرض في ريو. إنها مشكلة لا يمكن أن تعالجها أمة واحدة في عصر الاعتماد المتبادل للدول على بعضها، وإلا ستجد هذه الأمة نفسها في حالة من الاختناق الذاتي.

إلا أن مبادرة من القوى الصناعية الكبرى يمكن أن تطلق عملية التباطؤ. وهكذا فإن رفض الولايات المتحدة - هذا الرفض الذي جاء جزئياً تحت الضغط البيئي - لاستخدام الطائرة التجارية الأسرع من الصوت أدى إلى عدم انتشار استخدامها حتى الان على نطاق واسع في العالم. لأول مرة في القرن العشرين، لم يُعْتَمَد حل تقني مشروط باستخدام السرعة الزائدة، على الأقل تم تأجيله. يمكن أن نتبنى معايير لابطاء العدّاد الزمني في العديد من الأنشطة البشرية، بما في ذلك عودة الأنشطة المرتبطة بالإنجاز الكامل لمهمة محددة، أو الحصول على المنتج النهائي، أو نوعية

الخدمة المقدمة، وليس حساب وقت العمل؛ يمكننا إعادة تأهيل مفهوم التباطؤ - تباطؤ الظل - (lentum in umbra) في الحياة اليومية، وتوسيع وتطوير إمكانات الضيافة حيث يظهر الوقت البشري على نحو واضح، ويعمم مفهوم السنة السبتية (عادة يهودية قديمة تعطي سنة استراحة كل سبع سنوات عمل) في جميع المهن. أخيراً، فإن التقنيات الجديدة التي تسمح بتطوير الإنتاج عن طريق توفير الطاقة البشرية تدعو اليوم إلى إعادة النظر في مفهوم العمل – تطور يستهلك طاقة أقل فأقل، ومُحوسب أكثر فأكثر- ومعالجة الإفراط في التخصص لإعادة السيطرة على مفهوم الزمن المحسوب على المؤقت ومنطق الآلة الاصطناعية الجامد.

التحضير لعصر التقنية الفائقة (الميتا تقنية)

إن الثورة التكنولوجية الثالثة - إذ كانت الأولى هي ثورة المحرك البخاري، والثانية اكتشاف واستخدام الكهرباء - هي ذات طبيعة حسابية /حاسوبية / تواصلية. تميل إلى تخفيف قيود المسافة والمكان. تسود الشبكات في أماكن العمل - حيث تعمل شبكات التلكس والفاكس والمذياع والحاسوب بالفعل على ضمان عمل السوق العالمية - ويمكن فصل العمل أكثر فأكثر عن مكان مركزي (لم نعد بحاجة إلى مكان مركزي لإنجاز العمل).

سيمكن تطور هذه التقنية قريباً من اعتماد منطق جديد للآلة الإصطناعية أقرب إلى منطق الدماغ الطبيعي عن طريق تطوير أجهزة حاسوب تحوي شبكات شبه عصبية، التي ستؤدي عواقب استخدامها إلى تغيير الحياة خارج نطاق العمل، وحياة العمل أيضاً.

من ذلك الحين فصاعداً، يمكننا أن نأمل أن تتوقف التكنولوجيا عن أن تكون المرشد الأعمى لمستقبلنا؛ إذ يمكن للمرء أن يأمل اندماج هذه التقنية ضمن الغايات الإنسانية. وعليه يجب التحضير لعصر التقنية الفائقة.

وهكذا، نرى أن إستراتيجية السياسة الإنسانية الكوكبية تتطلب في الوقت نفسه، المحافظة المتزامنة لضروريات متضادة، وعملية ترتيب صعبة لمتطلبات مختلفة تماماً وفقاً للوقت والمكان، ومصادر دائمة لإعادة الفكر والتحقق والتعديل.

بالتأكيد، كل إستراتيجية هي فن، والفن المعبر عن نفسه ليس بالانصياع لقواعد الفن وانما بالمحافظة التبادلية أو التعددية لهذه القواعد. هذا ما أحسه سانت جوست عندما قال أن فن القيادة لم ينتج حتى الآن سوى الوحوش.

إذا نجحت الأنثروبوليتيكا في التجسيد، وفي تشكيل حركة وبناء توجه ستكون المسيرة نحوغايتها عشوائية لقرون عدة. وحتى إذا أُنجزت، فالمطلوب منها التجدد باستمرار.

-٧-

إصلاح الفكر

ثمة جهل عميق بطبيعة ما يجب أن تكون عليه المعرفة الحصيفة. وفقاً للقناعات السائدة، دقة المعرفة مع التخصص ومع التجريد. إنما الحد الأدنى من المعرفة يعلمنا أن الأهم هي السياقية. يلاحظ كلود باستيان أن " التطور الإدراكي لا يتجه نحوإنشاء معرفة مجردة أكثر فأكثر، ولكن، على العكس من ذلك نحو وضعها في سياقها المناسب "[١] وهو ما يحدد شروط اندماجها وحدود صحتها. يضيف باستيان: "يعد السياق شرطاً أساسياً لتحقيق الكفاءة (من أجل الأداء المعرفي)."

تشكل المعرفة المتخصصة في حد ذاتها شكلاً معيناً من أشكال التجريد. التخصص " مطلق السمة " أي اجتزاء موضوع من حقل معين، وإنهاء روابطه وتواصله البيني مع بيئته، وإدراجه في قطاع مفاهيمي مجرّد، هو قطاع التخصص المحدد والمحدود، وحيث تتجاوز حدوده البنى النظامية على نحو عشوائي (علاقة الجزء بالكل) وتعددية الأبعاد للظواهر. هذه العملية تقود إلى التجريد الرياضي الذي ينأى بنفسه عن المشخّص

(١) كلود باستيان "الفجوة بين المنطق والمعرفة، مراسالات ٧٩ مركز البحوث الوطني الفرنسي cnrs، العلوم المعرفية، تشرين الأول ١٩٩٢

(المحسوس) من ناحية، عن طريق تفضيل كل ما هو قابل للحساب والاستنباط، ومن ناحية أخرى عن طريق تجاهل السياق اللازم لمعقولية[1] مكونات موضوعه.

وبالتالي، فإن الاقتصاد، وهو العلم الاجتماعي الأكثر تقدماً من الناحية الرياضية، هو العلم الاجتماعي والإنساني الأكثر تخلفاً، ذلك أنه تجرّد عن الظروف الاجتماعية والتاريخية والسياسية والنفسية والبيئية التي لا يمكن فصلها عن الأنشطة الاقتصادية. هذا هو السبب في كون خبرائه غير قادرين أكثر فأكثر على تفسير أسباب وعواقب الاضطرابات النقدية والبورصة، على التكهن بالمسار الاقتصادي والتنبؤ به، حتى في المدى القصير. فجأة، تصبح عدم الكفاءة الاقتصادية المشكلة الرئيسة للاقتصاد.

من المؤكد أنه يجب على المعرفة أن تستخدم التجريد، لكن من خلال السعي إلى بناء نفسها بالرجوع إلى السياق، ومن ثم، يجب أن توظف ما تعرفه المعرفة عن العالم. كما كتب فرانسوا ريكاناتي[2]: "إن فهم الخطاب (enoncé) لا يمكن اختزاله بعملية فك ترميز بمنتهى البساطة، إنه عملية غير نمطية للتفسير، تعمل على توظيف الذكاء العام وتعتمد بشكل كبير على معرفة

---

(١) المعقولية (inteligibilite) فلسفياً هي كل ما يُدرك بالعقل دون الحواس - المترجمة

(٢) ١- البراغماتية اللسانية"، مراسلات مركز البحوث الفرنسي سي.ن.ر.س، ٧٩، العلوم المعرفية، سبق ذكره، ص. ٢١.

٢- enonce ملفوظ طويل أو حسب هاريس متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بوساطة المنهجية التوزيعية، وعلى نحو يجعلنا نظل في مجال لساني محض – المترجمة

العالم"، وهذا يعني أن فهم معطيات معينة لا يمكن أن يكون واضحاً إلا لأولئك الذين يحافظون على ذكائهم العام ويشحذونه، والذين يوظفون معارفهم العامة في كل حالة بعينها. قال مارسيل موس: "علينا إعادة تشكيل كل شيء". ونحن نضيف: يجب علينا تعبئة كل شيء. من المستحيل، بالتأكيد، الإحاطة بكل شيء عن العالم، أو إدراك تحولاته متعددة الأوجه. ولكن مهما كان ذلك عشوائياً وصعباً، يجب محاولة إدراك المشكلات الرئيسة للعالم والمعلومات الأساسية المتعلقة به وإلا كان الأمر نوعاً من الحماقة المعرفية.

هذا فضلاً عن أن سياق كل معرفية، اليوم، سواء كانت سياسية أو اقتصادية، أنثروبولوجية بيئية الخ... هو العالم نفسه. يتطلب العصر الكوكبي وضع كل شيء في سياق الكوكبي. تصبح معرفة العالم كعالم ضرورة فكرية وحيوية. هذه هي المشكلة العالمية لجميع المواطنين: كيف نفتح مدخلاً للوصول إلى المعلومات حول العالم، وكيف نكتسب قدرة التعبير عنها وتنظيمها. ولكن من أجل التعبير عنها وتنظيمها ومن ثم إدراك ومعرفة مشكلات العالم، ينبغي إصلاح طريقة التفكير. هذا الإصلاح، الذي يتضمن تطوير سياق المعرفة، يدعو بحكم الواقع إلى تعقيد المعرفة.

التفكير بطريقة القطع المجزأة

يسمح الفكر - الذي يقّسم ويقطع ويعزل - للمتخصصين والخبراء أن يكونوا فعالين للغاية ضمن أقسامهم والتعاون بفاعلية في مجالات المعرفة غير المعقدة، ولاسيما تلك المتعلقة بتشغيل الآلات الاصطناعية؛ لكن المنطق الذي يعتمدونه يضفي على المجتمع والعلاقات الإنسانية، القيود والآليات

اللاإنسانية للآلة الاصطناعية، وحيث تجهل رؤيتها الحتمية والميكانيكية والكمية والشكلية أو تحجب أو تذّوب كل ما هو شخصي، عاطفي، حر، خلّاق. بالإضافة إلى ذلك، تصبح العقول المجتزأة والتكنو- بيروقراطية غير قادرة على رؤية ردود الفعل والسببية المترابطة في كلٍ واحد، ولا تزال تتعامل غالباً مع الظواهر وفقاً للعلاقة السببية الخطية؛ فهم يدركون الحقائق الحية والاجتماعية وفقاً للمفهوم الميكانيكي / الحتمي، وهو تصور صالح فقط للآلات الاصطناعية. على نطاق أوسع وأعمق، هناك عجز في العقل التكنو- بيروقراطي عن إدراك وتصور مدى التعقيد والعالمية العميقة لتعقد المشكلات الإنسانية.

المشكلات مترابطة في الزمان والمكان، في حين أن البحث التخصصي يعزل المشكلات عن بعضها بعضاً. هناك بالتأكيد، لا سيما فيما يتعلق بالبيئة والتنمية، وعيٌ مبدئي يؤدي إلى تعزيز البحوث متعددة التخصصات، ولكن على الرغم من تخصيص أموال طائلة لهذا الغرض، تأتي النتائج هزيلة لأن الشهادات والمهن وأنظمة التقييم تتم في إطار التخصصات. قبل كل شيء، هناك مقاومة من قبل مؤسسة الماندرين الجامعي للفكر العبر- تخصصي، كما كانت المقاومة هائلة في القرن السابع عشر في جامعة السوربون لتطوير العلوم. يتم رفض إمكانية التفكير والحق في التفكير من قبل مبدأ التنظيم التخصصي للمعرفة العلمية وانغلاق الفلسفة على نفسها. معظم الفلاسفة يرفضون تكريس تفكيرهم للمعرفة الجديدة التي تغير مفاهيم العالم، الواقع، الإنسان، إلخ. لأول مرة في التقليد المولود من الإغريق، يديرون ظهورهم للكون ولمصير الإنسان في العالم، عن الاحراج الواقعي. بينما العالم

يموت يناقش هؤلاء الفلاسفة جنس أوديب، يناقشون Lebenswelt[1] دوَّنَ ليبن أو والت، متجاهلين إصلاح الفكر لصالح إصلاح حرفية النص.

يحرم العلماء غير العلماء من الحق والقدرة على التفكير في اكتشافاتهم ونظرياتهم. إنما لمن كتب أينشتاين، هايسنبرغ، بور، مونود، يعقوب، بريجوجين، ريفز، ديسبانيا، هاوكينجس؟ إذا كتبوا كتباً لغير العلماء، فذلك لأنهم يعتقدون أن أفكارهم يمكن أن تكون مفهومة للمواطنين: بالتأكيد، الكفاءة الفنية أوالرياضية خارجة عن متناول "الإنسان البسيط والعادي"، لكن الأفكار يمكن توصيلها ومناقشتها بلغة مشتركة. وراء معادلات فيزياء الكم، هناك فكرة مفادها أن العالم الميكروفيزيائي لا يطيع المنطق والهياكل والقوانين نفسها مثل عالمنا الفيزيائي، على الرغم من أن عالمنا يتكون من هذا النسيج الفيزيائي الميكانيكي. وراء معادلة بولتزمان للمبدأ الثاني للديناميكا الحرارية، هناك أفكار حول تدهور الطاقة، وخلل النظم، ومكان أو دور الاضطراب في العالم المادي، الذي يهم كل شخص كما يهم الجميع.

العقلانية الزائفة

في العصر الحالي، يمكن أن تذهب الآثار الضارة التي تخلفها سيطرة الخبراء واللجان والإدارات على القرار إلى حد المأساة. وإحداها هي قضية الدم الملوث. من المسلّم به أن جميع المعلومات غير المتوقعة والغريبة تتصادم مع

---

(١) Lebenswelt: البيئة المعيشية عالم الحياة .يمكن عده ككون لما هو بديهي أو مُعطى. عالم قد يتعرض له الأشخاص معاً وبالنسبة لهوسر فإن عالم الحياة هو الأساس لكل الاستفسارات المعرفية. فالمفهوم له أصل في علم الأحياء ويستخدم الآن في الأساليب النظرية البنائية – المترجمة.

الرأي المقبول وعادات التفكير لأنها تسبب لها خللاً وازعاجاً، ولكن علاوة على ذلك يمكن أن تصبحَ محنطةً عند بقائها لوقت طويل ضمن روتين المكاتب، أو تنهار تماما أو تُرفَض من خلال تجزئة أي مشكلة تتعامل معها. المنظمة التخصصية عالية التخصص، التي بدعم من عدم مسؤولية اللجان، تقضي على الشعور بالمسؤولية. تتضاعف الإنذارات والتحذيرات لفترة طويلة دون نجاح ولا تصل إلا بعد فوات الأوان للتغلب على الجمود والعمى، ويتوجب أن تؤدي بها إلى كارثة كي تصطف في ردها على هذا الهجوم. حتى إنه يحدث أن التدابير الناجعة للغاية في المستقبل القريب، عندما تطيع مفهوماً مجزأً وخطياً، يمكن أن تؤدي في النهاية إلى تأثيرات ضارة تُخل بتوازنها. وهكذا روجت الثورة الخضراء لفكرة إطعام العالم الثالث بزيادة الموارد الغذائية بشكل كبير وجعل من الممكن تجنب المجاعة على نحو ملحوظ؛ ومع ذلك اضطررنا إلى إعادة النظر في الفكرة الأولية، التي بدت عقلانية وتبين أنها مبالغ فيها ومجردة، والتي كانت تتمثل في اختيار ومضاعفة مورثات نبات واحد على مساحة كبيرة للغاية، وتم تحديداً اختيار النبات الأكثر إنتاجية من الناحية الكمية. مع الوقت أدركنا أن غياب التنوع الجيني سمح للعوامل الممرضة التي لم يستطع هذا الجينوم مقاومتها بتدمير محصول بأكمله في الموسم نفسه. لذلك كان لا بد من استعادة مجموعة جينية معينة من أجل تحسين الغلة والتخلي عن فكرة زيادة الحد الأقصى.

ومثال آخر هو الاستعمال المفرط للأسمدة ما يستنفد التربة، والري الذي يتجاهل الأرض يتسبب في تآكل التربة، كما يؤدي تراكم المبيدات إلى تدمير التوازن بين الأنواع، ويزيل العضويات المفيدة والعضويات الممرضة

في الوقت نفسه، في بعض الأحيان يُحِدثُ تكاثراً بلا قيود لأنواع من العوامل الممرضة المحصنة ضد المبيدات؛ وكذلك تنتقل المواد السامة الموجودة في المبيدات إلى الطعام وتؤثر في صحة المستهلكين.

وأخيراً، فإن إزالة الأشجار واقتلاعها على آلاف الهكتارات يسهم في اختلال توازن المياه وتصحر الأرض؛ تزيل الزراعات الأحادية الكبيرة الزراعات المتعددة الصغيرة، ما يؤدي إلى تفاقم النقص في الغذاء، ويدفع إلى الهجرة من الريف، ونشوء مدن الصفيح الفقيرة على أطراف المدن. في كل مكان على هذا الكوكب، كما يقول فرانسوا جارسينسكي، "هذه الزراعة تخلق صحراء بالمعنى المزدوج للكلمة لأنها تسبب تآكل التربة والنزوح الريفي". إذا لم يتم تنظيمها، فإن القطع الجائرللغابات وإزالة الأشجار (تدمير الأشجار خارج الغابة) ستحول المصادر الاستوائية المائية لمجرى نهر النيل إلى وادٍ جاف لمدة ثلاثة أرباع السنة، على سبيل المثال. في ظل منطق الإنتاج المتفشي، يريد الرأسماليون والسياسيون والفنيون المسؤولون إزالة الغابات في الأمازون للزراعة والثروة الحيوانية والصناعة متجاهلين أن إعادة تدوير المياه السحابية بوساطة الغابة يوفر نصف تدفق نهرالأمازون من المياه. وبالمثل، يصر معظم المهندسين الزراعيين على تجاهل الدور المفيد للشجرة المعزولة التي تتحكم في كمية الماء والهواء والعناصر الكيميائية في التربة، ولديها قدرة على تنقية الماء والهواء، ولها دور في المحافظة على خصوبة الأراضي.

تسود العقلانية الخطأ، أي العقلانية التجريدية أحادية البعد، الأرض: ضم الأراضي الزراعية المُبكّر، أثلام الحراثة العميقة والطولانية، قطع الغابات غير المنضبط وإزالة الأشجار، صب الطرق الإسمنتية، تخطيط المدن

الذي يهدف فقط إلى المال والربح عبر بيع أكثر ما يمكن من المساحات على الأرض، الوظائفية[1] الكاذبة للتخطيط التي لا تأخذ في الحسبان الاحتياجات غير القابلة للقياس وغير الممكن تحديدها بالاستطلاعات، كل هذا ضاعف من عدد ضواحي المدن التي تم عزلها، وسرعان ما أصبحت هذه الضواحي الجديدة بؤراً من العزلة، من الملل، الأوساخ، التدهور، الإهمال، ضياع الشخصية، الجنوح. ويؤدي ذلك إلى حدوث كوارث بشرية، لا يتم احتساب ضحاياها ونتائجها، وتفاقم الكوارث الطبيعية، كما حدث مؤخراً في قرية فيزون لا رومين في فرنسا. في كل مكان، ولعقود من الزمن، فإن الحلول العقلانية المزعومة، التي جلبها خبراء مقتنعون بأنهم يعملون من أجل تطور العقل والتقدم ومحاربة ما اعتبروه محض من الخرافات في عادات ومخاوف السكان، هذه الحلول جنت المال وسببت الفقر، ودمرت، في حين يفترض أن تبني. ظهر أكثر روائع هذه العقلانية التكنوبيروقراطية في الاتحاد السوفييتي: على سبيل المثال، تم تحويل مجاري الأنهار لتأمين الري المتواصل حتى في الساعات الأكثر سخونة من النهار والأكبر مساحة من الأرض التي زرع فيها القطن ولا تحوي أشجار ما أدى لتملح التربة بزيادة الملح من الأرض، ونضوب المياه الجوفية، وجفاف بحر

---

(١) الوظائفية: الوعي، إن وُجد، هو وهم وخداع كما هو الحال في الحالات الذهنية العقلية (المعتقدات، الرغبات، الألم) التي تتألف بشكل منفرد من الدور الوظيفي أي أن لها علاقة سببية في الحالات العقلية الأخرى والمُدخلات الحسية والمُخرجات السلوكية.أي ان الوظائفية تهتم فقط بالدور الوظيفي للحالات الذهنية (العقلية) ومن ثم هي قريبة من المدرسة المادية. - المترجمة.

آرال. كان التدهور أكثر خطورة في الاتحاد السوفييتي منه في الغرب لأن سلطة التكنو - بيروقراطيين في هذا البلد كانت خارج أي إشراف أو سلطة، وكان ينظر إلى المواطنين بأنهم الجهلة والأضعف. لسوء الحظ، بعد انهيار الإمبراطورية، دعا قادة " الدول الجديدة " الخبراء الليبراليين من الغرب الذين تجاهلوا عمداً، وعن قصد، المفهوم الأساسي، وهو حاجة اقتصاد السوق التنافسي إلى مؤسسات وقوانين وقواعد. لم يكن القادة الجدد قد طوروا هذه الإستراتيجية المعقدة الأساسية، التي تتضمن كما أوضح موريس أليز - على الرغم من كونه خبيراً اقتصادياً ليبرالياً - تخطيط إزالة التخطيط وبرمجة إلغاء البرمجة، وترددوا ما بين تحريك الاصلاح الاقتصادي في خطوات صغيرة لا تستطيع إحداث تحول جذري، وبين التحرير المعمم الفوري الذي من شانه أن يؤدي إلى تدهور اجتماعي.

إن الذكاء المجزَّأ، المجزّئ، والمُمَكنن، المنفصل، يقسم مجمع العالم إلى شظايا مفككة، ويقسم المشكلات، ويفصل بين ما هومرتبط، ويفصل الأبعاد لما هو متعدد الأبعاد. إنه ذكاء قصير النظر، يعاني من عمى الالوان، أعور؛ وفي أكثر الأحيان أعمى تماماً. إنه يدمر في المهد جميع إمكانيات الفهم والتفكير، ويقضي بذلك على جميع فرص الحكم السديد أوبناء وجهة نظر طويلة الأجل. وبالتالي، كلما أصبحت المشكلات متعددة الأبعاد، زاد العجز عن التفكير في أبعادها المتعددة؛ وكلما تقدمت الأزمة زادت عدم القدرة على التفكير في الأزمة؛ وكلما أصبحت المشكلات عالمية، أصبحت لامُدركة. وعَجزْ الذكاء الأعمى عن التفكير في سياق ترابط المشكلات الكوكبية تجعله غير واعٍ وغير مسؤول. لقد أصبح مميتاً.

أحد جوانب المشكلة الكوكبية هو أن الحلول العلمية أو الفلسفية الفكرية التي عادة ما نلجأ إليها تشكل في حد ذاتها المشكلات الأكثر إلحاحاً وخطورة، التي يتعين حلها: كما قال أوريليو بيكسي ودايساكو ايكادو: "إن النهج الاختزالي الذي يتمثل في الاعتماد على مجموعة واحدة من العوامل لحل جميع المشكلات الناجمة عن الأزمة متعددة الجوانب التي نمر بها حالياً، يمثل مشكلة بحد ذاتها أكثر من كونه حلاً للمشكلات". لا يزال سائداً ذلك الفكر المشوه الذي يدعي الخبرة والذكاء الأعمى، الذي يدعي العقلانية.

ترميم العقلانية ضد العقلنة

يدّعي كلّ من الفكر المشوه والذكاء الأعمى العقلانية، ويعتقدان نفسيهما عقلانيين. في الواقع فإن الأنموذج العقلاني الذي يتبعونه هو آلي وحتمي ويستبعد أي تناقض بل يراه سخفاً. إنه ليس عقلانياً، لكن مُعَقلِن. العقلانية الحقيقية مفتوحة وتتحاور مع الواقع الذي يقاومها. تعمل كالمكوك دون توقف بين المنطق والتجريبي، إنها ثمرة النقاش مع المبرهن حول الأفكار، وليست ملكاً لنظام الأفكار. فالعقل الذي يتجاهل الكائنات، الذاتية، العاطفية، الحياة، هو غير منطقي. يجب مراعاة الأسطورة، العاطفة، الحب، التوبة. العقلانية الحقيقية تعرف حدود المنطق والحتمية والآلية، إنها تعرف أن الروح الإنسانية لا يمكن أن تكون موجودة في كل مكان، وهذا الواقع ينطوي على الغموض. إنه يتفاوض مع ما هو لاعقلاني، غامض، وما لا يمكن عقلنته. يجب عليها محاربة العقلنة التي تتغذى من مصادرها نفسها، التي لا تحوي في نظامها المترابط الذي يدعي الشمولية، إلا على شظايا من هذا الواقع. إنها ليست النقد فحسب، ولكنها هي النقد الذاتي. نحن نتعرف العقلانية الحقيقية من خلال قدرتها على تعرف أوجه القصور فيها.

العقلانية ليست خاصية (في كلا المعنيين للمصطلح : ١ - القدرة التي تميزت بها عقول معينة - العلماء والفنيون - التي لا يملكها الآخرون، ٢ - الخير الذي يعود للتقنيين والعلماء وهم أصحابه). إن إدراك هذا يدفع إلى رفض الوهم الغربي تحديداً، وهو الاعتقاد بأننا ملاّك العقلانية، وبعادة الحكم على أي ثقافة وفقاً لأدائها التكنولوجي. يوجد في أي مجتمع، حتى القديم، الأساطير، والسحر، والدين، وتوجد أيضاً العقلانية في صنع الأدوات، وتكتيكات الصيد، ومعرفة النباتات والحيوانات والأرض. في مجتمعاتنا الحديثة، هناك أيضاً حضور الأساطير والسحر والدين، بما في ذلك الأسطورة الربانية المموهة تحت مصطلح العقل، بما في ذلك دين التقدم. العقلانية الحقة من جانبها تنفصل عن العقل المتعالي والفكرة المعقلنة للتقدم المضمون. تدفع العقلانية إلى النظر إلى الهوية الأرضية للإنسان بكل تعقيدها (ترابطها).

التفكير في السياق والترابط (التعقيد)

لا يمكن بناء الهوية الأرضية والسياسة الإنسانية من دون تفكير قادر على ربط المفاهيم المفككة والمعرفة المجزأة. المعارف الجديدة التي تجعلنا نكتشف كوكب الأرض - الوطن، الأرض – المنظومة، الأرض – غايا[1]، المحيط الحيوي، مكانة الأرض في الكون، لا معنى لها طالما أنها منفصلة عن بعضها بعضاً. دعونا نكرر: الأرض ليست حاصل جمع كوكب مادي مع محيط حيوي مع بشر. الأرض هي كينونة معقدة فيزيائية وبيولوجية

(١) -Gaia- غايا وفقاً للأساطير اليونانية ابنة خاؤس الإله الأول والأقدم (الفراغ- الفوضى-البدئية) الذي نشأ منه كل شيء. وهي تشخيص للأم- الأرض، التي ارتفعت منها السماء وخلقت منها الجبال والبحار. - المترجمة

وأنثروبولوجية، حيث الحياة هي انبثاق تاريخ الأرض، وحيث الإنسان هو انبثاق تاريخ الحياة الأرضية. لا يمكن صياغة علاقة الإنسان بالطبيعة بطريقة مختزلة أو مفككة. الإنسانية هي كيان كوكبي ومحيط حيوي. الكائن البشري، سواء كان طبيعياً أو خارقاً يجب عليه أن يُبعث من الطبيعة الحية والمادية، لكنه برز عنها وتميّز بالثقافة والفكر والوجدان.

تشظي الأفكار التجزيئية كل ما هو كلي، وتجهل بطبيعتها التعقيد الأنتروبولوجي والسياق الكوكبي. إنها، لا يكفي التلويح بعلم الكلية: يجب أن نربط عناصر الكلية في صياغة تنظيمية معقدة، يجب أن نضع سياق هذا العالم نفسه في الحسبان. إصلاح الفكر الضروري هو الذي سيولّد فكراً للسياق والترابط (المعقد).

فكر السياق

يجب أن نفكر وفق المنظور الكوكبي في السياسة والاقتصاد والديموغرافيا والبيئة وحماية الكنوز البيولوجية والإيكولوجية والثقافية الإقليمية - على سبيل المثال، في الأمازون، كُلٌّ من الثقافات الهندية والغابة أي التنوع الحيواني والنباتي، وكذلك التنوع الثقافي - ثمار تجارب آلاف السنوات التي لا يمكن فصلها عن التنوع البيئي، إلخ. لكن لا يكفي إدراج جميع الأشياء والأحداث في "إطار" أو"أفق" كوكبي. لا بد من البحث دائماً عن علاقة عدم الفصل والتفاعل بين كل ظاهرة وسياقها وبين أي سياق مع سياق الكوكبي.

التفكير الترابطي:

هناك حاجة إلى فكر يربط ما هو مُنفَصِل ومجزأ، يحترم المُغَاير ويعتَرف بتمييز الارتباطات المتبادلة؛

- التفكير الجذري (الذي يعالج جذر المشكلات)؛

- التفكير متعدد الأبعاد؛

- التفكير المُنظم أو المنهجي الذي يصوغ العلاقة بين

الكل ⟷الأجزاء

بالصيغة التي بدأت تتطور في العلوم البيئية وعلوم الأرض؛

- الفكر البيئي الذي، بدلاً من عزل الموضوع المدروس، يعده من خلال علاقته التنظيمية الحيوية الذاتية مع بيئته - الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والطبيعية؛

- الفكر الذي يتصور بيئة الفعل[1] وديالكتيك الفعل وجدير بإستراتيجية تسمح بالتعديل، حتى لإلغاء الإجراء المُتَخذ، للفكرة التي تدرك عدم اكتمالها وتتفاوض مع اللا يقين، لا سيما في الفعل لأنه ما من فعل إلا في اللا يقين. هناك حاجة إلى مواجهة المشكلات التي تشمل عدم اليقين وعدم القدرة على التنبؤ، والترابط والتفاعلات مع امتداد كوكبي سريع نسبياً (Francesco di Castri)، مع عدم الاستمرارية، وعدم الخطية، والاختلالات، والسلوكيات "الفوضوية"، التشعبات. من الضروري فهم ليس فقط تعقيد ردود الفعل المتداخلة، لكن

(١) راجع الحجج للحصول على المنهج، ملتقى سيرزي، باريس، دار نشر سوي ١٩٩٠.

أيضاً طبيعة الصورة العاكسة ثلاثية الأبعاد، التي تجعل ليس فقط الجزء - الفرد، الأمة ، في الكل - الكوكب، لكن أيضاً أن الكل وجد داخل اللعبة، وهو ما ذكرناه سابقاً (انظر الفصل ١).

يصبح الفرد مجرداً عندما يكون معزولاً عن سياقه، معزولاً عن مجمله الذي هو جزء منه. يصبح العالَمُ مُجرداً عندما لا يكون سوى كل منسلخاً عن أجزائه. فِكر التعقيد الكوكبي يعيدنا باستمرار من الجزء إلى الكل ومن الكل إلى الجزء. وجملة باسكال تنطبق عليه حرفيا: " كل الأشياء تُعتبر مُسَبِبة ومُسَبَبة، مباشرة وغير مباشرة (سبب ولاسبب)، مُسَاعَدة ومُسَاعِدة. والكل يتجاذب أطراف الحديث برابط طبيعي وغير مبالٍ، وهو ما يربط الأبعد والأكثر اختلافاً. أبذلُ المستحيل لمعرفة الأجزاء دون الكل، وكذلك معرفة الكل على وجه الخصوص دون الكل".

لا تقتصر الصيغة المعقدة للأنثروبوليتيك على "التفكير العالمي، والفعل المحلي"، ويتم التعبير عنها عن طريق الاقتران : التفكير المحلي agir-local ، والتفكيرالعالمي global-agir. فكر الكواكب يتوقف عن معارضة العالمي والمحسوس والعام والمفرد: أصبح الكوني المفرد – هو العالم الكوني والملموس – إنه الكون الأرضي.

يبدو أن فقدان الشمولية المجردة للكثيرين هوفقدان العالمي، ويبدو فقدان العقلانية الزائفة للعقلاء كصعود اللا منطقي. هناك بالتأكيد أزمة عالمية تقدمية مجردة، ولكن في المسيرة نفسها التي يصبح فيها كل شيء عالمياً، وحيث يوجد كل شيء في الكون المفرد الذي هو عالمنا، هناك أخيراً ظهور عالمي ملموس.

إصلاح الفكر

لم يعد هناك مكان معترف به للفكر[1] في الكون التخصصي؟ يوجد فلاسفة، علماء يفكرون وهناك من غير العلماء وغير الفلاسفة الذين يفكرون، لكن يبدو أن الفكر هو نشاط ثانوي للعلوم، والفلسفة، في حين أن العلوم والفلسفات محكوم عليها بالتفكير في الإنسان، الحياة، العالم، الواقع، كان يتوجب أن يكون لهذا الفكر المفعول الرجعي على الضمائر، وأن يوّجه ما هو معيشي. بطبيعة الحال، فإن إصلاح الفكر يتطلب إصلاح التعليم (الإبتدائي والثانوي والجامعي) الذي بدوره يتطلب إصلاح الفكر بحد ذاته. بطبيعة الحال، إن إضفاء دمقرطة الحق في التفكير يتطلب ثورة أنموذجية من شانها أن تسمح للتفكير المعقد بإعادة تنظيم المعرفة وربط المعرفة المنقسمة الآن في التخصصات. مرة أخرى، نلاحظ عدم انفصال المشكلات، وطبيعتها الدائرية أوالحلقية، كل حسب الآخر، ما يجعل إصلاح الفكر أمر غاية في الصعوبة، وفي الوقت نفسه، يصبح الأمر أكثر ضرورة لأن الفكر المعقد وحده فقط يمكن أن يفكر ويتعامل مع هذه الدائرة المترابطة.

إصلاح الفكر مشكلة أنثروبولوجية وتاريخية رئيسية.

هذا يعني ثورة عقلية أكثر أهمية من ثورة كوبرنيكوس.

لم يحدث في تاريخ البشرية أن تكون مسؤوليات التفكير ساحقة للغاية.

المأساة تكمن أيضاً في قلب التفكير.

---

(١) حول الشخصيات الفكرية متعددة الألحان، انظر إدغار موران، المنهج معرفة المعرفة، مرجع سابق. ص. ١٨٢-١٩٠.

-٨-

إنجيل الهلاك

ضياع الخلاص والمغامرة المجهولة

إذا كان هناك ملاحون من الفضاء، فإن رحلتهم في مجموعة العذراء ستتجاهل درب التبانة الهامشي للغاية وتنتقل بعيداً عن الشمس الصغيرة الهامشية، والتي تحمل في مدارها كوكب الأرض الصغير. مثلما حدث مع روبنسون في جزيرته، أرسلنا اشارات إلى النجوم دون جدوى حتى الآن، وربما دون جدوى إلى الأبد. نحن ضائعون في الكون.

هذا الكون الرائع نفسه محكوم عليه بالهلاك. لقد ولِد، ومن ثم فهو فان. إنه يتشتت بسرعة غير مسبوقة، مع تصادم النجوم، تحطمها، انفجارها. سوف تموت شمسنا، وسوف تنضب، وهي التي خلفت اثنتين أوثلاثاً من الشموس الأخرى المتوفاة. يتم إلقاء جميع الأحياء في الحياة دون أن يطلبوا ذلك، ويأتيهم الموت رغم أنفهم. إنهم يعيشون بين العدم والعدم، العدم المُسبق، العدم اللاحق، يحيط بهم العدم. ليس الأفراد فقط هم المفقودين، ولكن البشرية، عاجلاً أم آجلاً، وبعدها كل ما يتبقى من الحياة ومن ثم الأرض. العالم نفسه يتجه نحو موته، سواء من خلال التشتت الواسع أو انكماشه وانفجاره

وعودته إلى الأصل... من موت هذا العالم، قد يولد عالم آخر، لكن عالمنا سيكون عالماً ميتاً. عالمنا محكوم عليه بالهلاك. نحن هالكون.

عالمنا هذا ضعيف للغاية في أساسه، وهو غير متناسق تقريباً: إنه وليد الصدفة، ربما من تفكك اللانهائي، ما لم نعد أنه يأتي من العدم. في أي حال، لا تشكل المادة المعروفة فيه سوى جزء صغير من الواقع المادي للكون، والمنظومة المادية ليست سوى جزء صغير من هذا الجزء الصغير. إنها التنظيمات بين الكيانات المادية، والذرات، والجزيئات، والنجوم، والكائنات الحية، التي تُعطي الثباتية والحقيقة لعقولنا؛ وتأخذ الظواهر، إنها الانبثاقات التي تبزغ من هذه التنظيمات بالنسبة لنا هي قيمة الحياة والوعي والجمال والحب: لكنها سريعة التلف وعابرة، كما الزهرة التي تُزهِر، وكما تألق وجه، وزمن العشق...

لا تعيش الحياة والوعي والحب والحقيقة والجمال طويلاً بل إنها سريعة الزوال. تفترض هذه الانبعاثات الرائعة وجود بنيةٍ تنظيميةٍ للمنظومات، وقدر هائل من الحظ كي تكون موجودة، وهذا الوجود في خطر دائم. هي في نظرنا جوهرية، لكنها انبعاثات بلا أساس. ليس هناك أساس مطلق، كل شيء مستمر في المثال الأخير أو الأول من المجهول بلا شكل. المعطيات (الظروف) تخلق الكل، ويكون الموت المحتوم لكل شيء قائماً منذ ولادته. وها هو ذا : الانبثاقات النهائية وآخر ما أنتجه الوجود، الوعي والحب وكل ذلك يجب أن يُعتَرف به كمعايير أولية وقوانين أساسية. إلا أنها لن تكتسب الكمال أو اللا تبدلية. الحب والوعي سيموتان. لا شيء سيهرب من الموت.

لا يوجد خلاص بالمعنى المذكور في أديان الخلاص التي تَعِدُ بالخلود الشخصي ـ كما لا يوجد خلاص أرضي كما وعد "الدين" الشيوعي، والمقصود به حل اجتماعي حيث سيتم إنقاذ حياة الفرد والكل من التعاسة، المخاطر، المأساة. يجب التنازل والتراجع بشكل نهائي وجذري عن فكرة هذا الخلاص.

كذلك يجب أن نتخلى عن الوعود التي لا نهاية لها. الإنسانية الغربية تعهدت لنا بغزو الطبيعة والانتصار عليها إلى ما لا نهاية. وعدنا قانون النمو والتقدم بأنه سيستمر إلى ما لا نهاية. كانت هناك وعود بنمو اقتصادي لن يتوقف، وأنه لا حدود للذكاء البشري، ولا حدود للعقل. وأصبح الإنسان غايته القصوى. يمكننا اليوم أن نرفض كل هذه اللانهائية المغلوطة وأن ندرك محدوديتنا العُضّال كما يقول كادامر يجب أن "نتوقف عن التفكير في المحدودية باعتبارها القيد الذي يحكم بالفشل على لا محدودية كينونتنا، [لكن] التعامل مع المحدودية بشكل إيجابي باعتبارها القانون الأساس الحقيقي للكينونة". تبدو فكرة اللانهائية الحقيقية بعيدة عن إدراك العقل، ينقصها الوضوح، أقوى من قدرات البشر. ربما تَعبرُ هذه الفكرة بنا من جانب إلى آخر، إنها تماماً غير مرئية وتدع نفسها تتمثل فقط عبر الشعر والموسيقا.

في الوقت عينه الذي نعيش فيه وعي الحتمية، يمكننا الآن اكتساب وعي بوعينا ومعرفتنا بجهلنا: يمكننا الآن أن نعرف أننا في مغامرة مجهولة. لقد اعتقدنا على أساس من العلم الزائف أننا نعرف معنى تاريخ البشرية. ولكننا نسير، منذ فجر الإنسانية، منذ فجر العصور التاريخية بالفعل في مغامرة مجهولة، والآن أكثر من أي وقت مضى. لقد خرج المسار الذي يتبعه

عصر الكواكب من مدار الزمن المتكرر للحضارات التقليدية وتوجهَ لدخول مستقبل غير مؤكد بشكل متزايد.

نحن محكومون بعدم اليقين الذي اعتقدت أديان الخلاص بما في ذلك الأرضية منها، أنها قضت عليه: "لم يرد البلاشفة أو لعلهم لم يستطيعوا إدراك أن الإنسان كائن ضعيف وغير مؤكد، وينجز عملاً غير مؤكد في عالم غير مؤكد"(١).

يجب إدراك أن الوجود في العالم المادي (والعالم المادي نفسه) له ثمن غالٍ هو الانحطاط، والضياع، والدمار الذي لا يصدق، هذا الوجود الحي له ثمن باهظ من المعاناة، وأن كل فرصة من السعادة البشرية والفرح سيتم دفع ثمنها عن طريق التدهور والضياع والخراب والآلام.

نحن رحالة بلا مأوى، ولا نسير على طريق محدد، لم نعد نسترشد بقانون التقدم، فقدنا المسيح وفقدنا الخلاص الذي يمنحه لنا، نسير في الليل والضباب. إنه ليس تيهاً عشوائياً، على فرض وجود مفهوم العشوائية والتيه. لأننا يمكن أن نمتلك أيضاً أفكاراً مرشدة وقيماً مختارة واستراتيجية يتم إثراؤها عن طريق التغيير. وبالتالي، ليس وجودنا مجرد المشي إلى النهاية المحتومة. محكومون بتطلعاتنا يمكننا التحلي بالإرادة والشجاعة. يتغذى التيه على الأمل. لكنه أمل محروم من المكافأة النهائية؛ إنه إبحار في محيط اليأس.

التيه المحتوم هنا هو مصير أرضي. لكن له أبعاد البحث لما هو "الما وراء". وليس "الماوراء" خارج العالم، إنها ماوراء الهنا والآن (المكان والزمان) ما وراء " البؤس والمصائب" ، "ما وراء المجهول " تحديدا للمغامرة المجهولة.

---

(١) د.تشوسيتش، زمن الآلام ١، عمر الإنسان، باريس، ١٩٩٠ ص ١٨٦

في هذا التجوال يتمثل الحدث الذي نعيشه. يكشف التشرد عن لحظات حقيقية من الشاعرية ونشوة الوجود، وهو أيضاً يقلل نسبياً من أهمية فكرة الهدف والحل، لأن مجرد وصول الإنسان إلى أي هدف يفتح له مسار هدف جديد ومجرد حل أي مشكلة يضعه في وجه مشكلة جديدة،. يستطيع هذا التجوال أن يعيش تجربة الزمن الكاملة ليس فقط كسلسلة متصلة تربط بين الماضي / الحاضر / المستقبل، لكن أن يعيش التجديد (الماضي)، الفعل (الحاضر)، الاحتمال (ضغط نحوالمستقبل).

نحن في مغامرة مجهولة. إن عدم الرضا الذي يدفع إلى التجوال لا يمكن إرواء عطشه أبداً. يجب تحمل الشكوك والقلق، وكذلك تحمل (Dasein)، أن يكون الإنسان هناك دون أن يعرف لماذا. سيكون هناك المزيد والمزيد من مصادر القلق، وستكون هناك حاجة متزايدة للمشاركة والحماس والأخوّة التي تستطيع هي فقط، ليس القضاء على القلق وإنما قهره. الحب هو الترياق، الاستجابة - وليس الإجابة - للقلق. إنه التجربة المحملة بالإيجابية للإنسان، حيث تبلغ مفاهيم الشراكة ونشوة التعبير عن الذات وعن الآخر ذروتها، إذا لم يفسدها حب التملك (تملك الآخر). ألا يمكن صهر هذا الكم الهائل من الحب المتحجر في الأديان والمجردات، تكريس كل هذا الحب للإنسان الفاني بدلاً من الذات السرمدية الخالدة؟

الأخبارالسيئة الجيدة

إنما، حتى ذلك الحين سيبقى الهلاك مصيرنا. هذه هي الأخبار السيئة: نحن ضائعون، ضائعون بلا رجعة. إذا كان هناك إنجيل، بمعنى آخر البشارة، فيجب أن يبدأ من السيئة: نحن ضائعون لكن لدينا سقف ومنزل ووطن: هذا

الكوكب الصغير حيث خلقت الحياة حديقتها، حيث أنشأ البشر مأوى لهم، حيث يتعين على الإنسانية الآن أن تعترف به كمنزلها المشترك.

إنها ليست الأرض الموعودة، إنها ليست جنة أرضية. إنه وطننا، مكان قدرنا المشترك من الحياة والموت الأرضي. علينا أن نزرع حديقتنا الأرضية، هذا يعني بناء حضارة الأرض. يخبرنا إنجيل البشر الضائعين والأرض – الوطن: لنكن إخوة، ليس لأننا سوف ننال الخلاص، لكن لأننا هالكون[1]، فلنكن إخوة، لنعش بأصالة قدرنا المشترك من الحياة والموت. لنكن إخوة، لأننا متحدون مع بعضنا بعضاً في مغامرة مجهولة.

كما قال ألبرت كوهين: " هذه المغامرة الرهيبة للبشر الذين يأتون إلى هذه الحياة، يضحكون، يتحركون، ثم فجأة يتوقفون عن الحركة، إنه أمر لا يصدق ألا تحمل هذه الكارثة التي تنتظر البشر على التعاطف مع بعضهم بعضاً. [2]"

هذا ليس بالخبر الجديد ولكن الخبر السيئ هو: كان هناك وعي بالهلاك منذ ظهور الروح الإنسانية، لكن تم طرد هذا الوعي عن طريق الإيمان بالنجاة، ثم الأمل بالخلاص. ومع أن كل إنسان يحمل في داخله سراً فكرة الهلاك، كل إنسان يحملها بشكل أقل أوأكثر عمقاً. هذه ليست بالمعلومة الجديدة لكن الخبر الجيد هو: إنجيل البشر الهالكين يجدد رسالة الرحمة والإشادة بمعاناة الأمير ساكياموني (بوذا) وعظة جبل يسوع الناصري،

---

(١) إن فكرة الخلاص التي ولدت من رفض الهلاك حملت بداخلها الوعي المكبوت بالهلاك. كل دين يطرح فكرة الحياة بعد الموت يحمل في داخله وبطريقة مكبوتة، وعي الموت المدمر.

(٢) أوه أنتم الإخوة البشر، باريس، غاليمار، ١٩٧٢.

لكن مغزى الخبر السيء، لا يوجد خلاص عن طريق إنقاذ / قيامة الذات، ولا الخلاص عن طريق الإبتلاع الذاتي[1].

نداء الأخوة

لا يقتصر نداء الأخوة بعرق أو طبقة أو نخبة أو أمة. إنه يأتي من أولئك الذين، أينما كانوا، يسمعونه من داخلهم، وهو موجه للفرد وللكل. هناك كائنات من "أصحاب النية الطيبة" في كل مكان، من كل الطبقات، من كل الأمم، أولئك الذين يشعرون أن رسالة الأخوة هي رسالتهم. ربما يكونون أكثر عدداً بين الأشخاص القلقين، والفضوليين، والمنفتحين، والرقيقين، والهجناء، والأبناء غير الشرعيين وغيرهم.

يجب أن تتجاوز الدعوة إلى الأخوة الحواجز الكثيفة والكتيمة من اللامبالاة. يجب أن تتغلب على العداوة. وجود عدو يغذي الهمجية لدينا ولديه على حد سواء. يخلق عمى البصيرة احياناً العداوة من جانب واحد، لكنها تصبح عداوة متبادلة عندما يواجه البشر عداوة تجعلهم عدوانيين في المقابل. من المسلم به أن التمحور حول الذات وحول العرقية التي تثير العداوة بشكل مستمر ومستمر، تشكل كيانات غير قابلة للتغيير من الفردية والذاتية[2]، لكن على الرغم من أن هذه البنى تحمل مبدأ تقديس الأنا، لكنها أيضاً تتضمن إدراج مبدأ النحن، والمشكلة الرئيسة لتحقيق الإنسانية هي في توسيع نحن، في

---

(١) هي عملية تكسير خلايا الجسم القديمة وغير السليمة واستخدام بروتيناتها لتصنيع خلايا جديدة . يستخدمها الجسم للاستشفاء من الخلايا غير السليمة **(السرطانية)** أو لتجديد الخلايا القديمة **(تأخير التقدم في السن)** وهنا يستخدم الكاتب هذا المصطلح من قبيل الاستعارة - المترجمة

(٢) إدغار موران، الطريقة، حياة الحياة، مرجع سابق. انف الذكر، ص. ١٦٤-١٧٣.

احتضان العلاقة الأمومية - الوطنية الأرضية، كل الذات الثانية[1] (ego-alter) ولتجد فيه الأنا الآخر (alter-ego) وهذا يعني الإنسان - الأخ.

يجب علينا التغلب على رغبة رفض كل ما لا يتوافق و معاييرنا ومحرماتنا، وأن نتغلب على العدوانية ضد الغريب، الذي نعكس عليه مخاوفنا من المجهول والغريب؛ إنها تتطلب مجهوداً متبادلاً من هذا الغريب، لكن علينا أن نبدأ نحن أولاً...

هناك العدو الذي قتل واغَتصب وعذب. نعجز عن بتره من الجنس البشري، ولا يمكننا إقناع أنفسنا بإمكانية التوبة. يعلمنا المفهوم المعقد للتعددية الشخصية أن هناك أشخاصاً عدة في الفرد الواحد، وأنه لا يمكننا اختزال هذا الشخص في شخصه الإجرامي. قال هيجل "إن تعريف إنسان بأنه مجرم هو قمع كل صفاته الإنسانية الأخرى التي ليست مجرمة".

لا يمكن إدانة أي شخص إلى الأبد. إن الشفقة والندم والتسامح تشير إلى إمكانية إيقاف الحلقة المفرغة من الثأر والعقاب والانتقام - ضد العدو والعدو ضدنا. يجب أن نضع حداً للآلة الجهنمية الدائمة التي تنتج باستمرار القسوة بالقسوة في كل مكان. هنا مرة أخرى، دعونا لا نأمل في حل هذه المشكلات بطريقة فردوسية الفرد، ولكن دعونا نعرف كيف نحارب الرعب، لانه كما رأينا فإن مقاومة قسوة العالم هي واحدة من الغايات الكوكبية العميقة[2]

---

(١) Ego alter- الشخصية البديلة أو الذات الثانية .صاغ سيسرو هذا المصطلح كجزء من هيكله الفلسفي في روما في القرن الأول . - المترجمة

(٢) نحن نعلم أيضاً أن الصعوبة الكبيرة تتمثل في التمكن من العيش من دون كبش الفداء، دون مسكنات الألم. إن كبش الفداء راسخ بعمق ليس فقط في الجانب الحيواني منا، لكن أيضاً في إنسانيتنا، حيث يغذي العذاب والقلق والهواجس الانسانية على نحو خاص.

إعمار كوكب الأرض. الحياة بهدف الحياة

نحن سكان الأرض.

نَقلْنا عن هولدرلين وأكملنا كلمته بالقول: يعيش الإنسان على الأرض بطريقة شعرية ونثرية. بشكل نثري (من خلال العمل، وباستهداف الأغراض العملية، والسعي إلى البقاء في قيد الحياة) وبشكل شاعري (من خلال الغناء والحلم والتمتع والمحبة والإعجاب)، نحن نسكن الأرض. الحياة البشرية منسوجة بالنثر والشعر. الشعر ليس مجرد مجموعة متنوعة من الأدب، بل هو أيضاً طريقة للحياة في المشاركة والحب والحماس والشراكة والتمجيد والطقوس والاحتفال والسكر والرقص والغناء، التي تتجاوز فعلياً الحياة النثرية المكونة من مهام عملية ونفعية وفنية. علاوة على ذلك كل إنسان يتحدث لغتين انطلاقاً من لغته. تشير الأولى إلى الموضوعية ، وتستند على منطق الطرف الآخر المُستَبعد، تتحدث الثانية إلى حد ما عبر دلالة، أي هالة المعاني السياقية التي تحيط بكل كلمة أو كلام، وتلعب مع التشبيه والاستعارة، وتحاول ترجمة العواطف والمشاعر، ويسمح للنفس بالتعبير عن نفسها. وبالمثل لدينا حالتان منفصلتان في الغالب، الأولى الحالة النثرية، التي تتوافق مع النشاطات العقلانية / التجريبية، والثانية الحالة الشعرية، وهي التي لا نصل إليها فقط من خلال الشعر، لكن أيضاً عبر الموسيقا والرقص والاحتفال والإبتهاج والحب الذي يُتَوَج بالنشوة. في الحالة الشعرية تصبح الحالة الثانية أساسية.

قال فرناندو بيسوا إنه يوجد في كل واحد منا كائنان، الأول الحقيقي، وهو كائن أفكاره، وأحلامه التي ولدت في مرحلة الطفولة والتي تستمر طوال الحياة، والثاني الزائف، هو كائن مظاهره وخطابه وأفعاله. سنقول

خلاف ذلك: يتعايش فينا كائنان، كائن الحالة النثرية وكائن الحالة الشعرية؛ هذان الكائنان يشكّلان كياننا، وهما مُستَقطبان، ضروريان لبعضهما البعض: إذا لم يكن هناك نثر، فلن يكون هناك شعر: لا تظهر الحالة الشعرية على هذا النحو إلا مقارنة بالحالة النثرية.

تضعنا الحالة النثرية في وضع النفعية والوظيفية والغرض منها هو النفعية والوظيفية. يمكن ربط الحالة الشعرية بأهداف عاطفية أو أخوية، لكنها أيضاً غاية في حد ذاتها.

يمكن أن تتعارض الحالتان أو تتقاربان أو تختلطان. في المجتمعات القديمة كانت هناك تداخلات وثيقة بين الاثنين: العمل اليومي، وطحن الطحين اليدوي على سبيل المثال كان مصحوباً بأغان وإيقاعات موزونة؛ كانت هذه المجتمعات تقوم باستعدادات الصيد أوالحرب بأداء طقوس مُحاكية تضم الأغاني والرقصات. كانت الحضارات القديمة تعيش حالة تناوب :الأعياد (أوقات يتم فيها رفع المحرمات، بالإنفاق، بالثمالة، بالاستهلاك) / الحياة اليومية (الرازحة تحت الضغوط، المحكوم عليها بالاكتئاب والشح).

فصلت الحضارة الغربية الحديثة النثر عن الشعر. لقد جعلت الأعياد نادرة وأفرغتها جزئياً من محتواها لصالح الترفيه، وهو مفهوم فضفاض، إذ يمارسه كل شخص كما يرغب. لقد غزا النثر الحياة العملية والحياة الاقتصادية (منطق الربح والإنتاجية الربحية، وما إلى ذلك)[1] تم كبت

(١) ١ - مع ذلك، إذا لم يحدث هذا، فهناك بالطبع، الرغبة في الثروة والربح، في ممارسة قيادة الشركات، في مخاطر لعبة البورصة، في مغامرات الإستراتيجية، مصادر التقلبات الشعرية التي يستفيد منها الرأسماليون.

الشعر في الحياة الخاصة والترفيهية والإجازات، وقد أخذ شكله الخاص مع الحب والألعاب والرياضة والأفلام وبالطبع الأدب والشعر[1].

اليوم، في نهاية هذه الألفية تقدمت عملية الإنتاج النثري الفائق، مع غزو منطق الآلة الاصطناعية لجميع قطاعات الحياة، تَضخّمَ العالم التكنوبيروقراطي، وطغى الوقت المثقل والذي يتم حسابه دون توقف على حساب الوقت الطبيعي للجميع. إن الخيانة وانهيار الأمل الشعري بانتصار الإخاء العالمي قد نشر غطاءً نثرياً كبيراً في جميع أنحاء العالم. وبينما في كل مكان على انقاض الوعد الشعري بتغيير الحياة، تسعى الأصول العرقية والدينية إلى تجديد قصائد المشاركة الشعرية المجتمعية، والنثر الديمقراطي- الاقتصادي والتكنوقراطي، التي تحول السياسة إلى إدارة، تنتصر في العالم الغربي، لفترة من الزمن بلا شك، لكن حتى الآن يجب ألا تتحمل بعد الآن حلم القضاء على النثر من العالم من خلال تحقيق السعادة على الأرض، يجب ألا تكون السياسة محبوسة. بمعنى آخر، لا تهدف الأنثروبوليتيك فقط إلى "المجتمع الصناعي المتقدم" أو"مجتمع ما بعد الصناعة" أو"التقدم التقني". تتطلب سياسة التنمية، بالمعنى الذي فهمناه به، الذي يتضمن فيه فكرة ما فوق التطور أو الميتا تطور **(انظر الفصل ٤)**، وعياً كاملاً بالاحتياجات الشعرية للبشر.

---

(١) كانت هناك ثورتان تاريخيتان من الشعر الأدبي ضد الحياة الدينية، البرجوازية. الأولى، في بداية القرن التاسع عشر، كانت الرومانسية، لاسيما في مصدرها الألماني. والثانية هوالسريالية، والتي تعني مثل الرومانسية، ولكن بشكل أكثر صراحة، رفض الشعر للسماح لنفسه بالتوقف في تعبير أدبي خالص وبسيط، وقبل كل شيء إرادتها لترويض الحياة. أرادت السريالية أن تستمر في أعمال التآكل - الحياة اليومية التي بدأها آرثر رامبو للكشف عن الرائع في الحياة اليومية الأكثر قسوة أوالمبتذلة على ما يبدو.

في ظل هذه الظروف، يتطلب غزو النثر المفرط هجوماً قوياً من الشعر، الذي سيسير جنباً إلى جنب مع ولادة أخوية وتطور إنجيل الهلاك. في الواقع، يمكن أن يضعنا الوعي بالأرض - الوطن في حالة شعرية بحد ذاتها. العلاقة مع الأرض هي علاقة جمالية، حتى أكثر عاطفية ونشوة في بعض الأحيان. كيف لا نتردد في النشوة عندما يندلع قمر ضخم على حين غرة في أفق الليلة الأولى؟ كيف نكاد نغيب عن تأمل تحليق السنونو؟ هل هي فقط آلات طيران رائعة، هل يصرخون فقط لتوصيل بعض المعلومات؟ ألا يملكون بعض الغموض، والسكر المجنون على الدوران وهي تحط على الأرض، وتعاود صعودها إلى السماء، تحف بعضها ببعض دون تلامس إطلاقاً؟ من غير المجدي، أن نكرر، أن نحلم بحالة شعرية دائمة تتدهور من تلقاء نفسها أو أن تصبح ذعراً إذا استمرت، و سيكون ذلك الإحياء أوهام الخلاص الدنيوي بطريقة أخرى. نحن حريصون على تكاملية وتناوب الشعر / النثر.

نحتاج بشدة إلى نثر، لأن الأنشطة العملية الشعرية تُحيينا. إنها في كثير من الأحيان، في مملكة الحيوانات، فإن أنشطة البقاء في قيد الحياة تكاد تكون الغالبة (البحث عن الطعام، والفريسة، والدفاع عن النفس ضد الأخطار، والمعتدين) ذلك أن التمتع على الأرض اليوم، يفرض على البشر قضاء معظم حياتهم في الصمود (محاولة النجاة) . يجب أن نجهد حتى تصبح الحالة الثانية أولاً. عليك أن تحاول العيش، ليس فقط للبقاء على قيد الحياة، ولكن أيضاً للعيش. أن تعيش شاعرياً و أن تعيش ليعيش.

إنجيل الهلاك

إنجيل الأخوة هو الأخلاقيات كما هو التعقيد للفكر: إنه لا يدعو إلى التجزيء، أو الانفصال، لكن إلى الارتباط، هل هوإعادة توطين جوهري، بالمعنى الحرفي لـلديني؟

كيف لا يكون محرجاً وغير مؤكد قبل هذه الكلمة. إنه مرتبط بالعديد من المحتويات الإلهية التي تبدو جوهرية لها، حتى لو أخذنا الكلمة بمعناها الأدنى: إعادة الربط.

يتم تعريف الدين عملياً، بالمعنى العادي للكلمة، بعبارات مضادة لتلك الخاصة بإنجيل الهلاك: الإيمان بالإلهة أو الإله المتعالي، مع العبادات وطقوس التبجيل. دين الخلاص يَعِدُ أيضاً بحياة مجيدة بعد الموت.

في الواقع، الدين إلى إله (x) هو دين من الطراز الأول. شهدت أوروبا الحديثة ظهور أديان بدون آلهة تجاهل بعضها بعضاً على هذا النحو، يمكن أن يطلق عليها أديان من الطراز الثاني. وهكذا، أفرزت الدولة القومية دينها الخاص بها. إذاً، فإن الفضاء العلماني والعقلاني هوالذي طور الأديان الأرضية. أراد روبسبير دين العقل، أوغست كانت اعتقد أنه أسس دين الإنسانية. خلق ماركس دين الخلاص الدنيوي الذي أعلن نفسه كعلم. يمكن للمرء حتى التفكير في أن روح الجمهورية في فرنسا في الجمهورية الثالثة كان فيها شيء من الدين، بمعنى أنها كانت تعيد ربط المؤمنين بها، من خلال الإيمان الجمهوري والأخلاق المدنية. لم ير مالرو عند إعلانه أن القرن الحادي والعشرين سيكون دينياً، أن القرن العشرين كان متديناً بالتعصب، لكنه غافل الطبيعة الدينية لأيديولوجياته. وهكذا، لم يعد من الممكن أن

تقتصر كلمة الدين على الأديان التي لها آلهة. إنما، بينما نرفض تصور دين من الطراز الثاني (الإلهية والخلاص)، فلمإذا نستحضر كلمة الدين؟ لأنه، من أجل الاستمرار في تجانس الأرض وحضارتها، نحتاج إلى قوة *مُقّربة وتَقرّبية*[1]. يتطلب الأمر دافعاً، متديناً بهذا المعنى، أن يعمل في أذهاننا على الاعتماد بين البشر، وهوما يحفز الإرادة لربط المشكلات ببعضها بعضاً. هل يمكن أن نتصور ديناً أرضياً من الطراز الثالث سيكون ديناً للهلاك؟ إذا كان إنجيل البشر الهالكين وأرض - الوطن قد وهبا الحياة لدين ما، فسيكون ذلك بمنزلة قطيعة مع أديان الخلاص السماوي كما هي الحال مع أديان الخلاص الأرضي، مع الأديان، مع الآلهة كما مع أيديولوجيات تجاهلت طبيعتها الدينية. إلا أنه سيكون ديناً يمكنه تفهم الديانات الأخرى ومساعدتها في العثور على مصدرها. إن إنجيل اللا خلاص يمكن أن يتعاون مع إنجيل الخلاص بالتحديد على الأخوّة المشتركة بينهما.

هذا الدين، نحن كُثر ممن عشناه من قبل لكن بعزلة دون تجديد ارتباطنا بالقوة المُقَرِبة والمُتَقرِبة.

سيكون ديناً له مهمة عقلانية: إنقاذ الكوكب وحضارته، وتحقيق الوحدة الإنسانية وحماية تنوعها. دين يضمن، ولا يحظر، الاستخدام الكامل للفكر العقلاني. دين يأخذ على عاتقه مسؤولية التفكير العلماني والإشكالي والنقد الذاتي الناجم عن النهضة الأوروبية. سيكون ديناً بالمعنى الأدنى للكلمة. هذا المعنى الأدنى ليس اختزالاً للعقلاني . إنه يحتوي على شيء فوق عقلاني: المشاركة في ما يتجاوزنا، والانفتاح على ما أسماه باسكال

---

(١) تحمل الكلمة هنا معنى دينياً في التقرب من الإله بقربان - المترجمة

التعاطف، الذي يمكننا أن نسميه الشغف المتبادل "compassion". إنه يضم شعوراً سرّانياً ومقدساً. ربما يتطلب طقساً. كل مجتمع يحتاج إلى اتحاد في الإيمان. في الطقوس التي يتناول فيها المؤمنون القربان المقدس، يشعر أولئك بقوة عمق التماثل المرتبط بما فوق العقلاني وما فوق الواقع (السريالي)، والذي يسمى بالنسبة لهم الإله (x). سيكون ديناً بلا إله، ولكن في غياب الإله سيتكشف الحضور الكلي والدائم للسرانية. سيكون ديناً بلا وحي (مثل البوذية)، دين المحبة (مثل المسيحية)، والرحمة (مثل البوذية)، ولكن لن يكون هناك أي خلاص بالخلود / قيامة الذات، ولا الخلاص من خلال ابتلاع الذات. سيكون دين الأعماق: مجتمع المعاناة والموت. سيكون ديناً بلا حقيقة أولية أوحقيقة نهائية. لا نعرف لماذا العالم هو العالم، ولماذا نحن في العالم، ولماذا نختفي هناك، ولا نعرف من نحن. سيكون ديناً بدون تدارك ربّاني، وبدون مستقبل مشرق، ولكن من شانه أن يربطنا بقوة في مغامرة مجهولة. سيكون ديناً بلا وعد، ولكن له جذور: جذور في ثقافاتنا، جذور في حضارتنا، جذور في تاريخ الكواكب، جذور في الجنس البشري، جذور في الحياة، جذور في النجوم التي صهرَتْ الذات التي تشكلنا، جذور في الكون حيث ظهرت الجزيئات التي تشكل ذراتنا. سيكون ديناً أرضياً، وليس ديناً فوق أرضياً، وليس خلاصاً أرضياً. إنما سيكون دين للحماية والانقاذ والتحرير والإخاء. سيكون ديناً، مثله مثل جميع الأديان، مع الإيمان، ولكن على عكس الديانات الأخرى التي تقمع الشك بالتعصب، فإنها تعترف بالشك داخلها والحوار معه. سيكون الدين الذي يضطلع بعدم اليقين. سيكون ديناً مفتوحاً على الهاوية. يندمج الاعتراف بالأرض - الوطن مع دين البشر الهالكين، أوبالأحرى يؤدي إلى هذا الهلاك. لذلك لا يوجد خلاص إذا

كانت الكلمة تعني الهروب من الهلاك. إنما إذا كان الخلاص يعني تجنب الأسوأ، وايجاد أفضل ما يمكن، فإن كان خلاصنا الشخصي في الضمير والمحبة والأخوة، وكان خلاصنا الجماعي في تجنب كارثة الموت المفاجئ للإنسانية وجعل الأرض، الضائعة في الكون، "ملاذ الخلاص".

خاتمة

كوكب الأرض- الوطن

وهكذا في نهاية المغامرة الرائعة التي بدأت في القرن الخامس عشر، أخذت صرخة المراقب على سفينة كريستوف كولومبوس أخيراً كل أبعاد معناها الكوكبي: الأرض! الأرض! (باللغة العربية نحن نستخدم كلمة اليابسة لكنها لا تماثل الكلمة الفرنسية ولا تخدم المعنى المطلوب - المترجمة) عشنا حتى الخمسينيات والستينيات على أرض نكرة، عشنا على أرض مجردة، عشنا على الأرض - الموضوع. لقد اكتشفت نهاية قرننا الأرض - النظام[1]، والأرض غايا (ورد تعريفها في هامش سابق - المترجمة) والمحيط الحيوي، والأرض التي هي جزء من الكون، لقد اكتشف البشر الأرض الوطن. لدى كل واحد منا شجرة العائلة الأرضية التي ينحدر منها، ولديه بطاقة هويته الأرضية. كل واحد منا جاء من هذه الأرض وإليها ينتمي وعليها يعيش.

نحن ننتمي إلى هذه الأرض التي تنتمي إلينا.

---

(١) لعله يقصد الأرض المتكاملة بيئياً ومحيطياً حيوياً وضمن سيرورة وصيرورة نظامها- المترجمة.

الالتقاء العظيم للنهرين

تمكنا من الوصول مع نهاية هذه الألفية إلى حد ما وتزامنياً و الإضطلاع بوعي تكاملي:

- الوعي بوحدة الأرض (الوعي التيلوري) (هو وعي تأثير الأرض في قاطنيها)؛
- الوعي بوحدة تنوع المحيط الحيوي (الوعي البيئي)؛
- الوعي بوحدة تنوع الإنسان (الوعي الأنثروبولوجي)؛
- الوعي بخصوصيتنا الإنسانية -البيولوجية –الفيزيائية ؛
- وعي dasein اللا- الماذا لدينا، وحقيقة "وجودنا" دون معرفة السبب؛
- الوعي بالعصر الكوكبي؛
- الوعي بالتهديد الداموكليني (الدمقفي).
- الوعي بالفناء المُخَيمِ على أفق حيواتنا وكل الحياة وكل الكواكب وكل الشموس؛
- الوعي بمصيرنا الأرضي.

ومن خلال هذا الإدراك يمكن للرسائل القادمة من الآفاق الأكثر تنوعاً أن تتلاقى الآن، الرسائل القادمة من الإيمان، من الأخلاق، من الإنسانية، من الرومانسية، والعلم، والقادمة من وعي عصر الحديد الكوكبي.

وهكذا، يمكن توحيد الفكر الإنساني التنويري الذي يعترف بوحدة النوع البشري مع المشاعر الرومانسية للطبيعة، التي أعادت اكتشاف العلاقة الجنينية مع الأرض - الأم. في الوقت نفسه، يمكننا أن نجمع بين حب الأناس القريبين (المقربين) والبعيدين (الغرباء)، التي هي مصدر الديانات العالمية الكبرى، وتبني مبادئ الرحمة في الديانة البوذية تجاه جميع الكائنات الحية، والأخوية الانجيلية والأخوية الأممية، الوريث العلماني، والاشتراكية للمسيحية، يمكن جمع كل هذه الافكار الإيجابية في الوعي الكوكبي الذي يربط البشر بعضهم بعضاً وبالطبيعة الأرضية. تلاقت كل هذه الرسائل، مع مرور الوقت، في المؤسسات التي تغيرت وتدهورت إلى درجة تبنيها المفاهيم المعاكسة تماماً أحياناً. هذه المفاهيم في حاجة دائمة إلى أن تنبعث من جديد ولربما تستطيع ذلك فيما بينها برفقة إنجيل الهلاك . كأنها قطع الأحجية (puzzle) المتبعثرة، التي حينما تبلغ كمالها تتخذ وجه الأنثروبو-أخلاقية.

الأرض!

السيطرة على الطبيعة؟ لا يزال الإنسان عاجزاً عن التحكم في طبيعته ويدفعه هذا الجنون إلى السيطرة على الطبيعة فاقداً بذلك سيطرته على نفسه. السيطرة على العالم؟ لكن الإنسان ما هو إلا ميكروب تافه في هذا الكون العملاق والغامض.

السيطرة على الحياة؟ ولكن حتى لو استطاع أن يصنع يوماً ما بكتيريا، فسيكون قد نجح فقط في استنساخ منظومة حيوية هوعاجز بالأصل عن تخيّلها . هل يمكنه خلق سنونو، جاموس، أسد البحر، زهرة الأوركيدا؟ يمكنه القضاء على البكتيريا بالمليارات، لكنه يعجز عن منع البكتيريا المقاومة

من التكاثر. يمكنه أن يُفني فيروسات معينة، لكنه أعزل في مواجهة الفيروسات الجديدة التي تسخر منه وتتحول وتجدد نفسها... حتى فيما يخص البكتيريا والفيروسات، سيتوجب عليه التفاوض مع الحياة والطبيعة.

لقد حول الإنسان الأرض، وسخر نباتات الأرض، وجعل من نفسه سيداً على حيواناتها، لكنه ليس سيد العالم، ولا حتى الأرض.

البشر هم غجر الكون الرّحل الباحثون عن المغامرة المجهولة، هذا هو المصير الأنثروبولوجي الذي نشأ وكشف عنه القرن الخامس من العصر الكوكبي بعد آلاف السنين من الانغلاق في دورة الحضارات المتكررة التقليدية، من سنوات من الإيمان بالأبدية (السرمدية)، من الإيمان بالأساطير الخارقة للطبيعة: إنه ببساطة الإنسان الذي وجد نفسه ملقى على هذه الأرض، في اللا لماذا "dasein" إنه مجرد إنسان هائم على وجهه، يترحل في رحلة لا يعرف مسارها المسبق، يعاني من القلق، من الهموم، لكن أيضاً يشعر بالزخم والشعر والنشوة. إنه الإنسان العاقل - المعتوه، غير المعقول "الواهم... المتجدد... الوحش... الفوضوي... المتناقض، المعجزة! الحاكم بأمر كل شيء، والوضيع بوضاعة دودة الأرض، الوصي على الحقيقة، وبالوعة من عدم اليقين والخطأ؛ انه مجد وحثالة الكون" كما قال باسكال[1]. إنه الإنسان المعترف به بالفعل من قبل هيراكليتس، أيشيل، سوفوكليس، شكسبير وغيرهم بلا شك في ثقافات أخرى.

يجب على هذا الإنسان أن يتعلم من جديد محدوديته الأرضية وأن يتخلى عن إيمانه المغلوط بالقدرة الغير محدودة للتقنية، والقدرة اللا محدودة

---

(١) أفكار، مرجع سابق. آنف الذكر، ص. ١٨٤.

للفكر، وطموحه الخاص في القوة الكلية، ليدرك حدود ذاته أمام اللا محدودية الحقيقية للكون التي لا يمكن تخيلها أو توصيفها. يجب على الإنسان الآن تكريس قدراته التقنية، وفكره، وضميره ليس للسيطرة وإنما للتطوير والفهم والتحسين.

علينا أن نتعلم أن نكون (داسين) على هذا الكوكب. أن نتعلم أن نكون، وهذا يعني تعلم العيش والتبادل والتواصل والتشارك والتوحد؛ هذا ما علمتنا إياه الثقافات المنغلقة. يجب أن نتعلم الآن أن نكون وأن نعيش ونشارك ونتواصل ونتشارك ونتوحد بكوننا بشراً على كوكب الأرض. ألا ننتمي إلى ثقافة معينة بل ننتمي إلى ثقافة الأرض.

مجتمع المصير الأرضي الموحد

أن يكون الكوكب بأكمله هو الوطن ؟ نعم هذا هو تجذّرنا في الكون. نحن نعلم الآن أن هذا الكوكب الصغير المفقود هو أكثر من مجرد مكان مشترك لجميع البشر. إنه بيتنا، منزلنا، مأوانا، إنه الأم بل وأكثر من ذلك إنه الأرض - الوطن. لقد أدركنا مصيرنا: يمكن أن نصبح دخاناً في الشموس ونتجمد إلى الأبد في الفضاءات. بالتأكيد يمكننا المغادرة والسفر واستعمار عوالم أخرى. ولكن هذه العوالم، قد تكون ملتهبة أومتجمدة، هي عوالم من دون حياة. أما هنا في منزلنا هناك نباتاتنا، حيواناتنا، موتانا، حيواتنا، أولادنا. لابد من إنقاذ الأرض - الوطن والمحافظة عليها.

حينها، يمكن أن نفهم "رابطة المصير " الأرضي بكل عمقها واتساعها وخلاصتها . البشر جميعهم يشاركون في مصير الهلاك. يعيش البشر جميعهم في

الحديقة العامة للحياة، في المنزل المشترك للإنسانية. يشارك البشر جميعهم في مغامرة العصر الكوكبي المشتركة. البشر جميعهم مهددون بالموت النووي والموت البيئي. البشر جميعهم يعانون من الوضع المتأرجح بين الألفيتين الأولى والثانية. يجب بناء التضامن الإنساني ليس وفق فكرة الخلاص الدنيوي الواهم، وإنما وفق إدراك هلاكنا، وفق إدراك إنتمائنا إلى المجتمع المشترك الذي نسجه العصر الكوكبي، كذلك وفق الوعي بمشكلاتنا المشتركة في الحياة أوالموت، وعي وضع الاحتضارفي نهاية هذه الألفية.

يجب أن يكون وعي رابطة المصير الأرضي هو الحدث الرئيس لنهاية هذه الألفية: نحن متضامنون مع هذا الكوكب، ترتبط حيواتنا بحياته، إما أن ننظم ذلك و إما نموت. الانتماء إلى الجنسية الأرضية هوالانتماء إلى المصير المشترك.

المشاركة في قيادة الأرض (القيادة الأرضية المشتركة)

يفرض اكتشاف المصير المشترك للإنسان مع الطبيعة مسؤولية أرضية (تيلورية) على الإنسان. وابتداءً من تلك اللحظة يجب عليه أن يتخلى جذرياً عن مشروع الغزو الذي صاغه ديكارت، بوفون، ماركس. ليس المطلوب الهيمنة على الأرض، ولكن معالجة الأرض المريضة، نسكنها ونطورها ونزرعها. يجب أن تعمل الإنسانية على التنظيم المشترك للغلاف الحيوي الأرضي. هذه الإنسانية لديها صلاحيات واسعة بالتأكيد، وهي تتزايد يوماً بعد يوم؛ ولكن المسألة ليست في التحكم الأحادي على الأرض، وإنما البحث عن القيادة المشتركة. هذه القيادة المزدوجة تفرض نفسها من خلال: الإنسان / الطبيعة، التكنولوجيا / البيئة، الذكاء الواعي / الذكاء اللاواعي... يجب أن تُدير الحياة الأرض، وأن يحكم الوعي الإنسان.

الخروج من العصر الحديدي الكوكبي هو إنقاذ البشرية، المشاركة في قيادة المحيط الحيوي، حضارة الأرض هي أربعة مصطلحات مرتبطة بحلقة تكرارية[1]، كل منها ضروري للثلاثة الأخرى. عندها تصبح معاناة الكواكب حَمْلاً لولادة جديدة: يمكننا الانتقال من مفهوم الجنس البشري إلى مفهوم الإنسانية. يمكن للسياسة أن تؤدي عملاً تأسيسياً جديداً عبر هذا المفهوم الإنساني ومن أجله. الكفاح ضد موت الجنس البشري والنضال من أجل ميلاد البشرية هما كفاح موحد.

الصراع الأولي

"هذه الفترة حرجة للغاية". لم يعد هناك أي يقين من الماضي. الحاضر يتكسر وينهار. المستقبل متداعٍ. كيف لا يمكن التشكيك؟ ما اعتقدنا في ١٩٨٩-١٩٩٠ أن يكون الفجر المهيب كان مجرد بريق شديد السطوع لانفجار نجمي هائل. هل كان مجرد حادث؟ يحول التسارع التطورات إلى انفجارات. تكتسح هذا العالم المصاب بالهلوسة والهذيان كارثة لم يسبق لها مثيل. نحن نوشك أن نخسر الأرض - الوطن. الكوارث تتوإلى.

فرض التحضّر على الأرض؟ لتطوير الجنس البشري إلى الإنسانية؟ لكن، ماذا يمكن أن نأمل من الإنسان العاقل - المعتوه؟ كيف يمكن إخفاء

---

(١) هو مبدأ تبادل مستمر للأدوار بين الأسباب **(العلل)** والنتائج **(المعلول)** من حيث إن كلاً منهما يؤثر في الآخر فيكون كل طرف في الآن عينه سبباً ونتيجة، أي هذا التناظر بين السبب والفعل: السبب ينتج الفعل والفعل ينتج السبب **(إ. موران .عنف العالم)** وبالتالي هي عملية تنتج نفسها وتعيد إنتاج نفسها بشرط ان يغذيها مصدر أو مخزون أو تدفق خارجي . - المترجمة

وتمويه المشكلة العملاقة والمرعبة المتمثلة في أوجه القصور في الإنسان؟ في كل مكان وزمان سادت الهيمنة والاستغلال على العون والتضامن المتبادلين؛ في كل مكان وزمان سادت الكراهية والازدراء على الصداقة والتفاهم، وفي كل مكان، في كل مكان جلبت أديان المحبة وأيديولوجيات الأخوّة المزيد من الكراهية وسوء الفهم أكثر ما جلبت من حب وإخاء .

غالباً ما دَحَرَ الجنون العقل على مر التاريخ، وانتصر اللا وعي على الوعي. لماذا يسلب الجنون واللا وعي مرة أخرى مصيرنا؟

لأنه، اليوم، العمى لا مثيل له لدى التقليديين والحداثيين وما بعد الحداثيين! يا لها من تجزئة للفكر! يا له من إنكار للتعقيد[1] الكوكبي! يا له من قصور وعي مطلق في كل مكان حول المشكلات الرئيسة! يا لها من همجية في العلاقات الإنسانية! يا له من انحدار في الروح والعقل ! يا له من إنكار!

أهوالتقدم من خلال الثقافة؟ نجحت النازية منذ وقت ليس ببعيد، في تحويل البلد الأكثر ثقافة في العالم إلى همج. كانت سان جيرمان دي بري أوالسوربون تمثل المثل العليا للجنس البشري؟ هل هذا هو ما ينفي الخسة والحسد واللؤم؟ هل يمنح هذا الوضوح والمعرفة بوضعنا في العالم؟ التقدم من خلال الحضارة؟ لكنه مجرد قشرة رقيقة، متصدعة وغير مكتملة. إنه يجلب مشكلات جديدة بينما يحاول حل المشكلات القديمة. إن تشخيص فرويد لشر الحضارة "أصبحت الحضارات عُصابية تحت تأثير الحضارات

---

(١) Complexus الأصل لاتيني، يُقصد به جملة من الوقائع الجزئية في تصور تركيبي . وقد اُستخدم هذا المفهوم في القرن السادس عشر كتوصيف للأشياء التي تتكون من عناصر مختلفة وقد تكون غير متجانسة -المترجمة

نفسها" صحيح للغاية وبالنظر إلينا قبل كل شيء، وهوما ينتج شروراً جديدة خاصة به. تتعطش الحضارة المتحضرة في ذروتها إلى الهمجية، كما وضحه جون بورمان في زاردوز[1]. فإذاً ما الذي يعنيه تَحَضْر الأرض، إذا كانت الثقافة والحضارة نفسها مشكلة؟

هذا يعني وهذا يعيدنا إلى النقطة الأساسة لدينا، أن الثقافة والحضارة لا تجلبان الخلاص. لكن الحضارة، في حالة عدم الرضى الذي يسببه إحساس الرضى عن نفسها، تعيد إحياء عدم الرضى الأنثروبولوجي، أي السعي إلى تحقيق الإنسانية. عدم الرضى عن الرضى الذي نشأ في حضارتنا والألغام هوبالضبط ما يمكن أن يستعد للتغلب عليها. في أي حال، يجب علينا أن نستانف مبدأ المقاومة. أخيراً، لدينا مبادئ إحياء الأمل في اليأس:

الأول، مبدأ حيوي : تماماً، كما يتجدد كل شيء يعيش من تلقاء نفسه في توتر لا يرحم تجاه مستقبله، لذلك فان كل شيء بشري يجدد الأمل مجدداً حياته، ليس الأمل هو الذي يعطي الحياة، أو الحياة هي التي تمنح الأمل، أو بالأحرى يجب أن يقال: الحياة هي التي تصنع الأمل والذي بدوره يصنع الحياة.

الثاني، هومبدأ عدم الإدراك: فكل التحولات أو الإبداعات العظيمة كانت لا مُتصَورة قبل أن توجد.

---

(١) Zardoz من أفلام الخيال العلمي عام ١٩٧٤، يطرح رؤية فلسفية تدور حول فكرة التحضّر والتخلف وهل يؤدي العلم إلى سعادة البشرية، وهل يمكن أن يتعلم المرء أن يتعلم؟وأن ينضج ويحقق التقدم العلمي دون أن يفقد روحه وقدراته البشرية؟ - المترجمة

الثالث، هومبدأ غير المحتمل: كل الأحداث التي منحت السعادة في التاريخ كانت دائماً غير محتملة.

الرابع، هومبدأ حيوان الخلد: الذي يحفر ممراته تحت الأرض ويحول البيئة التحت – ترابية قبل ان يتأثر السطح.

الخامس، هومبدأ الانقإذ من خلال الوعي بالخطر. حسب تعبير هولدرلين: "حيث ينمو الخطر، ينمو أيضاً ما يُنقذ".

السادس، هومبدأ أنثروبولوجي: نحن نعلم أن الإنسان - العاقل استخدم حتى الان جزءاً صغيراً جداً من إمكانات عقله / دماغه. لذلك نحن بعيدون عن استنفاد كل الإمكانات الفكرية، العاطفية الثقافية، الحضارية، الاجتماعية، السياسية. وهذه الإمكانات هي تلك الإنسانية. هذا يعني أن ثقافتنا الحالية تتعلق بالحضور الدائم لما قبل تاريخ الفكر الإنساني، أن حضارتنا الحالية تتوافق مع العصر الحديدي الكوكبي الحالي. هذا يعني، وقبل كل شيء، أنه، باستثناء كارثة محتملة، لسنا في نهاية الإمكانات الدماغية / الروحية للكائن البشري، والإمكانات التاريخية للمجتمعات، والإمكانات الأنثروبولوجية للتطور البشري. كل هذه التجاوزات وخيبات الأمل لا تمنع تصور مرحلة جديدة من الأنسنة، التي يمكن أن تكون، في الوقت نفسه مرحلة جديدة في الثقافة والحضارة.

تكافئ هذه المبادئ الستة الأسوأ. إنها لا توفر أي ضمانة. فالحيّ يمكن أن يلقى حتفه عرضاً. و ليس ما هو غير مُدْرَك يحدث بالضرورة.

اللا مُحتمل ليس مُفرحاً بالضرورة. يمكن أن يفسد حيوان الخلد ما أردنا الحفاظ عليه. احتمالية الإنقاذ قد تكون بمستوى الخطر.

لا تزال المغامرة مجهولة. قد ينهار العصر الكوكبي قبل أن يتمكن من الازدهار. قد لا تخلق معاناة الإنسانية إلا الموت والخراب. لكن الأسوأ ليس مُؤكداً، لم يرم اللاعبون كل أوراقهم بعد. هناك احتمال لمستقبل أفضل دون أن يكون هناك يقين أو حتى احتمالية.

المهمة هائلة وغير مؤكدة. لا يمكننا تسليم أنفسنا لليأس ولا للأمل. المهمة صعبة حدَّ الاستحالة، ولكن التراجع صعب حدَّ الاستحالة. يجب علينا تسلّيح أنفسنا "بصبرٍ مستبسلٍ "، فنحن لسنا في عشية المعركة النهائية، بل لانزال في المعركة الأولى.

فهرس

الصفحة

مقدمة ٧

تمهيد... تاريخ التاريخ... ما قبل التاريخ والتاريخ ٩

١ - العصر الكوكبي... الثورة الكوكبية ١٥

٢ - خريطة الهوية الأرضية ٤٧

٣ - الاحتضار الكوكبي ٨١

٤ - أهدافنا الأرضية ١٢٩

٥ - الحقيقة المستحيلة ١٦١

٦ - الانثروبوليتك ١٧٧

٧ - إصلاح الفكر ٢٠١

٨ - إنجيل الهلاك ٢١٧

خاتمة: كوكب الأرض – الوطن ٢٣٣

الفهرس ٢٤٤

إدغار موران (١٩٢١-...)

- كاتب وفيلسوف وعالم اجتماع معاصر؛
- حاصل على **وسام جوقة الشرف من رتبة ضابط أكبر**، ٢٠١٦؛
- من **مؤلفاته:**
  * الإنسان والموت
  * ثقافة أوروبا وبربريتها
  * إلى أين يسير العالم

آن بريجيت كرين

- كاتبة فرنسية؛
- متخصصة بالنقد الأدبي والعلمي؛
- عملت في مجال نشر الثقافة الفرنسية عام ٢٠١٠.

د. سلمى دبجن

- مترجمة سورية؛
- حاصلة على إجازة في طب الأسنان من جامعة دمشق؛
- يعد هذا الكتاب باكورة أعمالها المترجمة.

٢٠٢٢م